

الطبعة الثالثة
مكتبة ياسمين
ديانا وين جونز
قلعة هاول المتحركة
ترجمة: بثينة الإبراهيم
منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

وصف نيل غايمان الروائية ديان وين جونز بأنها أفضل كاتبة للأطفال في السنوات الأربعين الأخيرة. وقد كتبت هذه الرواية عام ١٩٨٦، وأصبحت منذ صدورها في مصافّ الأدب الكلاسيكي الذي يصلح للقراءة في أي زمان ومكان، وفازت بجائزة فينكس عام ٢٠٠٦، أي بعد عشرين عامًا من صدورها. كما تحولت إلى فيلم شهير أخرجه المبدع هاياو ميازاكي، وفاز الفيلم بجائزة مهرجان ماينتشي الياباني عام ٢٠٠٤، إضافة إلى ترشيحه لجائزة الأوسكار عام ٢٠٠٦.

تحفل الرواية بعدد من الموضوعات أبرزها المصير والتقدم في العمر والشجاعة والحب. إذ تستسلم صوفي في البداية لمصيرها في كونها كبرى أخواتها، والابن البِكر في نظرها يتقلد وسام الفشل، لذا لا ترى حاجة في بذل أي مجهود لتغيير هذا المصير. لكنّ للساحرة رأيًا مختلفًا، إذ تحوّل صوفي إلى امرأة مسنّة، فتضطر عندئذ إلى الخروج سعيًا وراء حظها، وإن كانت تحاول العثور على دواء يعيد إليها شبابها المسلوب.

أعادت صوفي ترتيب عالم هاول - وعالمها في الوقت نفسه - منذ أن وطئت قدمها أرض القلعة، بدءًا بتنظيف المكان وانتهاءً بإيقاظ ما أخمده الزمن في نفس هاول ونفسها. ولم تكن صوفي بالشخصية الملحمية ولا بذات المَلَكات الخارقة للطبيعة التي تنسجم وعالم السحرة الذي دخلته بطريق الصدفة. لكنها صنعت الأعاجيب بالقليل الذي تملكه، واتضح أن قليلها كثير، وكثير جدًا، إذ أعادت الحياة إلى الفزاعة وعفريت النار، وهاول نفسه.

لم تعُدِ الأمور إلى نصابها إلا بالحب، رُقية صوفي وتعويذتها التي منحت للعالم شكلًا جديدًا.

المترجمة

ديانا وين جونز

قلعة هاول المتحركة



منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

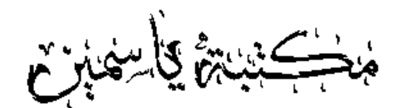


www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com

قلعة هاول المتحركة



ديانا وين جونز



t.me/yasmeenbook

قلعة هاول المتحركة

رواية

ترجمة

بثينة الإبراهيم



الكاتب: ديانا وين جونز

عنوان الكتاب: قلعة هاول المتحركة

ترجمة: بثينة الإبراهيم

إن باللغة الأصلية: Howl's Moving Castle

الكاتب: Diana Wynne Jones

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-80-9

الطبعة الأولى - أغسطس/ آب - 2021 - 2000 نسخة

الطبعة الثانية - سبتمبر/ أيلول - 2021 - 2000 نسخة

الطبعة الثالثة - أكتوبر/ تشرين الأول - 2021 - 2000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com takweenkw

takween_publishing TakweenPH

www.takweenkw.com

هذا الكتاب من أجل ستيفن

اقترح فكرة الكتاب صبي في مدرسة زرتها،
إذ طلب مني أن أؤلف كتابًا بعنوان القلعة المتحركة.
دوّنت اسمه، وحفظته في مكان أمين،
وعجزت عن العثور عليه منذئذ.
أود أن أشكره كثيرًا.



تليجرام

غواص في بحر الكتب

t.

الفصل الأول

وفيه تكلّم صوفي القبعات

في بلاد إنغَري، حيث توجد أحذية الفراسخ السبع وعباءات الإخفاء حقًا، فإن من سوء طالعك أن تكون أكبر ثلاثة. إذ يعرف الجميع أنك أول من يخفق، والأسوأ من هذا أن تخرجوا ثلاثتكم سعيًا وراء الحظ.

كانت صوفي هاتر أكبر ثلاث أخوات. لم تكن ابنة لحطاب فقير، ما يجعلها تحظى بفرصة للنجاح! بل كان والداها من الموسرين ويملكان متجرًا للقبعات النسائية في البلدة المزدهرة ماركت تشيبنغ. صحيح أن أم صوفي ماتت عندما كانت في الثانية من عمرها ولأختها لِتي من العمر سنة، فتزوج أبوهما بمساعدته الشابة، وهي فتاة شقراء جميلة تدعى فاني. سرعان ما أنجبت فاني الأخت الثالثة مارثا. لا بد أن هذا جعل من صوفي ولِتي الأختين القبيحتين، لكن الحقيقة أن الفتيات الثلاث جميعًا غدون جميلات جدًا، رغم أن لِتي تفوقهن جمالًا كما يقول الجميع. أحسنت فاني معاملة الأخوات الثلاثة باللطف نفسه ولم تؤْثر مارثا على أختيها.

كان السيد هاتر فخورًا ببناته الثلاث وأرسلهن إلى أفضل مدارس البلدة. وكانت صوفي أكثرهن مثابرة، إذ قرأت كثيرًا وأدركت سريعًا فرصتها الضئيلة في مستقبل باهر. فأحبطها ذلك، غير أنها ظلت سعيدة تعتني بأختيها وتهيئ مارثا لتكسب عيشها عندما يحين الوقت. ولما كانت فاني مشغولة في المتجر، فقد اعتنت صوفي بالصغيرتين. وتبادلت الصغيرتان الصراخ وتجاذبتا الشعر، وسلّمت لتي قطعًا بأنها من، بعد صوفي، ستكون الأقل نجاحًا.

«هذا ليس عدلًا!»، تصرخ لتي، «لماذا تحظى مارثا بالأفضل لأنها ولدت آخرنا؟ سأتزوج أميرًا، حقًا!».

وعلى هذا ردت مارثا دومًا بأنها سينتهي بها المطاف لتكون ثرية ثراء مقرفًا دون الحاجة إلى الزواج بأحد.

ثم تفرقهما صوفي وتصلح ثيابهما. لقد كانت بارعة في شغل الإبرة. وبمرور الوقت، خاطت ثيابًا لأختيها أيضًا، إذ خاطت ثوبًا ورديًا داكنًا للتي، في يوم مايو قبل أن تبدأ هذه القصة، قالت عنه فاني إنه يبدو مثل ثوب من أغلى المتاجر في كنغزبري.

أخذ الجميع في هذا الوقت بالحديث عن ساحرة اليباب ثانية. وقيل إن الساحرة قد هددت حياة ابنة الملك، وإن الملك أمر ساحره الشخصي؛ الساحر سولِن، بالذهاب إلى أرض اليباب ليتدبر أمر الساحرة. وتبيّن أن الساحر سولِن لم يفشل في تدبر أمر الساحرة فحسب، بل عرّض نفسه للقتل على يدها أيضًا.

لذا حين ظهرت، بعد بضع أشهر، قلعة شاهقة سوداء فجأة

على التلال فوق ماركت تشيبنغ، تنفث غيومًا من الدخان الأسود من أبراجها الرفيعة الطويلة الأربعة، كان الجميع واثقين تمام الثقة أن الساحرة قد انتقلت من أرض اليباب ثانية وتزمع بث الذعر في البلاد مثلما فعلت قبل خمسين عامًا. أصاب الذعر الناس حقًا، فلم يخرج أحد بمفرده، وبخاصة في الليل. وما جعل الأمر أكثر رعبًا أن القلعة لم تبقَ في المكان نفسه. إذ كانت أحيانًا لطخة سوداء طويلة على السباخ شمال شرق، وارتدّت أحيانًا فوق الصخور ناحية الشرق، ونزلت التلال أحيانًا لتحلّ على الخلنج خلف آخر المزارع شمالًا. بوسعك أن تراها تتحرك أحيانًا، والدخان ينبعث من أبراجها في نفثات رمادية قذرة. كان الجميع واثقين أن القلعة ستهبط الوادي قريبًا، وتحدث العمدة عن الإرسال إلى الملك طلبًا للعون.

لكن القلعة ظلت تتجول في التلال، وعُرف أنها ليست عائدة إلى الساحرة، بل إلى الساحر هاول. وكان الساحر هاول شريرًا كفاية. ورغم أنه لا يود ترك التلال فيما يبدو، فقد أشيع أنه يسلّي نفسه بجمع الفتيات الصغيرات وامتصاص أرواحهن، أو أكل قلوبهن مثلما قال البعض. لقد كان ساحرًا عديم الرأفة غليظ القلب ولم تكن أي فتاة صغيرة بمأمن منه إن أمسك بها وحيدة. وحُذّرت صوفي ولتي ومارثا، إلى جانب الفتيات الأخريات في تشيبنغ ماركت، من الخروج وحدهن، وهذا ما ضايقهن كثيرًا. إذ تساءلن أي نفع وجده الساحر هاول في كل الأرواح التي جمعها.

لكنهن سرعان ما شغلن بأمور أخرى، إذ مات السيد هاتر

فجأة، حين بلغت صوفي من العمر ما يكفي لترك المدرسة. تبين أن السيد هاتر كان شديد الفخر ببناته، فرسوم المدرسة التي دفعها أثقلت المتجر بالديون. ولما انتهت الجنازة، جلست فاني في ردهة البيت المجاور للمتجر وشرحت الوضع.

«أخشى أن عليكن جميعًا ترك المدرسة»، قالت. «كنت أجمع وأطرح وأقلب الحسابات ذات اليمين وذات الشمال، ولا أرى وسيلة للحفاظ على المتجر والاعتناء بكن إلا رؤيتكن ثابتات في تدريب يُرجى خيره في مكان ما. وليس بقاؤكن في المتجر جميعًا بالأمر المجدي، ولا يمكنني تحمّل نفقاته، وإليكن ما قررت. لنبدأ بلتي..».

رفعت لتي رأسها، متوهجة صحة وجمالًا لم يخفِهما الحزن والثياب السوداء.

«أود متابعة الدراسة»، قالت.

«ستفعلين يا حبيبتي»، قالت فاني. «رتبت لك لتكوني متدربة في متجر سيسري، مخبز المعجنات في ماركت سكوير. إنهم يُعرفون بمعاملة متدربيهم كالملوك والملكات، وستكونين سعيدة للغاية هناك، إلى جانب تعلّم مهنة مفيدة. إن سيسري زبونة جيدة وصديقة طيبة، وقد وافقت على انضمامك خدمة لي».

ضحكت لتي ضحكة أظهرت أنها ليست مسرورة البتة. «حسن، شكرًا لك»، قالت. «أليس من حسن حظي أني أحب الطبخ؟».

بدا الارتياح على فاني، إذ تكون لتي صعبة المراس أحيانًا.

«والآن دور مارثا»، قالت. «أعلم أنك صغيرة جدًا لتخرجي إلى العمل، لذا فكرت في شيء يمنحك تدريبًا طويلًا هادئًا ويظل مفيدًا لك أيًا ما قررت فعله بعدئذ. أتعرفين صديقتي أيام الدراسة أنابيل فيرفاكس؟».

كانت مارثا رشيقة جميلة، وركزت عينيها الكبيرتين الرماديتين بعناد مثل عناد لتي. «أتعنين التي تتحدث كثيرًا»، قالت، «أليست ساحرة؟».

«بلى، ولها بيت جميل وزبائن من كل أنحاء فولدنغ ڤالي»، قالت فاني متحمسة، «إنها امرأة طيبة يا مارثا، وستعلمك كل ما تعرفه، وقد تعرّفك إلى أشخاص رفيعي المقام ممن تعرف في كنغزبري. ستكونين مستعدة للحياة حين تنتهي من تعليمك».

«إنها سيدة لطيفة»، أقرّت مارثا، «موافقة».

أحست صوفي، وهي تصغي، أن فاني قد تدبرت أمر كل شيء كما يجب. ولما كانت لتي الابنة الثانية، فما كانت لتحقق الكثير، لذا فقد وضعتها فاني حيث يسعها لقاء متدرب شاب وسيم والعيش في سعادة أبدية. ومارثا، التي تعين عليها الانطلاق للسعي وراء حظها، ستتعلم صنعة السحر ويكون لها أصدقاء أثرياء لمساعدتها. أما صوفي، فلم يساورها الشك في ما سيأتي. ولم تدهش حين قالت فاني: «والآن يا عزيزتي صوفي، يبدو حقًا وإنصافًا أن ترثي متجر القبعات حين أتقاعد، ما دمت أكبر أخواتك. لذا قررت أن أدربك بنفسي، لأمنحك فرصة تعلم حرفة. فما رأيك في هذا؟».

لم تقل صوفي إلا إنها تقبل حرفة صنع القبعات، وشكرت فاني بامتنان.

«ها قد سوينا الأمر إذن!»، قالت فاني.

ساعدت صوفي اليوم التالي مارثا على حزم ثيابها في صندوق، والصباح الذي أعقب ذلك، رأينها كلهن تغادر في العربة، وهي تبدو صغيرة خلوقة متوترة. إذ كان الطريق نحو أبر فولدنغ، حيث تعيش السيدة فيرفاكس، يقع فوق التلال خلف قلعة الساحر هاول المتحركة. ولذا اعترى مارثا خوف مبرر.

«ستكون بخير»، قالت لتي. ورفضت لتي أي مساعدة في حزم متاعها، ولما غابت العربة عن الأنظار، حشرت كل متاعها في كيس مخدة ودفعت للفتى ملمّع الأحذية جارهم ستة بنسات ليحملها في عربة يدوية إلى مخبز سيسري في ماركت سكوير. سارت لتي خلف العربة بادٍ على وجهها الفرح أكثر مما ظنت صوفي. بل كان لها هيئة من لا يعتزم العودة إلى متجر القبعات أبدًا.

أحضر ملمع الأحذية رسالة مخربشة من لتي، قائلة إنها وضعت حاجياتها في سكن الفتيات وإن مخبز سيسري يبدو ممتعًا. وبعد أسبوع جلب الساعي رسالة من مارثا تقول إنها وصلت سالمة وإن السيدة فيرفاكس كانت «لطيفة للغاية وتضع العسل مع كل شيء، وهي تربي النحل». كان هذا كل ما عرفته صوفي من أختيها لبعض الوقت، لأنها بدأت تدريبها في يوم سفر لتي ومارثا.

كانت صوفي تعرف بطبيعة الحال حرفة صنع القبعات جيدًا.

فمنذ أن كانت طفلة صغيرة ركضت جيئة وذهابًا في المشغل الكبير في الطرف الآخر من الفناء حيث تبلل القبعات وتصب في قوالب، وتصنع الزهور والفاكهة وغيرها من الزينة من الشمع والحرير. كانت تعرف العاملين، إذ عمل معظمهم هناك منذ أن كان أبوها صبيًا. كانت تعرف بيسي، المساعدة الباقية الوحيدة. كما عرفت الزبائن الذين يشترون القبعات والرجل الذي يقود العربة ويجلب قبعات القش الخام من الريف لتوضع في القوالب في المشغل. وكانت تعرف المتعهدين الآخرين وصنع اللباد من أجل القبعات الشتوية. لم يكن عند فاني الكثير مما تعلّمها إياه، عدا أفضل الطرق لدفع زبونة لشراء قبعة.

«ترشدينها إلى القبعة المناسبة يا حبيبتي»، قالت فاني، «اعرضي عليها القبعات التي لن تناسبها أولًا، فتدرك الفارق حالما تعتمر القبعة المناسبة».

في الحقيقة، لم تبع صوفي كثيرًا من القبعات. وبعد يوم أو نحوه من المراقبة في المشغل، ويوم آخر متنقلة بين بائع القماش وتاجر الحرير مع فاني، عهدت إليها فاني بتزيين القبعات. فجلست صوفي في قنطرة صغيرة في مؤخرة المتجر، تخيط الورود على القبعات والخُمُر على القطيفة، وتبطنها كلها بالحرير، وتزين جانبيها بالثمار الشمعية والشرائط تزيينًا أنيقًا. كانت بارعة في هذا، وأحبت القيام به. لكنها أحست بالوحدة وبشيء من الضجر. كان العاملون في المشغل كبارًا لتمرح معهم، كما أنهم عاملوها معاملة امرئ مختلف

سيرث المتجر يومًا ما. عاملتها بيسي بالمثل، ولم يكن لها حديث إلا عن المزارع الذي تعتزم الزواج به بعد أسبوع من يوم مايو. حسدت صوفي فاني التي تنطلق مسرعة لمساومة تاجر الحرير كلما أرادت.

كان حديث الزبائن أمتع الأمور، فلا يمكن لأحد أن يشتري قبعة دون شيء من النميمة. وجلست صوفي في قنطرتها وخاطت وسمعت أن العمدة لا يأكل الخضار الخضراء أبدًا، وأن قلعة الساحر هاول تحركت نحو الجروف ثانية، وأن ذاك الرجل حقًا، همس، همس، همس.... تغدو الأصوات خفيضة كلما تحدثوا عن الساحر هاول، لكن صوفي عرفت أنه أمسك بفتاة أسفل الوادي الشهر الماضي. «ذو اللحية الزرقاء!»، قالت الهمسات، ثم علت الأصوات ثانية لتقول إن جين فارير كانت مجلبة للعار بتصفيفة شعرها. كانت تلك تسريحة لن تجذب أحدًا حتى الساحر هاول، ناهيك برجل محترم. ثم دار همس عابر مخيف عن ساحرة اليباب. أخذت صوفي تشعر أن الساحر هاول وساحرة اليباب يجب أن يجتمعا.

«كأنهما خُلقا لبعضهما بعضًا، لا بد أن يوفّق أحد بينهما»، قالت للقبعة التي تزينها تلك اللحظة.

في نهاية الشهر، أضحت النميمة في المتجر فجأة عن لتي. إذ تبين أن مخبز سيسري قد اكتظ بالرجال المحترمين من الصباح إلى الليل، وكل منهم يشتري كميات من الكيك ويطلب أن تقدمها لتي. وتقدم لها عشرة خاطبين، تتراوح مستوياتهم من ابن العمدة إلى

الفتى الذي يكنس الشارع، وقد رفضتهم كلهم، قائلة إنها صغيرة جدًا ولن تتخذ قرارًا الآن.

«أرى هذا حصافة منها»، قالت صوفي للقبعة التي تثني فيها الحرير.

فرحت فاني بهذه الأخبار. «عرفت أنها ستكون على ما يرام!»، قالت سعيدة. وتبادر إلى ذهن صوفي أن فاني سعيدة لعدم وجود لتي في الجوار.

«إن وجود لتي سيء على الزبائن»، قالت للقبعة، وهي تثني الحرير بلون الفطر. «ستجعل منك فاتنة أنت أيتها الشيء القديم البالي. يعتري اليأس السيدات الأخريات كلما نظرن إلى لتي».

تحدثت صوفي إلى القبعات أكثر فأكثر بمرور الأسابيع. لم يكن لديها أحد آخر تكلمه، إذ تخرج فاني للمساومة أو تحاول أن تشجع الزبائن معظم اليوم، وكانت بيسي مشغولة في خدمة الجميع وإخبارهم بخطط زواجها. اعتادت صوفي وضع كل قبعة على منصتها حين تنتهي منها، حيث تكون شبيهة برأس بلا جسد، وتتوقف وهي تخبر القبعة كيف يجب أن يكون الجسد تحتها. كانت تلاطف القبعات قليلًا، لأن عليك أن تلاطف الزبائن.

«إن فيك سحرًا غامضًا»، قالت لقبعة ذات خمار بأحجار لامعة مموّهة، وقالت لقبعة قشدية اللون تكسو الورود طرفها السفلي «ستتزوجين المال!»، ولقبعة من القش خضراء بلون اليسروع لها ريشة مجعدة خضراء قالت «إنك يانعة كورق شجر ربيعية». وقالت

للقبعات الزهرية إن لهن نقراتٍ فاتنة، وللقبعات الأنيقة المزينة بالقطيفة إنهن مليحات. وقالت للقبعة المزمزمة بلون الفطر «إن لك قلبًا من ذهب وسيراه أحد في منصب رفيع ويقع في غرامك»، ذاك أنها كانت تشعر بالأسى على تلك القبعة بالذات، فقد بدت مبهرجة قبيحة.

جاءت جين فارير إلى المتجر اليوم التالي واشترتها. لقد بدا شعرها غريبًا، قالت صوفي في نفسها، وهي تختلس النظر من قنطرتها، كأن جين قد لفته حول صف من المساعير. وانتقاؤها لتلك القبعة مؤسف، ولكن الجميع يشترون القبعات والقلنسوات في ذلك الوقت. ربما كان ذاك بفضل دعاية فاني، أو لقدوم الربيع، لكن تجارة القبعات كانت تنتعش قطعًا. قالت فاني، بشيء من الشعور بالذنب، «ما كان يجدر بي التسرع في إبعاد مارثا ولتي، فلربما تدبرنا أمرنا على هذا النحو».

كان الزبائن كثرًا حين اقترب إبريل من يوم مايو[1]، فتعينّ على صوفي أن تلبس ثوبًا رماديًا محتشمًا وتساعد في المتجر أيضًا. ولكنها اضطرت إلى تزيين القبعات بين الزبون والآخر إذ كان الإقبال كبيرًا، وتأخذها كل مساء إلى البيت المجاور، حيث تعمل قرب المصباح في وقت متأخر من الليل بغية أن يكون عندها من القبعات ما يباع. كان الطلب كبيرًا على القبعات الخضر بلون اليسروع مثل

---

(١) يوم يحتفل فيه في عدد من الدول بمهرجان تقليدي لقدوم الربيع، وفي المملكة المتحدة هو عطلة رسمية تقع في الاثنين الثاني من شهر مايو.

التي طلبتها زوجة العمدة، والقلنسوات الزهرية. ثم في الأسبوع السابق ليوم مايو، دخل أحدهم وطلب قبعة مزمزمة لها لون الفطر مثل التي اعتمرتها جين فارير حين هربت مع كونت كاتراك.

تلك الليلة، اعترفت صوفي لنفسها أثناء الخياطة أن حياتها مملة قليلًا. وبدلًا من الحديث إلى القبعات، جربت اعتمار كل واحدة منها بعد الانتهاء منها ونظرت في المرآة. كان هذا خطأ، فالثوب الرمادي المحتشم لا يناسب صوفي، وبخاصة إن كانت عينيها محمرتين من الخياطة، ولما كان شعرها بلون القش المائل للحمرة، فلم تناسبها الخضراء بلون اليسروع ولا الزهرية. أما المزمزمة بلون الفطر فقد جعلتها تبدو مخيفة. «مثل عانس!»، قالت صوفي. لم تكن راغبة في الهروب مع الكونتات، مثل جين فارير، ولا تخيلت أن نصف البلدة ستتقدم طالبة منها الزواج مثل لتي. لكنها أرادت أن تفعل شيئًا – لم تعرف ما هو تمامًا– يتحلى بشيء من المتعة أكثر من الاكتفاء بتزيين القبعات. لذا ظنت أنها ستجد وقتًا اليوم التالي للذهاب والتحدث إلى لتي.

لكنها لم تذهب. إما لأنها لم تسنح لها فرصة، أو لفتور همّتها، أو لأن المسافة بعيدة إلى ماركت سكوير، أو لأنها تذكرت أن ذهابها وحدها خطر بسبب الساحر هاول على أية حال، وازداد صعوبة الذهاب لرؤية أختها كل يوم. كان غريبًا للغاية، فقد ظنت صوفي دومًا أنها صعبة المراس بقدر لتي. لكنها أخذت تدرك أنها تفعل بعض الأمور التي تفعلها حين لا يبقى أي عذر. «هذا غريب!»،

قالت صوفي، «تقع ماركت سكوير على مبعدة شارعين فحسب. إن ركضت...»، وأقسمت لنفسها إنها ستذهب إلى مخبز سيسري لدى إغلاق متجر القبعات يوم مايو.

أثناء ذلك تسربت إلى المتجر نميمة جديدة. لقد تشاجر الملك مع أخيه الأمير جستن، كما قيل، ونُفي الأمير. لم يعرف أحد حق المعرفة سبب الخلاف، لكن الأمير جاء حقًا إلى ماركت سكوير متخفيًا قبل بضعة أشهر، ولم يعرف أحد. أرسل الملكُ كونت كاتراك للبحث عن الأمير، حين التقى بجين فارير بدلًا عنه. فأصغت صوفي وحزنت. إن الأشياء المثيرة تحدث حقًا، ولكنها تحدث لأحد آخر دومًا. ورغم ذلك، ستكون رؤية لتي لطيفة.

جاء يوم مايو. وامتلأت الشوارع بالمرح منذ الفجر. خرجت فاني مبكرة، لكن صوفي عندها بعض القبعات تنهيها أولًا. غنت صوفي وهي تعمل، فلتي تعمل أيضًا، إذ كان مخبز سيسري يظل مفتوحًا حتى منتصف الليل في أيام الإجازات. «سأشتري قطعة من كيك الكريمة»، قررت صوفي. «لم أتناول واحدة منذ عصور». رأت الناس يتجمعون خلف النافذة لابسين أزهى الثياب من مختلف الصنوف، وناس يبيعون الهدايا التذكارية، وناس يمشون على طوالات، وتحمست كثيرًا.

ولكن حين وضعت صوفي في نهاية المطاف وشاحًا رماديًا فوق ثوبها الرمادي وخرجت إلى الشارع، لم تشعر بالحماس، بل بالارتباك. كان الكثير من الناس يسرعون متجاوزين إياها،

صاخبين صارخين، والضجيج والتدافع كبيران. فأحست صوفي أن الأشهر الماضية من الجلوس والخياطة قد حولتها عجوزًا أو شبه معتلة. لملمت وشاحها حولها وتسللت قريبًا من البيوت، محاولة تفادي أن تطؤها أحذية الناس الجميلة أو تطعنها المرافق المكتسية بالأكمام الحريرية الطويلة. حينئذ انهمر وابل مدوٍ في الأعلى من مكان ما، وظنت صوفي أنها ستقع مغشيًا عليها. فرفعت نظرها ورأت قلعة الساحر هاول على التلال التي تعلو البلدة، قريبة للغاية كأنها تجلس على المداخن. كان اللهب الأزرق ينبعث من أبراج القلعة، مطلقة كرات من النيران الزرقاء التي انفجرت عاليًا في السماء على نحو مفزعٍ. كأن يوم مايو ضايق الساحر هاول، أو لعله يحاول الانضمام على طريقته. أصاب صوفي الذعر الشديد فلم تأبه للسبب، ولولا أنها قطعت نصف الطريق إلى مخبز سيسري حينئذ، لعادت إلى البيت. لذا ركضت.

«ما الذي دفعني للتفكير بأني أريد حياة مثيرة؟»، سألت نفسها وهي تجري. «سأصاب بفزع شديد، وهذا لأني أكبر ثلاث».

حين وصلت ماركت سكوير، كان الأمر أسوأ إن أمكن القول. كانت معظم النُزُل تقع في الميدان. وترنحت جموع من الشبان ثملين غدوًا ورواحًا، يجررون أذيال عباءاتهم وأكمامهم الطويلة ويتعثرون بأحذيتهم ذات الأبازيم التي لن يحلموا بلبسها في يوم عمل، متحدثين بصوت عالٍ، ومبادئين الفتيات بالكلام. مشت الفتيات في ثنائيات أنيقة، مستعدات للحديث. كان ذلك عاديًا في يوم مايو،

لكن صوفي خافت من هذا أيضًا. وحين رأى شاب يلبس زيًا بديعًا باللونين الأزرق والفضي صوفي وقرر أن يبادئها بالكلام أيضًا، انكمشت صوفي عند باب متجر وحاولت الاختباء.

نظر إليها الشاب مندهشًا. «كل شيء على ما يرام، أيتها الفأرة الرمادية الصغيرة»، قال ضاحكًا بشيء من الشفقة. «أردت أن أدعوك إلى شراب فحسب، فلا تجزعي».

أخجلت النظرة المشفقة صوفي تمامًا. لقد كان شابًا مندفعًا أيضًا، له وجه عاجي متأنق -كبير حقًا، حسن في العشرينات من العمر- وشعر أشقر طويل. كانت أكمامه أطول من أكمام أي أحد في الميدان، حوافها مطعمة بالصدف وقطبها فضية. «أوه، كلا، شكرًا لك، أستميحك عذرًا يا سيدي»، تلعثمت صوفي. «أنا... أنا في طريقي للقاء أختي».

«فافعلي إذن»، ضحك الشاب المتمدن. «ومن أنا لأعيق سيدة جميلة عن أختها؟ أتودين أن أرافقك، ما دمت خائفة جدًا؟».

لقد قال ذاك بلطف، فخجلت صوفي أكثر. «كلا، كلا شكرًا لك سيدي!»، قالت لاهثة وفرت سريعًا من أمامه. كان يضع عطرًا أيضًا. تبعتها رائحة العيسلان في ركضها. يا له من شخص دمث! قالت صوفي في نفسها، وهي تشق طريقها بين الطاولات الصغيرة خارج مخبز سيسري.

كانت الطاولات ممتلئة، والمتجر مكتظًا ومزعجًا بقدر الميدان. ورأت صوفي لتي بين صف من المساعدين عند المنضدة بسبب جمع

من أبناء المزارعين كما يبدو الذين يسندون مرافقهم على المنضدة ويصرخون بعبارات التودد لها. كانت لتي، أجمل من ذي قبل وأنحف قليلًا، تضع كيكات في الأكياس بأسرع ما استطاعت، طاوية كل كيس طيًا بارعًا وناظرة من تحت مرفقها بابتسامة وردّ على كل كيس طوته. ساد ضحك كثير، واضطرت صوفي لشق طريقها حتى المنضدة.

رأتها لتي، واعتراها الخوف للحظة. ثم اتسعت عيناها وابتسامتها وصاحت: «صوفي!».

«أيمكنني التحدث إليك؟»، صاحت صوفي. «في مكان ما»، صرخت، بقليل من العجز، حين دفعها مرفق كبير حسن الثياب بعيدًا عن المنضدة.

«انتظري لحظة!»، صرخت لتي. واستدارات إلى الفتاة الواقفة جوارها وهمست. هزت الفتاة رأسها، وابتسمت وجاءت لتأخذ مكان لتي.

«ستتحدثون إلي الآن»، قالت للجمع. «من التالي؟».

«لكني أود الحديث إليك يا لتي!»، صاح واحد من أبناء المزارعين.

«تحدث إلى كيري»، قالت لتي. «أريد التحدث إلى أختي». لم يمانع أحد، بل دفعوا صوفي إلى طرف المنضدة، حيث رفعت لتي لوحًا وأشارت إليها، وقالوا لها ألا تؤخر لتي طوال اليوم. حين

وصلت صوفي اللوح، أمسكت لتي بمعصمها وسحبتها إلى مؤخر المخبز، إلى غرفة مسورة بالمَنصَب الخشبي تلو المنصب، وكل منها مليء بصفوف من الكيك. سحبت لتي مقعدين. «اجلسي»، قالت. وبحثت في أقرب منصب، بهيئة شاردة الذهن، وناولت صوفي كيكة عليها كريمة. «قد تحتاجين هذا»، قالت.

تهاوت صوفي على المقعد، مستنشقة الرائحة الشذية للكيك وانتابتها رغبة صغيرة بالبكاء. «أوه، لتي!»، قالت. «تسرني رؤيتك للغاية!».

«أجل، وأنا سعيدة لرؤيتك جالسة»، قالت لتي. «أنا لست لتي، بل أنا مارثا كما ترين».

الفصل الثاني

وفيه تضطر صوفي إلى السعي وراء حظها

«ماذا؟»، حملقت صوفي في الفتاة الجالسة على المقعد قُبالتها. بدت شبيهة بلتي تمامًا، وكانت تلبس ثاني أفضل فستان أزرق عند لتي، أزرق رائعًا يلائمها تمامًا، ولها شعر لتي الداكن وعيناها الزرقاوان.

«أنا مارثا»، قالت أختها. «من التي أمسكتِ بها تنقش أدراج حرائر لتي؟ لم أخبر لتي بذلك قط، أفعلتِ؟».

«كلا»، قالت صوفي الذاهلة. استطاعت أن تدرك الآن أنها مارثا. فهذه إمالة مارثا لرأس لتي، وأسلوب مارثا في شبك يديها حول ركبتيها ولفّ إبهاميها. «لماذا؟».

«كنت أخاف أن تأتي لرؤيتي»، قالت مارثا، «لأني عرفت أني سأضطر لإخبارك. أشعر بالارتياح الآن. عديني أنك لن تخبري أحدًا، أعلم أنك لن تبوحي بالسر إن وعدتِ. إنك صادقة للغاية».

«أعدك»، قالت صوفي. «ولكن لماذا؟ كيف؟».

«رتبنا الأمر أنا ولتي»، قالت مارثا وهي تلف إبهاميها، «لأن لتي أرادت تعلم السحر ولم أرغب به، ولتي ذكية، وترغب بأن يكون لها مستقبل يمكّنها من استخدام ذكائها؛ حاولي أن تقولي هذا لأمي! إن أمي شديدة الغيرة من لتي فلن تعترف بذكائها!».

لم تصدق صوفي أن فاني هكذا، لكنها تجاوزت الأمر. «ولكن ماذا عنك؟».

«كلي كيكتك»، قالت مارثا. «إنها لذيذة. أوه، أجل أستطيع أن أتحلى بالذكاء أيضًا. لقد قضيت أسبوعين في منزل السيدة فيرفاكس لأعثر على الرقية التي نستخدمها. نهضت ليلًا وقرأت كتبها خلسة، وكان ذلك سهلًا حقًا. ثم طلبت زيارة أسرتي ووافقت السيدة فيرفاكس. إنها لطيفة، إذ ظنتني أحن إلى البيت. فأخذت الرقية معي وجئت هنا، وعادت لتي إلى منزل السيدة فيرفاكس متظاهرة أنها أنا. كان الأسبوع الأول أصعب الأجزاء، إذ لم أعرف كل الأشياء التي يفترض بي معرفتها. كان ذاك مروعًا، لكني اكتشفت أن الناس يحبوني -إنهم يحبونك إن أحببتهم كما تعرفين- ثم غدا كل شيء على ما يرام. ولم تطرد السيدة فيرفاكس لتي، لذا فأظنها تبلي حسنًا».

قضمت صوفي الكيكة لكنها لم تطعمها حقًا. «ولكن ما الذي دفعك إلى هذا؟».

تمايلت مارثا في مقعدها، متبسمة في طول وجه لتي وعرضه، تلف إبهاميها في دوامة وردية سعيدة. «أود أن أتزوج ويكون لي من الأطفال عشرة».

«ما زلت صغيرة!»، قالت صوفي.

«صحيح»، وافقتها مارثا. «ولكنك ترين أن علي البدء بأسرع وقت لأنجب عشرة أطفال. وهذا يمنحني الوقت لأنتظر وأرى إن كان الشخص الذي أريده يحبني لنفسي. ستزول الرقية شيئًا فشيئًا، وسأعود إلى هيئتي أكثر فأكثر، كما تعرفين».

أصابت الدهشة صوفي فأنهت كيكتها دون أن تدري ما نوعها. «ولماذا عشرة أطفال؟».

«لأن هذا العدد الذي أريده»، قالت مارثا.

«لم أعلم بهذا قط!».

«حسن، ما كان يجدر بي الحديث عن ذلك وأنت مشغولة بتأييد أمي في السعي وراء حظي»، قالت مارثا. «حسبتِ أن هذا ما تريده أمي، وهذا ما حسبته أنا أيضًا. حتى مات أبي ورأيتها تحاول التخلص منا، فأرسلت لتي إلى حيث ترى كثيرًا من الرجال وتتزوج، وترسلني إلى أبعد ما تستطيع! غضبت للغاية فقلت ولِمَ لا؟ وتحدثت إلى لتي وكانت غاضبة بقدري واتفقنا. إننا بخير الآن، ولكننا حزينتان من أجلك. أنت شديدة الذكاء واللطف لتظلي في ذلك المتجر طوال حياتك. تحدثنا عن ذلك، لكننا لم نعرف ما يجدر بنا فعله».

«أنا بخير»، احتجت صوفي. «أشعر بقليل من السأم».

«بخير؟»، تعجبت مارثا، «أجل، وتثبتين أنك بخير بعدم قدومك إلى هنا لأشهر، ثم تظهرين لابسة ثوبًا رماديًا ووشاحًا

مخيفين، وتبدين كأن كل شيء يثير فزعك حتى أنا! ما الذي فعلته بك أمي؟».

«لا شيء»، قالت صوفي دون ارتياح. «لقد كنا منشغلتين بعض الشيء. ولا يجدر بك الحديث عن فاني هكذا يا مارثا، فهي أمك».

«أجل، وأنا أشبهها بما يكفي لأفهمها»، ردت مارثا. «لهذا أبعدتني، أو حاولت إبعادي. تعلم أمي أن لا حاجة بها إلى القسوة لتستغل أحدًا. وتعلم أنك فتاة مطيعة، وتعلم ذاك الأمر حول الفشل لأنك الأكبر. لقد استغلتك جيدًا واستعبدتك لصالحها. أراهن أنها لا تدفع لك أجرًا».

«ما زلت متدربة»، اعترضت صوفي.

«وأنا كذلك، لكني أحصل على أجر. يعلم آل سيسري أني أستحقه»، قالت مارثا. «إن المخبز يعد النعناعية هذه الأيام، وكل ذاك بفضلك، لأنك صنعت تلك القبعة الخضراء التي جعلت زوجة العمدة تبدو شبيهة بتلميذة مدرسة فاتنة، ألم تصنعيها؟».

«الخضراء بلون اليسروع، لقد زينتها»، قالت صوفي.

«والقلنسوة التي اعتمرتها جين فارير حين التقت ذاك الرجل النبيل»، تابعت مارثا. «إنك عبقرية في صنع القبعات والثياب، وأمي تعلم ذلك! لقد قررت مصيرك عندما خطت للتي ذاك الثوب في يوم مايو الماضي. أنت تجنين المال وهي تلهو...».

«تخرج لتشتري لنا ما نحتاج»، قالت صوفي.

«تشتري!»، صاحت مارثا. ودار إبهاماها. «هذا يستغرق نصف صباح. لقد رأيتها يا صوفي، وسمعت الأقاويل. إنها تخرج في عربة مستأجرة وتلبس ثيابًا جديدة بها تجنين، وتزور كل القصور في الوادي! يقولون إنها ستشتري ذلك المكان الكبير في ڤيل إند وتؤثثه بأناقة. وأين أنت؟».

«تستحق فاني شيئًا من السعادة بعد شقائها في تربيتنا»، قالت صوفي. «أحسبني سأرث المتجر».

«يا له من مصير!»، قالت مارثا. «اسمعي...».

ولكن في تلك اللحظة سحبت منصبتا كيك فارغتان في الطرف الآخر من الغرفة، وأقحم متدرب رأسه من الخلف. «ظننتني سمعت صوتك يا لتي»، قال مبتسمًا أشد الابتسامات توددًا ولطفًا. «المخبوزات الجديدة جاهزة. أخبريهم». واختفى رأسه الأجعد، المعفر بالدقيق قليلًا. ظنته صوفي فتى لطيفًا. وتحرقت شوقًا لتسأل إن كان هو من يعجب مارثا حقًا، لكنها لم تحظ بفرصة. فقد وثبت مارثا واقفة مستعجلة، وهي لم تزل تتكلم.

«يجب أن أنادي الفتيات ليحملن هذا كله إلى المتجر»، قالت. «احملي معي الطرف الآخر لهذه». وسحبت أقرب المنصبتين وساعدتها صوفي لإخراجها من الباب إلى المتجر الصاخب المزدحم. «عليك أن تفعلي شيئًا لأجل نفسك يا صوفي»، لهثت مارثا وهما تخرجان. «ظلت لتي تقول إنها لا تعرف ما سيحل بك لو لم نكن حولك لمنحك شيئًا من احترام الذات. لقد كانت محقة في قلقها».

في المتجر أخذت السيدة سيسري المنصبة منهما بكلتا ذراعيها الضخمتين، تصرخ بأوامرها، واندفع صف من الناس متجاوزين مارثا لجلب المزيد. صاحت لها صوفي مودعة وتسللت إلى الضجيج. لم يبد إشغال مارثا أكثر أمرًا لائقًا، كما أنها أرادت البقاء وحدها لتفكر، فركضت إلى البيت. اشتعلت الألعاب النارية، منطلقة من الحقل القريب من النهر حيث كان السوق، منافِسةً النفثات الزرقاء المنبعثة من قلعة هاول. أحست صوفي بأنها كالعليلة أكثر من ذي قبل.

فكرت وفكرت معظم الأسبوع التالي، وكل ما حدث أن زادت حيرتها وقلقها. لم تكن الأمور كما ظنتها، فقد انبهرت بلتي ومارثا، إذ أساءت فهمهما طوال سنوات لكنها لم تصدق أن فاني امرأة كالتي وصفتها مارثا.

كان عندها الكثير من الوقت لأجل التفكير، لأن بيسي حينئذ تركت العمل لتتزوج وكانت صوفي وحيدة في المتجر معظم الوقت. لم تخرج فاني كثيرًا، للهو أو غيره، وكان البيع راكدًا بعد يوم مايو. بعد ثلاثة أيام استجمعت صوفي الشجاعة لتسأل فاني: «ألا يجب أن أحصل على أجر؟».

«بالطبع يا حبي، من أجل كل ما تفعلينه!»، أجابت فاني بود، وهي تجرب قبعة مزينة بالورد أمام مرآة المتجر. «سننظر في هذا الأمر ما إن أنهي الحسابات هذا المساء». ثم خرجت ولم تعد إلى أن تعين على صوفي أن تغلق المتجر وتأخذ قبعات اليوم إلى البيت لتزيينها.

أحست صوفي باللؤم في بادئ الأمر لأنها أطاعت مارثا، ولكن لما لم تذكر فاني أي أجر، لا ذاك المساء ولا في أي وقت لاحق من ذلك الأسبوع، أخذت صوفي تدرك أن مارثا محقة.

«ربما يجري استغلالي»، قالت للقبعة التي تزينها بالحرير الأحمر وحفنة من الكرز الشمعي. «ولكن لا بد لأحد أن يفعل هذا وإلا ما بقي لدينا قبعات نبيعها». أنهت تلك القبعة وبدأت بقبعة باللونين الأبيض والأسود تخلو من الزينة وتواكب الطراز نوعًا ما، وخطرت لها فكرة جديدة تمامًا «أيهمّ حقًا إن لم يكن عندنا قبعات نبيعها؟»، سألت القبعة. ونظرت إلى مجموعة القبعات، على الحوامل أو مكوّمة تنتظر تزيينها. «ما نفعك كلك؟»، سألتها، «إنك قطعًا لا تقدمين لي أي خير».

وكانت على وشك ترك البيت والانطلاق سعيًا وراء حظها، حتى تذكرت أنها أكبر ثلاث وما من جدوى. فتناولت القبعة ثانية وهي تتنهد.

ما زالت مستاءة، وحيدة في المتجر الصباح التالي، حين اندفعت زبونة شابة تخلو من الملاحة، تدوّر قلنسوة مزمزمة بلون الفطر من شرائطها. «انظري إلى هذا!»، زعقت الشابة. «لقد أخبرتني أن هذه القلنسوة نفسها التي اعتمرتها جين فارير حين التقت الكونت، وكذبتِ. لم يحدث لي شيء إطلاقًا!».

«لا يفاجئني هذا»، قالت صوفي قبل أن تمنع نفسها. «إن كنت حمقاء بما يكفي لتلبسي تلك القلنسوة بوجه كهذا، فلن تتحلي

بالذكاء لتعرفي الملك نفسه إن جاء متسولًا، هذا إن لم يتحول إلى حجر لدى رؤيتك».

غضبت الزبونة، ثم ألقت بالقلنسوة على صوفي وخرجت من المتجر حانقة. كومت صوفي القلنسوة جيدًا في سلة المهملات. تقول القاعدة: افقد أعصابك؛ تخسر زبونًا، وقد أثبتت صدق هذه القاعدة. واستاءت لدى إدراكها متعة هذا.

لم يتسن الوقت لصوفي لتتمالك نفسها، إذ سمعت صوت عجلات وحوافر حصان وأعتمت النافذةَ عربةٌ. جلجل جرس المتجر ودلفت أضخم زبونة تراها في حياتها، يتدلى من مرفقيها دثار أسود، وماسات تتلألأ في كل أنحاء ثوبها الأسود السميك. اتجه نظر صوفي إلى قبعة السيدة العريضة أولًا، ريش نعام حقيقي مصبوغ ليعكس اللون الزهري والأخضر والأزرق الذي يبرق في الماسات ومع ذلك ظلت سوداء. كانت هذه قبعة غالية. وكان وجه السيدة فائق الجمال، إذ جعلها الشعر البني بلون الجوز تبدو شابة لكن... فُتنت عينا صوفي بالشاب الذي دخل خلف السيدة، شابٍ ذي وجه عديم الملامح له شعر أحمر، متأنق جدًا، لكنه شاحب بادٍ عليه الضيق. نظر إلى صوفي بخوف وتضرع، وكان جليًا أنه يصغر السيدة عمرًا، فانتابت صوفي الحيرة.

«أأنت الآنسة هاتر؟»، سألت السيدة بصوت رخيم آمر.

«أجل»، قالت صوفي. بدا الضيق على الرجل أكثر من ذي قبل، ولربما كانت السيدة أمه.

«بلغني أنك تبيعين أروع القبعات»، قالت السيدة. «أريني».

لم تثق صوفي بجوابها وهي في مزاجها الراهن، فذهبت وأخرجت القبعات. لم يكن أي منها ملائمًا لرقيّ هذه السيدة، لكنها أحست بعيني الرجل تتبعانها وهذا ما أشعرها بالضيق. كلما أسرعت في إدراك أن القبعات لا تناسبها، غادر هذا الثنائي الغريب أسرع. لقد عملت بنصيحة فاني وأخرجت الأسوأ أولًا.

بدأت السيدة ترفض السيدات بسرعة. «نُقرات»، قالت عن القلنسوة الزهرية، و«يانعة» عن الخضراء بلون اليسروع. أما عن القبعة المتلألئة ذات الخمار فقالت «سحر غامض. يا لوضوحه. ماذا لديك أيضًا؟».

أخرجت صوفي الجرداء ذات اللونين الأبيض والأسود، وكانت القبعة الوحيدة التي يستحيل أن تثير اهتمام هذه السيدة.

نظرت إليها السيدة في امتعاض. «هذه لن تجدي أحدًا نفعًا. إنك تضيعين وقتي يا آنسة هاتر».

«لأنك دخلت وطلبت رؤية القبعات»، قالت صوفي. «إن هذا متجر صغير في بلدة صغيرة يا سيدتي. لماذا ...»، خلف السيدة، لهث الرجل كأنه يحاول الإشارة محذرًا. «تكبدت عناء الدخول؟»، أنهت صوفي قولها متسائلة عما يحدث.

«إنني أتكبد العناء دومًا عندما يحاول أحد مواجهة ساحرة اليباب»، قالت السيدة. «سمعت عنك يا آنسة هاتر، ولست أبالي

بكفاءتك أو سلوكك. لقد جئت لإيقافك. هاكِ»، ومدت يدها في ازدراء نحو وجه صوفي.

«أتعنين أنك ساحرة اليباب؟»، ارتجفت صوفي. وكأنما غدا صوتها غريبًا جراء الخوف والدهشة.

«أنا هي»، قالت السيدة. «وليعلمك ذلك ألا تعبثي بأشياء تخصني».

«لا أظنني فعلت. لا بد أن في الأمر خطأ»، زعقت صوفي. وحملق الرجل بها في خوف مطلق، رغم جهلها بالسبب.

«لا خطأ يا آنسة هاتر»، قالت الساحرة. «تعال يا غاستن»، استدارت وتقدمت نحو باب المتجر. وفتحه لها الرجل خانعًا، فاستدارت نحو صوفي. «بالمناسبة، لن يسعك إخبار أحد أنك خاضعة لرقية»، قالت. وصلصل باب المتجر مثل جرس جنائزي حين رحلت.

وضعت صوفي يديها على وجهها، متسائلة عما كان الرجل ينظر إليه. فتحسست تجاعيد رقيقة مترهلة. ونظرت إلى يديها، كانتا مجعدتين أيضًا، ونحيلتين وعلى ظهريهما عروق كبيرة، وبراجمهما شبيهة بالعقد. فرفعت تنورتها الرمادية وكشفت عن ساقيها ورأت كاحلين هزيلين هرمين وقدمين جعلتا حذاءها معجرًا. كانتا ساقين لامرئ في التسعين من العمر وكانتا حقيقتين.

تقدمت صوفي نحو المرآة، ووجدت أنها تعرج. كان الوجه في المرآة شديد الهدوء، لأنه هو ما توقعت أن تراه. فقد كان وجه امرأة

مسنة هزيلة، مسفعة بالشمس تميل إلى السمرة، يحيطه شعر أبيض ناعم. حدقت بها عيناها، الصفراوان المغرورقتان، وهي تبدو بحال مزرية.

«لا تقلقي أيتها العجوز»، قالت صوفي للوجه. «تبدين معافاة، كما أن هذا يشبه ما أنت عليه حقًا».

فكرت في وضعها بهدوء شديد. كأنما غدا كل شيء هادئًا قصيًا. بل إنها لم تغضب من ساحرة اليباب على وجه التحديد.

«حسن، لا شك أن عليّ القضاء عليها حين تسنح لي الفرصة»، قالت لنفسها، «لكن أثناء ذلك، إن استطاعت مارثا ولتي تبادل الدورين فيما بينهما، فإن بوسعي تحمل أن أكون هكذا. لكني لا أستطيع البقاء هنا، ستصاب فاني بالجنون. لنرَ. إن هذا الفستان الرمادي مناسب تمامًا، لكني سأحتاج إلى وشاح وقليل من الطعام».

فعرجت حتى باب المتجر وعلقت لافتة «مغلق» بحرص. قرقعت مفاصلها كلما تحركت، واضطرت للسير وئيدًا محنية الظهر. لكنها أحست بالارتياح لمعرفة أنها امرأة عجوز معافاة. لم تشعر بالوهن أو المرض، بل بقليل من التصلب. وعرجت لتأخذ وشاحها، فلفته حول رأسها وكتفيها، مثلما تفعل العجائز. ثم دلفت إلى البيت، إذ جلبت حقيبتها التي تحوي بضع قطع نقدية ورزمة من الخبز والجبن. ثم خرجت من البيت، مخبئة بحذر المفتاح في مكانه المعتاد، وعرجت في الشارع، متعجبة لبقائها هادئة.

تساءلت إن كان عليها وداع مارثا، لكنها لم ترتح لفكرة ألا تعرفها مارثا. يجدر بها الذهاب فحسب. وعزمت صوفي على الكتابة إلى أختيها حين تصل إلى وجهتها أيًا كانت، ومشت متثاقلة عبر الحقل حيث أقيم السوق وفوق الجسر، وواصلت مشيها في دروب الريف البعيدة. كان يومًا ربيعيًا دافئًا. وأدركت صوفي أن كونها حيزبونًا لم يمنعها من الاستمتاع بمنظر النوّار وشذاه في السياج، رغم أن الرؤية كان غبشة بعض الشيء. بدأ ظهرها يؤلمها، فعرجت بثبات، لكنها احتاجت إلى عصا. فعاينت السياج أثناء مشيها بحثًا عن غصن منفلت أيًا كان نوعه.

لا شك أن عينيها ما عادتا كما كانتا. وظنت أنها رأت عصًا على مبعدة ميل أو نحوه، ولكنها لما سحبتها وجدتها طرفًا سفليًا من فزاعة قديمة ألقاها أحدهم على السياج. نصبت صوفي الفزاعة؛ وكان لها وجه من رأس ملفوف حرقته الشمس، وأحست صوفي بالحنو عليها. وعوضًا عن أن تقطعها إربًا لتأخذ العصا، دستها بين غصنين من السياج، فانتصبت شاخصة بأناقة فوق النوار، والكمّان المهلهلان على ذراعيها العصوين يخفقان فوق السياج.

«إليك»، قالت، وفاجأها صوتها الأبح إذ أطلقت ضحكة مبحوحة عجوزًا. «لن يكون أي منا بذي فائدة كبيرة، أليس كذلك يا صديقتي؟ ربما تعودين إلى حقلك إن تركتك حيث يراك الناس». وانطلقت تقطع الدرب ثانية، فخطرت لها فكرة وقفلت عائدة. «إن لم يكن مقدرٌ لي أن أفشل بسبب ترتيبي في الأسرة»، قالت للفزاعة،

«فقد تدب فيك الحياة وتمدين لي يد العون في السعي وراء حظي. لكني أتمنى لك حظًا طيبًا على أية حال».

فضحكت ثانية وهي تتابع سيرها. لعلها كانت مجنونة بعض الشيء، لكن هذا حال العجائز غالبًا.

عثرت على عصا بعد ساعة أو نحوها حين جلست على الضفة لترتاح وتأكل الخبز والجبن. كان في السياج خلفها أصوات من صرير مكتوم صغير، أعقبه هياج أسقط بتلات النوار عن السياج. زحفت صوفي على ركبتيها النحيلتين لتختلس النظر من خلف أوراق الشجر والزهور والأشواك إلى داخل السياج، فرأت كلبًا رماديًا نحيفًا هناك. كان محاصرًا بعصا ثخينة التفت بصورة ما على حبل مربوط بعنقه. أقحمت العصا نفسها بين غصنين من السياج فلم يستطع الكلب الحراك. فنظر إلى وجه صوفي المتلصص نظرة حانقة.

كانت صوفي، باعتبارها فتاة، تخشى كل الكلاب. وها هي امرأة عجوز ولم تزل خائفة تمامًا من صفي الأنياب البيضاء في فك الحيوان المفتوح. لكنها قالت في نفسها «ما دمت على هذه الهيئة، فإنه لا يستحق أن أقلق منه»، وبحثت في محفظة الخياطة عن مقص. ومدت يدها عبر السياج بالمقص وأخذت تقص الحبل الملتف على عنق الكلب.

كان الكلب شديد الاضطراب، فأجفل مبتعدًا عنها وزمجر. لكن صوفي واصلت عملها، «ستتضور جوعًا أو تختنق حتى

الموت يا صديقي»، قالت للكلب بصوتها المبحوح العجوز، «ما لم تدعني أحررك. في الحقيقة، أظن أحدًا حاول خنقك. وربما يفسر هذا اضطرابك». عُقد الحبل بإحكام حول عنق الكلب ولُفّت عليه العصا بلؤم. واستغرق القص وقتًا قبل أن ينقطع الحبل ويتمكن الكلب من إخراج نفسه من تحت العصا.

«أتريد بعض الخبز والجبن؟»، سألته صوفي عندئذ. لكن الكلب اكتفى بالزمجرة في وجهها، وشق طريقه إلى الجانب المقابل من سياج الشجر وابتعد. «عليك أن تظهر امتنانًا!»، قالت صوفي وهي تمسد ذراعيها الخدرتين. «لكنك تركت لي هدية دون أن تدري». وسحبت العصا التي حاصرت الكلب خارج السياج ووجدتها عصا مشي مناسبة، حسنة التشذيب ورأسها من المعدن. أنهت صوفي طعامها وانطلقت تواصل مشيها. أصبح الدرب أكثر وعورة، ورأت في العصا عونًا كبيرًا، كما أنها شيء تتحدث إليه. خبطت صوفي بعزم، وهي تحادث عصاها، فالمسنون يتحدثون إلى أشيائهم كثيرًا.

«لقد خضت مواجهتين»، قالت، «ولم أنل من أي منهما نتفة من امتنان سحري. ومع ذلك، فإنك عصا جيدة. أنا لست أتذمر، لكنني واثقة أني سأمر بمواجهة ثالثة، سحرية أو غيرها. بل إني أصر عليها، وأتساءل ماذا تكون».

وحدثت الواقعة الثالثة قرب انقضاء العصرية حين مضت صوفي في طريقها صاعدة التلال. إذ تقدم نحوها رجل ...ي يص...
من أقصى الدرب. ظنته صوفي راعيًا عائدًا إلى البيت بعد الا...

بخرافه فقد كان رجلًا قوي البنية في الأربعين أو نحوها. «يا إلهي!»، قالت صوفي لنفسها، «لقد رأيته هذا الصباح عجوزًا. كم تتغير وجهات النظر!».

لما رأى الراعي صوفي تغمغم لنفسها، انتقل حذرًا إلى الجانب الآخر من الدرب ونادى بألفة كبيرة «طاب مساؤك يا أماه! إلى أين تذهبين؟».

«أماه؟»، قالت صوفي، «أنا لست أمك أيها الشاب!».

«أسلوب في الكلام»، قال الراعي، متاخمًا سياج الشجر المقابل. «كنت أسأل سؤالًا مهذبًا، إذ أراك تسيرين في التلال حتى انقضى النهار. لن تنزلي إلى أبر فولدنغ قبل حلول الظلام، أليس كذلك؟».

لم تفكر صوفي بهذا، فوقفت في الطريق وفكرت بالأمر. «ليس مهمًا حقًا»، قالت، فيما يشبه الهمس، «ليس لك أن تكون نيّقًا وأنت تسعى وراء حظك».

«ألا يمكنك حقًا يا أماه؟»، قال الراعي. لقد تقدم على صوفي نازلًا التل، كأنه أحس بأنه أحسن فعلًا. «أتمنى لك حظًا طيبًا يا أماه، ما دام سعيك لا علاقة له بسحر ماشية الآخرين». وانطلق في الدرب بخطى واسعة، كأنه يجري ولكن ليس تمامًا.

نظرت صوفي خلفه بازدراء. «يحسبني ساحرة!»، قالت لعصاها وخطر لها أن تفزع قطيع الراعي بأن تصرخ قائلة أشياء بذيئة، لكن هذا لم يتسم باللطف، فغذّت السير صاعدة التل تغمغم. بعدئذ، انفرجت الأسيجة عن ضفاف جرداء وغدت الأرض وراءها نجادًا

مرقطة شديدة الانحدار خلف تلك التي يكسوها العشب الأصفر المخشخش. تابعت صوفي صعودها نزقة. وأخذت تتألم من قدميها المعجرتين وظهرها وركبتيها. وقد نال منها التعب فلم تعد تغمغم بل تابعت سيرها، لاهثة حتى غابت الشمس تمامًا. ثم تبين لصوفي في الحال أنها لن تتمكن من التقدم خطوة أخرى.

فتهاوت جالسة على صخرة على جانب الطريق، تتساءل عما ستفعله. «الحظ الوحيد الذي يمكنني التفكير به هو الكرسي المريح!»، قالت لاهثة.

اتضح لها أن الصخرة تقع على رأس، فحظيت صوفي بإطلالة بديعة على الطريق الذي قطعته. كان معظم الوادي ينبسط تحتها في الشمس الغاربة، كل الحقول والجدران والأسيجة، وتعرجات النهر، والقصور الفخمة للأثرياء تتلألأ بين أجمات الشجر، أسفل الجبال الزرقاء في الأفق البعيد. تحتها كانت تشپنغ ماركت، واستطاعت صوفي النظر إلى شوارعها الشهيرة. هناك ماركت سكوير ومخبز سيسري. وبوسعها إلقاء حجرة إلى فوهات مداخن البيت المجاور لمتجر القبعات.

«يا لقربه!»، قالت صوفي لعصاها في خوف. «مشيت كل هذا المشي لأقف فوق سطح بيتي!».

صار المكان باردًا على الصخرة لما غابت الشمس، وهبت رياح قارسة أينما استدارت صوفي لتتحاشاها. لم يعد أمر قضائها الليل على التلال أمرًا تافهًا للغاية. بل وجدت أنها تفكر أكثر فأكثر بالكرسي

المريح والمصطلى، وبالظلام والحيوانات البرية أيضًا. ولكنها إن عادت إلى ماركت تشپنغ، فسينتصف الليل قبل وصولها هناك. لذا عليها المضي قدمًا، فتنهدت ونهضت تقرقع. كان ذلك مريعًا، فكل ما فيها يؤلمها.

«لم أعرف قبلًا ما يعانيه المسنون!»، لهثت وهي تجهد للصعود. «غير أني لا أحسب الذئاب تأكلني. لا بد أنني شديدة الجفاف والقسوة. هذا أمر مريح».

كان الليل يهبط سريعًا، وغدت النجاد المرقطة زرقاء رمادية. وأصبحت الريح أكثر حدّة. كان لهاث صوفي وصرير أطرافها عاليًا جدًا في مسمعيها واستغرقت بعض الوقت لتدرك أن الرضرضة والنفيخ لم يصدرا عنها البتة، فنظرت إلى الأعلى بنظر مشوّش.

كانت قلعة الساحر هاول تدمدم وتهتز نحوها عبر السبخة. وانبعث الدخان الأسود في غيوم من خلف أبراجها السوداء التي بدت عالية رفيعة ثقيلة قبيحة ومنحوسة للغاية. اتكأت صوفي على عصاها وراقبتها، ولم تخف، بل تساءلت كيف تتحرك. غير أن ما شغل ذهنها أن كل هذا الدخان يعني مصطلى كبيرًا في مكان ما داخل تلك الجدران العالية السوداء.

«حسن، ولم لا؟»، قالت لعصاها. «لن يرغب الساحر هاول بروحي يضمها إلى مجموعته، فهو يأخذ الفتيات الصغيرات فقط».

فرفعت عصاها ولوحت بها للقلعة تلويحة آمرة.

«توقفوا!»، زعقت.

فأطاعت القلعة وتوقفت مرضرضة مهتزة على مبعدة خمسين قدمًا أعلى التل. وأحست صوفي بالامتنان وهي تعرج نحوها.

الفصل الثالث

وفيه تدخل صوفي قلعة وتعقد صفقة

كان في الجدار الأسود المواجه لصوفي باب أسود كبير، فتقدمت نحوه تعرج بنشاط. بدت القلعة أقبح لدى الاقتراب منها، إذ كانت شاهقة الارتفاع وليس لها شكل منتظم. وقدر ما استطاعت صوفي تبيّنه في الظلمة المتزايدة، فقد بنيت من طابوق أسود ضخم، كالفحم، ومثله مثل الفحم كان ذا أشكال وأحجام مختلفة. انبعثت البرودة من هذا الطابوق كلما دنت أكثر، لكنها لم تنجح في إثارة ذعر صوفي. فلم تفكر بسوى الكراسي والمواقد ومدت يدها نحو الباب متحمسة.

لم تقترب يدها من الباب، إذ منع يدها جدار خفي على مبعدة قدم من الباب. فنكزته صوفي بإصبع ساخطة. ولما لم يتغير شيء، نكزته بعصاها. كأنما الجدار أحاط بالباب بأعلى ما استطاعت عصا صوفي أن تصله، وإلى الأسفل حتى الخلنج الناتئ من تحت العتبة.

«افتحوا!»، صاحت صوفي عنده.

فلم يغير هذا من أمر الجدار شيئًا.

«حسن جدًا»، قالت صوفي. «سأجد بابكم الخلفي». فعرجت إلى يسار القلعة، إذ كان الأقرب وأسفل التل قليلًا. لكنها لم تستطع ان تنعطف الزاوية، فقد منعها الجدار الخفي ثانية ما إن وصلت أحجار الزاوية السوداء المتباينة الأشكال. عندئذ قالت صوفي كلمة تعلمتها من مارثا، لا يجدر بالعجائز ولا الفتيات معرفتها، وخبطت صاعدة التل بعكس عقارب الساعة إلى يمين القلعة. لم تجد ساترًا هناك، فانعطفت الزاوية وعرجت بنشاط نحو الباب الثاني الأسود الكبير الكائن في وسط ذلك الجانب من القلعة.

وهنالك وجدت ساترًا أمام ذلك الباب أيضًا.

زمجرت عليه صوفي. «أسمّي هذا قلة تهذيب!»، قالت صوفي.

انبعث دخان أسود من الأبراج على هيئة غيوم، فسعلت صوفي. كانت غاضبة، فهي مسنة وواهنة، وتشعر بالبرد وكل ما فيها يؤلمها. كان الليل يهبط فجلست القلعة ونفثت الدخان عليها. «سأخبر هاول عن هذا!» قالت، وانطلقت بحزم نحو الزاوية التالية. فلم تجد ساترًا هناك -جلي أن عليك أن تدور حول القلعة بعكس عقارب الساعة- ولكن هناك، في جانب الجدار التالي باب ثالث. كان هذا أصغر وأكثر تداعيًا بكثير.

«الباب الخلفي أخيرًا!»، قالت صوفي.

أخذت القلعة تتحرك ثانية حين دنت صوفي من الباب الخلفي. اهتزت الأرض، وارتعش الجدار وتصدع، وأخذ الباب يتحرك على الجانبين بعيدًا عنها.

«أوه، كلا لن تفعل!»، صاحت صوفي. فركضت خلف الباب وضربته ضربًا مبرحًا بعصاها. «افتحوا!»، صرخت.

انفتح الباب نحو الداخل، ولم يزل يتحرك على الجانبين. تمكنت صوفي، وهي تعرج بنشاط، من وضع قدم واحدة على عتبته. ثم قفزت واندفعت وقفزت ثانية، وارتج الطابوق الأسود الكبير حول الباب وانسحق لما ازدادت سرعة القلعة على التل الوعر. لم تتعجب صوفي من أن للقلعة هيئة مائلة، فالأعجوبة كانت في أنها لم تتداعَ في مكانها.

«يا له من أسلوب غبي في الاعتناء بمبنى!»، قالت لاهثة وهي تلقي بنفسها إلى داخلها. كان عليها أن ترمي عصاها وتتعلق بالباب المفتوح بغية ألا تُدفع خارجًا مرة أخرى.

وحين أخذت تلتقط أنفاسها، أدركت أن أحدًا يقف أمامها، ممسكًا بالباب أيضًا. كان أطول من صوفي بقدر رأس، لكنها رأت أنه ليس إلا طفل، يكبر مارثا قليلًا. وبدا أنه يحاول إغلاق الباب دونها ويخرجها من الغرفة الدافئة المضاءة بالمصباح ذات العوارض الخفيضة خلفه، إلى الليل ثانية.

«لا تكن وقحًا فتغلق الباب في وجهي يا بنيّ!»، قالت.

«ما كنت سأفعل، لكنك تبقين الباب مفتوحًا»، احتج، «ماذا تريدين؟».

نقلت صوفي نظرها فيما استطاعت رؤيته خلف الصبي. كان عدد من الأشياء التي تعود للساحر على الأرجح تتدلى من العوارض،

سلائك من البصل، وحزم من الأعشاب، ورزم من الجذور الغريبة. ثمة أشياء أخرى تعود للساحر قطعًا من قبيل الكتب ذات الأغلفة الجلدية، والقناني المتصدعة، والجمجمة البشرية البنية القديمة الباسمة. في الجانب الآخر من الصبي كان الموقد وفي مصطلاه تشتعل نار صغيرة. كانت نارًا أصغر بكثير مما يوحي كل الدخان في الخارج، ولكن هذه ليست إلا غرفة خلفية من القلعة مثلما تبين. ما كان أكثر أهمية في نظر صوفي أن هذه النار قد بلغت مرحلة الاضطرام الحمراء، وفيها لهب صغير أزرق يتراقص على الجذول، ووُضع قربها في أكثر المواضع دفئًا كرسي خفيض عليه مخدة.

دفعت صوفي الصبي جانبًا وتهاوت على الكرسي. «آه! يا لحظي!»، قالت، وهي تريح نفسها عليه. كان ذاك نعيمًا، فقد بثت النار الدفء في أوجاعها، وأسند الكرسي ظهرها وعرفت أنه إن أراد أحد إخراجها فعليه استخدام سحر شديد عنيف لفعل ذلك.

أغلق الصبي الباب، ثم حمل عصا صوفي وأسندها بتهذيب على الكرسي من أجلها. أدركت صوفي أن لا أثر لحركة القلعة عبر التلال، ولا أثر لقعقعة أو أدنى اهتزاز. يا للغرابة! «أخبر الساحر هاول»، قالت للصبي، «أن هذه القلعة ستتداعى أمام ناظريه إن تحركت أكثر».

«القلعة تحت رقية تحفظها متماسكة»، قال الصبي، «لكني أخشى أن هاول ليس هنا الآن».

كان هذا خبرًا سعيدًا لصوفي. «متى سيعود؟»، سألت بشيء من التوتر.

«ربما لن يعود حتى غدٍ»، قال الصبي. «ماذا تريدين؟ أيسعني مساعدتك بدلًا منه؟ أنا مايكل، مساعد هاول».

كان هذا خبرًا أسعد. «أخشى أن الساحر وحده من يسعه مساعدتي»، قالت صوفي بسرعة وحزم. كما كان هذا حقيقيًا على الأرجح. «سأنتظر، إن لم تمانع». كان جليًا أن مايكل يمانع، فحام حولها بشيء من العجز. فأغمضت صوفي عينيها وتظاهرت بأنها غطت في النوم لتبين له أنها لا نية عندها بأن يطردها مساعد. «أخبره أن اسمي صوفي»، غمغمت، «صوفي العجوز»، أردفت لتكون في مأمن.

«سيعني هذا انتظار الليل كله»، قال مايكل. ولما كان هذا ما أرادته صوفي تمامًا، فقد تظاهرت بالصمم. بل إنها غطت في غفوة سريعًا، إذ أخذ التعب منها كل مأخذ جراء كل ذلك المشي. وبعد قليل استسلم مايكل لأمرها وعاد إلى عمله على طاولة الأشغال حيث كان المصباح.

سيكون عندها مأوى طوال الليل، وإن كان هذا قائمًا على قليل من المزاعم الكاذبة، قالت صوفي في نفسها. وما دام هاول رجل شرير، فهو يستحق أن تتطفل عليه. لكنها عزمت على الرحيل حال عودة هاول واعتراضه. نظرت إلى المتدرب ناعسة خلسة، إذ فوجئت قليلًا أنها رأته ولدًا لطيفًا مهذبًا. فقد دخلت عنوة بوقاحة

غير أن مايكل لم يتذمر قط. لعل هاول يبقيه في ذل تام. لكن مايكل لم يبدُ ذليلًا، بل كان صبيًا طويلًا أسمر له وجه بهيج واضح، كما أنه حسن الثياب. في الحقيقة، لو لم تره صوفي في تلك اللحظة يسكب سائلًا أخضر من دورق معقوف على مسحوق أسود في مرطبان زجاجي مائل، لظنته ابنًا لفلاح موسر. يا للغرابة!

غير أن الأمور يجب أن تكون غريبة حيثما وُجد السحرة، قالت صوفي في نفسها. وهذا المطبخ، أو المشغل كان مريحًا وهادئًا للغاية. غطّت صوفي في النوم تمامًا وعلا شخيرها. ولم تستيقظ حين انبعث وميض وانفجار مكتوم من طاولة الأشغال أعقبه شتيمة من مايكل قطعها على عجل. لم تستيقظ حين مايكل، وهو يلعق أصابعه المحترقة، نحى الرقية جانبًا لليلة وأخرج الخبز والجبن من الخزانة. ولم تتململ حين ضرب مايكل بعصاها مقعقعًا، متجاوزًا إياها ليتناول جذلًا يلقيه إلى النار، أو حين قال مايكل للموقد، وهو ينظر إلى فم صوفي المفتوح: «أسنانها كاملة، إنها ليست ساحرة اليباب، أليس كذلك؟».

«ما كنت لأدخلها لو كانت هي»، أجاب الموقد.

رفع مايكل كتفيه وحمل عصا صوفي بتهذيب مرة أخرى. ثم وضع جذلًا في النار بتهذيب مماثل وخلد إلى الفراش في مكان ما في الأعلى.

أيقظ صوفي شخير أحدهم منتصف الليل. فهبت واقفة، بشيء من الضيق لتكتشف أنها من يشخر. تخايل لها أنها غفت للحظة أو

نحوها، لكن مايكل اختفى في هذه اللحظات، وقد أخذ المصباح معه. لا ريب أن مساعد الساحر تعلم فعل ذلك في أسبوعه الأول، وقد ترك النار خفيفة جدًا. كانت تصدر حسيسًا وفرقعة مزعجتين. فسرت القشعريرة في أوصال صوفي، إذ تذكرت أنها في قلعة ساحر، وبإدراك مخيف أن على طاولة الأشغال جمجمة بشرية في مكان ما خلفها.

فارتعدت وأدارت عنقها المتخشب العجوز، ولكن لم يكن وراءها إلا الظلمة. «هلا زدنا النار قليلًا؟»، قالت. لم يكن صوتها المبحوح الصغير بأعلى من طقطقة النار. دهشت صوفي، إذ حسبته يرجِع صداه في كل قناطر القلعة. غير أن قربها سلة من جذول الشجر، فمدت ذراعها ذات الصرير وألقت جذلًا إلى النار، التي بعثت رذاذًا من الشرر الأزرق والأخضر يتطاير أعلى المدخنة. فألقت بجذل آخر وعادت للجلوس، وهي تنظر نظرة أو اثنتين قلقتين خلفها، حيث الضوء الأزرق البنفسجي من النار يرقص على العظام الصقيلة البنية للجمجمة. كانت الغرفة صغيرة جدًا، وليس فيها أحد إلا صوفي والجمجمة.

«لقد وضع كلتا قدميه في القبر ولكني لم أضع إلا واحدة»، قالت تواسي نفسها. واستدارت إلى النار، التي كانت تضطرم في لهب أزرق وأخضر. «لا بد أن في الحطب ملحًا»، همست صوفي. وجلست بمزيد من الارتياح، وهي تضع قدميها المعجرتين على سياج المدفأة ورأسها على زاوية الكرسي، حيث يسعها النظر إلى اللهب الملون، وأخذت تفكر ناعسة بما عليها فعله في الصباح. لكنها حادت عن

ذلك قليلًا إذ تخيلت رؤية وجه في اللهب. «سيكون وجهًا نحيلًا أزرق»، همهمت، «طويلًا جدًا ونحيلًا، له أنف رفيع أزرق. لكن هذا اللهب المموج الأخضر في الأعلى هي شعرك قطعًا. لنقل إني لم أرحل إلى حين عودة هاول، أظن السحرة قادرين على رفع الرقية. وذلك اللهب البنفسجي قرب القاع هو الفم، إن لك أسنانًا قوية يا صديقي. ولك كتلتان من اللهب الأخضر وذانكما حاجباك...» على نحو غريب، كان اللهب البرتقالي الوحيد في النار أسفل الحاجبين الأخضرين، كالعينين تمامًا، وفي كل منهما وميض بنفسجي صغير في الوسط تخيلت صوفي أنهما تنظران إليها، مثل بؤبؤي العينين. «من جانب آخر»، واصلت صوفي وهي تنظر إلى اللهب البرتقالي، «إن زالت الرقية، فسيؤكل قلبي قبل أن يتسنى لي أن أدير وجهي».

«ألا تريدين أن يؤكل قلبك؟»، سألت النار.

لقد كانت النار من تكلم من غير ريب، فقد رأت صوفي فمها البنفسجي يتحرك لدى خروج الكلمات. كان صوتها مبحوحًا كصوت صوفي، مليئًا ببصاق الحطب المحترق وأنينه. «لا أريد طبعًا»، أجابت صوفي. «ما تكون أنت؟».

«إنني عفريت النار»، أجاب الفم البنفسجي.

كان في صوته أنين أكثر من البصاق حين قال «إنني ملزم بالبقاء في هذا المصطلى بموجب عقد. لا يمكنني الانتقال من هذه البقعة». ثم غدا صوته مقرقعًا نشطًا. «وما تكونين أنت؟»، سأل، «أرى أنك واقعة تحت تأثير رقية».

أيقظ هذا صوفي من نعاسها «أنت تراها؟!» قالت، «أيمكنك إزالتها؟».

ساد صمت قلق متوهج حين أمعنت العينان البرتقاليتان في الوجه الأزرق النظر في صوفي. «إنها رقية قوية»، قال أخيرًا. «تبدو لي كأنها إحدى رُقى ساحرة اليباب».

«هي كذلك»، قالت صوفي.

«لكنها تبدو أكثر من ذلك»، قال العفريت بصوت مبحوح. «إذا اكتشفت طبقتين. ولا يسعك من غير شك أن تخبري أحدًا عنها ما لم يعرف مسبقًا». حملق بصوفي لحظة أطول. «علي دراستها»، قال.

«وكم سيستغرق هذا من الوقت؟»، سألت صوفي.

«يستغرق وقتًا»، قال العفريت. ثم أضاف بخفقة مقنعة لطيفة «ما رأيك أن تعقدي صفقة معي؟ سأكسر رقيتك إن وافقت على نقض العقد الذي أخضع له».

نظرت صوفي بحذر إلى وجه العفريت الأزرق النحيل. إن له نظرة ماكرة قطعًا حين قدم عرضه. كل ما قرأته الخطر المحيق لعقد اتفاق مع عفريت، ولا شك أن هذا يبدو شريرًا فوق العادة. يا لهذه الأسنان الطويلة البنفسجية. «أأنت أكيد أنك صادق تمامًا؟»، قالت.

«ليس تمامًا»، اعترف العفريت. «ولكن أتريدين البقاء هكذا حتى تموتي؟ لقد قصّرت هذه الرقية حياتك بنحو ستين عامًا، إن كنت أصلح للحكم على أمور كهذه».

كانت هذه فكرة مروّعة، وأمرًا حاولت صوفي ألا تفكر فيه حتى الآن. فأحدث هذا فارقًا. «العقد الذي أنت خاضع له»، قالت، «أهو مع الساحر هاول؟».

«طبعًا»، قال العفريت. واتخذ صوته شيئًا من الأنين مرة أخرى. «أنا مثبت إلى هذا المصطلى ولا يمكنني التحرك قيد قدم. كما أني مجبر على القيام بكثير من السحر هنا، إذ علي المحافظة على القلعة وإبقائها تتحرك وأقوم بكل المؤثرات الخاصة التي تخيف الناس، إلى جانب أي شيء آخر يشاؤه هاول. إن هاول عديم الرحمة كما تعلمين».

ليست صوفي بحاجة أن تعرف أن هاول عديم الرحمة. من جانب آخر، فلا شك أن العفريت كان شريرًا بقدر مماثل. «ألا تجني شيئًا من هذا العقد أبدًا»، قالت.

«ما كنت لأوافق عليه لو لم أجن شيئًا»، قال العفريت وهو يتذبذب حزينًا. «ولكني ما كنت لأفعل لو علمت أن الأمر سيكون هكذا. لقد تعرضت للاستغلال».

رغم حذر صوفي، فقد أشفقت كثيرًا على العفريت. إذ تذكرت نفسها وهي تصنع القبعات من أجل فاني في حين أن فاني تقضي الوقت في التسكع. «حسن»، قالت. «ما بنود العقد؟ كيف أنقضه؟».

اتسعت ابتسامة بنفسجية متحمسة عبر وجه العفريت الأزرق. «أتوافقين على الصفقة؟».

«إن وافقتَ على كسر الرقية الواقعة علي»، قالت صوفي بإحساس من الشجاعة لأنها قالت شيئًا حاسمًا.

«اتفقنا!» هتف العفريت، ووجهه الطويل يقفز مسرورًا أعلى المدخنة. «سأكسر رقيتك لحظة كسرك لعقدي!».

«فأخبرني إذن كيف أكسر عقدك»، قالت صوفي.

ومضت العين البرتقالية عليها وأشاحت النظر. «لا أستطيع. أحد أجزاء العقد أنه لا يمكن للساحر ولا لي أن نشيَ ببنده الرئيس».

رأت صوفي أنها خدعت. ففتحت فمها لتخبر العفريت أنه سيجلس في الموقد إلى يوم الدينونة في هذه الحالة.

فأدرك العفريت ما أزمعته. «لا تكوني عجولة!»، قال مقرقعًا. «يمكنك معرفته إن راقبت واستمعت جيدًا. أتوسل إليك أن تحاولي، فالعقد لن يجدي أيًا منا نفعًا على المدى الطويل. وأنا أفي بوعدي، والحقيقة بأني عالق هنا تظهر لك أني أفي بوعدي!».

كان جادًا، فقفز على جذوله قفزًا مضطربًا. أشفقت عليه صوفي مرة أخرى. «ولكن إن تعين علي أن أراقب وأسمع، فهذا يعني أن علي البقاء هنا في قلعة هاول»، قالت معترضة.

«الشهر فحسب. تذكري أن علي دراسة رقيتك أيضًا»، توسل العفريت.

«ولكن أي عذر مقنع أتذرع به لفعل ذلك؟»، سألت صوفي.

«سنفكر بواحد. إن هاول عديم الجدوى في جل الأمور حقيقة»،

قال العفريت، مهسهسًا بحقد. «إنه شديد الانشغال بنفسه فلا يرى أبعد من أنفه نصف الوقت. بوسعنا خداعه... ما دمت توافقين على البقاء».

«حسن جدًا»، قالت صوفي. «سأبقى. والآن اعثر لي على حجة».

جلست بارتياح على الكرسي والعفريت يفكر. فكر بصوت عالٍ، في شيء من الطقطقة، والهمهمة المتذبذبة، ما ذكر صوفي قليلًا بأسلوبها في الحديث إلى عصاها حين سارت إلى القلعة، وقد توهج وهو يفكر بهدير قوي سعيد فغفت ثانية. ظنت أن العفريت أدلى ببضع اقتراحات، وتذكرت أنها هزت رأسها رفضًا لفكرة التظاهر بأنها العمة الكبرى لهاول التي طال غيابها، ولواحدة أو اثنتين أخريين لا تصدقان، لكنها لا تتذكرهما بوضوح. أخذ العفريت أخيرًا يغني أغنية قصيرة رقيقة مضطربة. لم تكن بأي لغة تعرفها صوفي -أو هذا ما حسبته حتى سمعت بوضوح كلمة «القِدر» فيها عددًا من المرات- وكانت جالبة للنعاس جدًا. فغطت صوفي في نوم عميق، يساورها قليل من الشك في أنها سُحرت، كما أنها خدعت، لكن هذا لم يسؤها البتة. إذ ستتحرر من الرقية قريبًا...

الفصل الرابع

وفيه تكتشف صوفي عددًا من الأمور الغريبة

كان ضوء النهار ينساب على صوفي حين استيقظت، ولما تذكرت أن القلعة تخلو من النوافذ، كان أول ما تبادر إلى ذهنها أنها غطت في النوم وهي تزين القبعات وحلمت بترك المنزل. خمدت النار أمامها وغدت فحمًا محمرًا ورمادًا أبيض، وهذا ما أقنعها أنها رأت عفريت النار في حلمها من غير ريب. لكن حركاتها الأولى أعلمتها بوجود أشياء لم تحلم بها، إذ قرقعت كل أعضائها قرقعة حادة.

«آو!»، قالت. «جسمي كله يؤلمني!»، كان الصوت الذي تحدث ضعيفًا هادئًا مبحوحًا، ورفعت يدها المعجّرة إلى وجهها وتحسست التجاعيد. فأدركت حينئذ أنها كانت في حال صدمة طوال البارحة. بل إنها كانت غاضبة جدًا، مفرطة الحنق شديدته من ساحرة اليباب لفعلها هذا بها. «تدلف إلى المتاجر وتحوّل الناس إلى عجائز!»، قالت، «أوه، ليتها ترى ما سأفعله بها!».

جعلها غضبها تقفز بعاصفة من القرقعة والطقطقة والعرج إلى

النافذة المفاجئة. كانت تعلو طاولة الأشغال، ودهشت لما رأت أن المنظر الذي تطل عليه هو رصيف الميناء في البلدة. واستطاعت أن ترى شارعًا منحدرًا غير مرصوف تحفه بيوت صغيرة قبيحة قليلًا، وصواري تبرز من خلف أسطحها. وخلف الصواري لمحت لمعان البحر، الذي لم تره في حياتها من قبل.

«أين أنا؟»، سألت صوفي الجمجمة الموضوعة على الطاولة. «لست أنتظر منك جوابًا يا صديقي»، أردفت على عجل، متذكرة أن هذه قلعة الساحر، واستدارت لتلقي نظرة على الغرفة.

كانت غرفة صغيرة حقًا، في سقفها عوارض سوداء ثقيلة، وبدت شديدة القذارة في ضوء النهار، فأحجار الأرضية مبقعة ودسمة، والرماد مكوم خلف سياج المصطلى، وشباك العناكب تتدلى من العوارض في ارتخاء مغبر. وكان على الجمجمة طبقة من الغبار، فمسحته صوفي شاردة الذهن حين ذهبت لتسترق النظر إلى حوض المغسلة بجانب طاولة الأشغال. فارتعشت لدى رؤية اللزاج الرمادي المزهّر فيها واللزاج الأبيض الذي يقطر من المضخة فوقها. لا شك أن هاول لم يعبأ بالوساخة التي يعيش فيها خدمه.

أما بقية القلعة فلا بد أنها تقع خلف واحد من الأبواب الواطئة السوداء الأربعة في الغرفة. فتحت صوفي أقربها إليها الكائن في الجدار الواقع خلف الطاولة. وكان ذاك حمام كبير، وهو حمام لن تجده إلا في قصر، إذ هو مليء بوسائل الراحة كالمرحاض الداخلي، ومقصورة الاستحمام، والمغطس الضخم ذي أقدام ذات مخالب،

والمرايا على كل الجدران. لكنه أقذر من الغرفة. إذ أجفلت صوفي لرؤية المرحاض، وفزعت من لون المغطس، ونفرت من الحشائش الخضراء النامية في مقصورة الاستحمام، فتحاشت النظر إلى شكلها المجعد في المرايا، لأن الزجاج تغطيه البقع والخطوط من مواد مجهولة. بل كانت المواد المجهولة متراصة على رف كبير فوق المغطس. كانت في جرار وصناديق وأنابيب، ومئات من العلب البنية البالية والأكياس الورقية. وكان لكبرى الجرار اسم، إذ كتب عليها قدرة **التجفيف** بأحرف مائلة، لم تكن صوفي واثقة من وجوب حرف الباء[1]. أخذت علبة خبط عشواء، وقد خربشت عليها كلمة بشرة، فأعادتها إلى مكانها بسرعة. وكتب على جرة أخرى عيون بالخربشة نفسها، وكتب على أنبوب من أجل العفن.

«يبدو أنها تعمل أيضًا»، همهمت صوفي وهي تنظر إلى حوض المغسلة مرتعشة الأوصال. وسال الماء في الحوض عندما أدارت مقبضًا أزرق مخضر قد يكون من النحاس وأزالت شيئًا من العفن. ثم غسلت صوفي يديها ووجهها بالماء دون أن تمس الحوض، لكن الشجاعة لم تواتها لتستخدم قدرة التجفيف. فجففت الماء بتنورتها ثم تقدمت نحو الباب الأسود التالي.

انفتح ذلك على قُلبة من السلالم المتداعية الخشبية. وسمعت صوفي أحدًا يتحرك في الأعلى فأغلقت الباب على عجل، إذ يبدو

---

(١) الكلمة power وتساءلت صوفي إن كان المقصود powder، فاستخدمت كلمة قدرة للمعنى الأول وبدرة [بمعني مسحوق أو ذرور بعد حذف الواو] للثاني لتحقيق الجناس الذي سيجعل الكلمتين قريبتين من معنى نظيرتيها الإنجليزيتين.

أنه يفضي إلى علية على أية حال. فعرجت نحو الباب التالي، وكانت حتى الآن تتحرك براحة تامة. لقد كانت امرأة عجوزًا معافاة، كما اكتشفت البارحة.

انفتح الباب الثالث على فناء متداعٍ له جدران عالية من الآجر. ضم كومة كبيرة من الجذول، وأكداسًا فوضوية مما بدا سَقْط حديد وعجلات ودلاء وصفائح معدنية وأسلاك، تكومت حتى بلغت أعلى الجدران. أغلقت صوفي ذلك الباب أيضًا، محتارة قليلًا، لأنه لا يبدو متناسبًا مع القلعة البتة. وما كان ثمة قلعة تُرى فوق جدران الآجر، إذ تبلغ [الجدران] السماء. لم تفكر صوفي بشيء إلا أن هذا الجزء يحيط بالجانب الذي يقع فيه الجدار الخفي الذي منعها الليلة الماضية.

وفتحت الباب الرابع، ولم يكن إلا خزانة في الغرفة، فيها عباءاتان جميلتان مغبرتان معلقتان على المكانس، فأغلقته صوفي بهدوء. كان الباب الآخر الوحيد يقع في الجدار ذي النافذة، وهذا هو الباب الذي دخلت منه الليلة الماضية، فعرجت نحوه وفتحته بحذر.

وقفت للحظة تنظر خارجًا إلى منظر التلال المتحركة ببطء، ومراقِبة الخلنج ينساب تحت الباب، وشاعرة بالريح تهب على شعرها الناعم، ومصغية إلى هدير الصخور السوداء الكبيرة ورضرضتها كلما تحركت القلعة. ثم أغلقت الباب واتجهت إلى النافذة، فرأت هنالك بلدة الميناء ثانية، ولم تكن هذه لوحة، فقد فتحت امرأة بابًا

قبالتها وأخذت تكنس الشارع. وخلف ذلك البيت أشرعة قنبية رمادية ترتفع على صارية في اهتزازات نشطة، مضايقة سربًا من النوارس فطارت وطارت قرب البحر المتلألئ.

«لست أفهم»، قالت صوفي للجمجمة البشرية. ثم، لأن النار بدت خامدة، ذهبت وألقت إليها بعدد من الجذول وكنست بعض الرماد.

علا اللهب الأخضر بين الجذول، صغيرًا ومموجًا، وارتفع في وجه أزرق طويل له شعر مشتعل أخضر. «صباح الخير»، قال عفريت النار. «لا تنسي أن بيننا اتفاقًا».

ما كان شيء من ذلك حلمًا إذن. لم تكن صوفي نزاعة للبكاء، لكنها جلست على الكرسي لبعض الوقت محملقة في عفريت النار المغبش المتراقص، ولم تبالِ كثيرًا بأصوات استيقاظ مايكل، حتى وجدته واقفًا قربها، باديًا عليه الحرج وشيء من السخط.

«أما زلتِ هنا؟»، قال. «أبك خطب؟».

نشقت صوفي، «إنني عجوز»، قالت.

ولكن الأمر كان كما قالته الساحرة وخمنه عفريت النار. فقال مايكل مبتهجًا «حسن، إن هذا سيحدث لنا جميعًا بمرور الوقت. أتودين تناول الإفطار؟».

أدركت صوفي أنها كانت حقًا عجوزًا معافاة. فبعد الخبز والجبن من غداء البارحة، كانت تتضور جوعًا. «أجل!»، قالت،

وحين ذهب مايكل إلى الخزانة في الجدار، نهضت واسترقت النظر من فوق كتفه لترى ماذا يوجد فيها مما يؤكل.

«أخشى أننا ليس عندنا إلا الخبز والجبن»، قال مايكل بشيء من البرود.

«ولكن هناك سلة مليئة بالبيض!»، قالت صوفي. «وأليس هذا لحمًا مقددًا؟ وماذا عن شراب ساخن أيضًا؟ أين إبريقكم؟».

«ليس عندنا واحد»، قال مايكل. «إن هاول الوحيد الذي يحسن الطبخ».

«أنا أجيده»، قالت صوفي. «ناولني هذه المقلاة وسأريك».

فتناولت المقلاة السوداء الكبيرة المعلقة على جدار الخزانة، رغم محاولة مايكل منعها. «أنت لا تفهمين»، قال مايكل. «إنه كالسيفر، عفريت النار. لن يحني رأسه ليطهى عليه لأي أحد عدا هاول».

استدارت صوفي ونظرت إلى عفريت النار. فتمايل ماكرًا، «أرفض أن يجري استغلالي»، قال.

«أتعني»، قالت صوفي لمايكل، «أن عليك العيش دون شراب ساخن ما لم يكن هاول موجودًا؟» فهز مايكل رأسه حرجًا. «أنت الذي يجري استغلالك إذن!»، قالت صوفي. «أعطني هذه». فانتزعت المقلاة من أصابع مايكل المقاومة، وألقت اللحم المقدد فيها، ورمت ملعقة خشبية قريبة في سلة البيض، وتقدمت مع كل هذا نحو الموقد.

«والآن يا كالسيفر»، قالت، «دعنا من الكلام الفارغ. أحنِ رأسك».

«لا يمكنك إجباري!»، قرقع عفريت النار.

«أوه، بلى يمكنني!»، فقرقعت صوفي ردًا عليه، بقوة كثيرًا ما أوقفت أختيها وسط شجارهما. «سأصب الماء عليك إن لم تفعل، أو سأحمل الملقط وأرفع جذليك»، أردفت، حين جثت على ركبتيها وهي تطقطق قرب المصطلى. «أو أستطيع التراجع عن اتفاقنا، أو أخبر هاول عنه، ألا أستطيع؟».

«أوه، اللعنة!»، بصق كالسيفر. «لماذا أدخلتها يا مايكل؟»، وأحنى عابسًا وجهه الأزرق حتى لم يعد يُرى منه إلا حلقة من اللهب الأخضر المموج تتراقص على الجذول.

«شكرًا لك»، قالت صوفي، ثم وضعت المقلاة الثقيلة على الحلقة الخضراء لتتأكد أن كالسيفر لن يعلو فجأة.

«ليت لحمك المقدد يحترق»، قال كالسيفر مخنوقًا تحت المقلاة.

وضعت صوفي شرائح من اللحم المقدد في المقلاة، التي كانت جيدة وساخنة. فأزّ اللحم، وكان عليها أن تلف تنورتها حول يدها لتمسك مقبض المقلاة. انفتح الباب لكنها لم تلحظ ذلك بسبب الأزيز. «لا تكن سخيفًا»، قالت لكالسيفر. «وابقَ كما أنت لأني أود كسر البيض».

«أوه، أهلًا بك يا هاول»، قال مايكل بلا حول ولا قوة.

استدارت صوفي عندئذ، بشيء من العجلة، وحملقت. توقف الشاب الطويل الذي يلبس بدلة مبهرجة ذات لونين أزرق وفضي دخل لتوه ليسند الغيتار في الزاوية، وأبعد الشعر الجميل عن عينيه الغريبتين ذواتي اللون الأخضر الزجاجي ونظر إليها، إذ علت الحيرة وجهه الطويل النحيل.

«من أنت بحق السماء؟»، قال هاول. «أين رأيتك قبلًا؟».

«إنني غريبة تمامًا»، كذبت صوفي بحزم فهاول لم يلتقها إلا بما يكفي ليسميها فأرة، فقولها صحيح تقريبًا. عليها أن تشكر طالعها على هروبها السعيد حينئذ، كما ظنت، لكن الحقيقة أن جل ما دار في خلدها: أيها الرب الرحيم! الساحر هاول ليس إلا صبيًا في العشرينات من العمر، وله كل هذا المكر! لو كان شيخًا لكان الأمر مختلفًا، قالت في نفسها وهي تقلّب اللحم المقدد في المقلاة، وهي تؤثر الموت على أن تجعل هذا الفتى المتأنق يعرف أنها الفتاة التي أشفق عليها في يوم مايو، ولا شأن للقلوب والأرواح بهذا الأمر، فما كان لهاول أن يعرف.

«تقول إن اسمها صوفي»، قال مايكل. «لقد جاءت ليل البارحة».

«وكيف جعلت كالسيفر يحني رأسه؟»، سأل هاول.

«لقد تجبّرتْ علي!»، قال كالسيفر بصوت مخنوق مثير للشفقة من تحت المقلاة التي تئز.

«لا يستطيع كثيرون فعل هذا»، قال هاول متفكرًا، فوضع غيتاره

في الزاوية وتقدم نحو المصطلى. امتزجت رائحة العيسلان برائحة اللحم المقدد حين نحّى صوفي جانبًا بحزم. «لا يحب كالسيفر أحدًا سواي يطبخ عليه»، قال وهو يجثو لافًا كمًا طويلًا على يده ليمسك المقلاة. «مرري لي شريحتين أخريين من اللحم المقدد وست بيضات من فضلك، وأخبريني عما دعاك إلى القدوم هنا».

حملقت صوفي بالحلية الزرقاء المتدلية من أذن هاول ومررت له بيضة إثر بيضة. «لماذا جئت أيها الشاب؟»، قالت. فقد كان [الجواب] جليًا بعدما رأته من القلعة. «لقد جئت لأنني عاملة التنظيف الجديدة لك طبعًا».

«أأنت كذلك حقًا؟»، قال هاول، كاسرًا البيض بيد واحدة وملقيًا بالقشور بين الجذول، حيث التهمها كالسيفر بكثير من الدمدمة والازدراد. «ومن قال ذلك؟».

«أنا»، قالت صوفي، وأردفت بوقار «بوسعي تنظيف القذارة من هذا المكان وإن لم أستطيع تنظيفك من شرّك أيها الشاب».

«هاول ليس شريرًا»، قال مايكل.

«بلى أنا كذلك»، عارضه هاول. «لقد نسيت مقدار شري الآن يا مايكل». وأشار بذقنه إلى صوفي «إن كنت تتحرقين شوقًا لتكوني ذات نفع يا عجوزي الطيبة، فاعثري على بعض السكاكين والشوَك وأفرغي طاولة الأشغال».

كانت تحت الطاولة مقاعد طويلة، أخذ مايكل يجرها ويدفع

جانبًا كل ما عليها من أشياء ليفرغ مكانًا للسكاكين والشوَك التي أخرجها من جارور في جانبها، وذهبت صوفي لمساعدته. لم تنتظر أن يرحب بها هاول، طبعًا، لكنه لم يوافق حتى الآن أيضًا على بقائها بعد الإفطار. ولما رأت صوفي أن مايكل لا يحتاج مساعدة، تثاقلت نحو عصاها ووضعتها بهدوء ووضوح في خزانة المكانس. وقالت حين رأت أن هذا لم يجذب انتباه هاول «يمكنك تجربة عملي شهرًا إن أحببت».

لم يقل الساحر هاول شيئًا إلا «الأطباق من فضلك يا مايكل»، ووقف حاملًا المقلاة المدخنة. ارتفع كالسيفر بهدير الارتياح واضطرم عاليًا في المدخنة. حاولت صوفي مرة أخرى دفع الساحر ليقرر. «إن كنت سأنظف المكان الشهر القادم»، قالت، «فأود معرفة أين باقي القلعة. لم أجد إلا هذه الغرفة الوحيدة والحمام».

ودهشت لما رأت كلًا من مايكل والساحر ينفجران بالضحك.

ولم تعرف صوفي ما الذي دعاهما إلى الضحك إلا قبيل فراغهم من تناول الإفطار. لم يكن صعبًا دفع هاول لاتخاذ قرار فحسب، بل تبين أنه لا يحب الإجابة عن الأسئلة بتاتًا. فتخلت صوفي عن سؤاله وسألت مايكل بدلًا عنه.

«أخبرها»، قال هاول. «سيجعلها هذا تكف عن مضايقتنا بالأسئلة».

«ليس في القلعة المزيد»، قال مايكل، «سوى ما رأيت وغرفتيْ نوم في الأعلى».

«ماذا؟»، قالت صوفي دهشة.

ضحك هاول ومايكل ثانية. «لقد ابتدع هاول وكالسيفر القلعة»، شرح لها مايكل، «وكالسيفر يبقيها تتحرك. إن داخلها هو تمامًا ما كان عليه بيت هاول في پورتهڤن، وهذا هو الجزء الحقيقي الوحيد».

«ولكن پورتهڤن تبعد أميالًا قرب البحر!»، قالت صوفي. «أقول إن هذا بالغ السوء! ماذا تقصد من وراء اندفاع هذه القلعة الكبيرة القبيحة في أنحاء التلال وهي تثير خوف الجميع في ماركت تشيپنغ حتى الموت؟».

رفع هاول كتفيه بلا مبالاة. «يا لك من عجوز فصيحة! لقد وصلت في مسيرتي إلى المرحلة التي أحتاج فيها إلى إبهار الجميع بقوتي وشرّي. لا أستطيع جعل الملك يظن بي الظن الحسن. كما أنني اعتديت العام الماضي على امرئ ذي نفوذ شديد وعلي البقاء بعيدًا عن دربه».

كانت طريقة غريبة لتجنب أحدهم، لكن صوفي ظنت أن للسحرة معايير تختلف عن معايير الناس العاديين، وسرعان ما اكتشفت أن للقلعة ميزات أخرى. أنهوا طعامهم وأخذ مايكل يكوم الصحون في حوض المغسلة قرب الطاولة حين سمعوا طرقًا عاليًا عميقًا على الباب.

تأجج كالسيفر، «باب كنغزبري!».

فمضى إلى الباب هاول، الذي كان في طريقه إلى الحمام. كان

فوق الباب مقبض مربع خشبي، موضوع في الأسكفّة، على كل جانب من جوانبه لطخة بلون ما. وفي تلك اللحظة كانت لطخة خضراء على الجانب السفلي، لكن هاول أدار المقبض فأصبحت اللطخة الحمراء في الأسفل قبل أن يفتح الباب.

وقف في الخارج شخص بارز يضع شعرًا مستعارًا أبيض متخشبًا وقبعة عريضة فوقه. كانت ثيابه بألوان القرمزي والبنفسجي والذهبي، وحمل معه منسأة صغيرة تزينها شرائط مثل سارية صغيرة. فانحنى، وتضوع في الغرفة عبير البرسيم وأزهار البرتقال.

«جلالة الملك يهديك تحياته ويرسل إليك مبلغًا من المال مقابل سبعة آلاف زوج من أحذية الفراسخ السبعة».

من خلفه لمحت صوفي عربة تنتظر في شارع مليء بالمنازل الفخمة تكسوها النقوش الملونة، وقلاعًا وأبراجًا مدببة وقبابًا خلف ذلك، لم تتخيل أبهتها من قبل. فحزنت أن يسلم الشخص الواقف بالباب محفظة طويلة حريرية لها خشخشة، وأن يأخذها هاول ويرد الانحناءة ويغلق الباب في وقت قصير. أدار هاول المقبض فعادت اللطخة الخضراء إلى الأسفل ودس المحفظة الطويلة في جيبه. ورأت صوفي عيني مايكل تلاحقان المحفظة ملاحقة لحوحة قلقة.

فمضى هاول إلى الحمام عندئذ قائلًا «أحتاج ماء ساخنًا هنا يا كالسيفر!»، واختفى لوقت طويل طويل.

لم تستطع صوفي كبح جماح فضولها. «من الذي كان واقفًا بالباب؟» سألت مايكل، «أو لعلّي أسأل أين؟».

«هذا الباب يطل على كنغزبري»، قال مايكل، «حيث يعيش الملك. أحسب أن ذلك الرجل كان موظفًا من وزارة المالية. و»، أضاف قلقًا إلى كالسيفر «وليته لم يعطِ هاول كل هذا المال».

«أسيسمح لي هاول بالبقاء هنا؟»، سألت صوفي.

«إن سمح لك، فلن تجبريه على قول ذلك»، أجاب مايكل. «إنه يكره أن يجبر على أي شيء».

الفصل الخامس

وهو مليء بالغسيل

أدركت صوفي أن الأمر الوحيد لفعله هو أن تثبت لهاول قدرتها الفائقة على التنظيف، وأنها كنز حقيقي. فربطت حول شعرها الناعم الأبيض خرقة قديمة، وشمّرت عن ساعديها العجوزين النحيلين، ولفّت نفسها بمفرش طويل من خزانة المكانس ليكون مئزرًا. لقد ارتاحت حقًا حين عرفت أن أمامها أربع غرف فقط لتنظيفها بدلًا من قلعة كاملة، فأخذت دلوًا ومقشّة وشرعت في العمل.

«ماذا تفعلين؟»، صاح بها مايكل وكالسيفر بصوت واحد ملؤه الخوف.

«أنظف»، ردت صوفي بحزم. «إن المكان مخزٍ».

قال كالسيفر «لا يحتاج المكان إلى التنظيف»، وهمهم مايكل «سيطردك هاول!»، لكن صوفي تجاهلتهما، وعلت غيوم الغبار.

في خضم ذلك سمعوا قرعًا آخر على الباب. فتأجج كالسيفر قائلًا «باب بورتهفن!»، وعطس عطسة كبيرة ذات أزيز، بعثت شررًا بنفسجيًا خلال غيوم الغبار.

ترك مايكل طاولة الأشغال ومضى نحو الباب. فاسترقت صوفي النظر خلال الغبار الذي تثيره ورأت هذه المرة مايكل يدير المقبض المربع فوق الباب ليصبح الجانب ذو اللطخة الأزرق إلى الأسفل، ثم فتح الباب على الشارع الذي رأته من النافذة.

وقفت هناك فتاة صغيرة وقالت «من فضلك يا سيد فشر، لقد جئت من أجل تلك الرقية لأمي أنا».

«رقية السلامة لقارب أبيك، أليس كذلك؟»، قال مايكل. «لن يستغرق الأمر إلا لحظة». فعاد إلى طاولة العمل ووَزَن مسحوقًا من جرة من الرفوف في مربع من ورق. وأثناء فعله ذلك، أطلت الفتاة الصغيرة إلى الداخل ونظرت إلى صوفي بفضول بقدر فضول صوفي وهي تبادلها النظر. لف مايكل الورقة حول المسحوق وعاد قائلًا «أخبريها أن تنثره على القارب. سيدوم أثرها في رحلة الذهاب والإياب، وإن صادفته عاصفة».

أخذت الفتاة الورقة وأعطته قطعة نقدية. «أجلب الساحر ساحرة تعمل لديه أيضًا؟»، سألته.

«كلا»، قال مايكل.

«أتقصدينني؟»، قالت صوفي. «أوه بلى يا صغيرتي. إنني أفضل الساحرات وأنظفهن في إنغري».

أغلق مايكل الباب وبدا على وجهه الحنق. «سيذيع هذا في أنحاء پورتهڤن الآن. ولن يعجب هاول هذا!»، وأدار المقبض ليكون الأخضر إلى الأسفل ثانية.

ضحكت صوفي لنفسها قليلًا، بلا أي ذرة من الندم. لعلها سمحت لتلك المقشة التي تستخدمها في إقحام بعض الأفكار في رأسها. ولكن قد يقنع هذا هاول بالسماح لها بالبقاء إذا ظن الجميع أنها تعمل عنده. كان ذلك غريبًا، إذ كانت صوفي في صباها ستنكمش حرجًا من سلوكها. ولكنها وهي العجوز لم تبالِ بما تقول أو تفعل، ووجدت في هذا راحة عظيمة.

وتقدمت متطفلة حين رفع مايكل حجرًا في المصطلى وخبأ القطعة النقدية من الفتاة تحتها. «ماذا تفعل؟».

«نحاول أنا وكالسيفر أن ندخر بعض المال»، قال مايكل بشيء من الإحساس بالذنب. «ينفق هاول كل بنس نحصل عليه إن لم نفعل».

«يا له من مبذّر عديم الجدوى!»، همس كالسيفر. «سينفق مال الملك أسرع من إحراقي لجذل. بلا عقل».

رشت صوفي الماء من المغسلة لتسكن الغبار، فانكمش كالسيفر إلى المدخنة. ثم كنست الأرض مرة أخرى. وكنست ناحية الباب بغية النظر إلى المقبض المربع الكائن فوقه. كان للجانب الرابع، الذي لم تره يستخدم بعد، لطخة من الطلاء الأسود. تساءلت صوفي عن المكان الذي يفضي إليه، وأخذت تزيل بهمة بيوت العناكب عن العوارض. فتأوه مايكل وعطس كالسيفر ثانية.

خرج هاول من الحمام حينئذ تضوع منه نفحة عطر مشبعة بالبخار. وبدا متأنقًا أناقة باهرة، وبدت الفتحات الفضية والزخارف

على بدلته أكثر لمعانًا. فألقى نظرة واحدة ثم عاد إلى الحمام ثانية حاميًا رأسه بكمٍّ أزرق وفضي.

«كفي يا امرأة!»، قال، «دعي تلك العناكب المسكينة وشأنها!».

«بيوت العناكب هذه مشينة!»، قالت صوفي وهي تنزلها في رزم.

«أنزليها إذن واتركي العناكب»، قال هاول.

لعله يألف العناكب ألفة شريرة، قالت صوفي في نفسها. «ستصنع المزيد من البيوت»، قالت.

«وتقتل الذباب، وهذا مفيد جدًا»، قال هاول. «لا تحركي تلك المكنسة حتى أعبر غرفتي من فضلك».

اتكأت صوفي على المكنسة ورأت هاول يعبر الغرفة ويحمل غيتاره. ولما وضع يده على مزلاج الباب قالت «إن كانت اللطخة الحمراء تفضي إلى كنغزبري، والزرقاء إلى بورتهفن، فأين تأخذك السوداء؟».

«يا لك من عجوز حشرية!»، قال هاول. «يقود هذا إلى مخبئي الخاص ولن أخبرك أين يقع». وفتح الباب على الأرض البراح والتلال الرحبة المتحركة.

«متى ستعود؟»، سأل مايكل بشيء من اليأس.

تظاهر هاول أنه لم يسمع، وقال لصوفي «إياك أن تقتلي عنكبوتًا واحدًا في غيابي»، وصفق الباب خلفه. نظر مايكل نظرة ذا معنى إلى كالسيفر وتنهد، فقرقع كالسيفر بضحكة خبيثة.

ولما لم يشرح أحد أين ذهب هاول، استنتجت صوفي أنه خرج لصيد الفتيات الصغيرات ثانية وانهمكت في العمل بنشاط وهمة أكثر من ذي قبل. لم تجرؤ على إيذاء أي عنكب بعدما قاله هاول، لذا خبطت على العوارض بمكنستها صائحة «اخرجي أيتها العناكب! ابتعدي عن طريقي!» فتفرقت العناكب للنجاة بحياتها في كل اتجاه، وتساقطت بيوتها في لفافات. فاضطرت صوفي عندئذ إلى كنس الأرض ثانية، ثم جثت على ركبتيها وفركتها.

«ليتك تتوقفين!»، قال مايكل جالسًا على السلالم بعيدًا عن طريقها.

وغمغم كالسيفر، الذي تراجع إلى آخر الموقد «ليتني ما عقدت ذاك الاتفاق معك!».

فواصلت صوفي الفرك بهمة. «ستكونان أسعد بكثير حين يغدو كل شيء جميلًا ونظيفًا»، قالت.

«لكني بائس الآن!»، اعترض مايكل.

لم يعد هاول حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة. أثناء ذلك أجهدت صوفي نفسها في الكنس والفرك حتى لم تعد قادرة على الحراك، فجلست محدودبة على الكرسي، وكل ما فيها يؤلمها. أمسك مايكل بهاول من كمّه الطويل وسحبه إلى الحمام، حيث سمعته صوفي يصب تذمره في تأفف غاضب، وكان سهلًا سماع عبارات من قبيل «خادمة عجوز فظيعة»، و«لا تصغي لأحد»، رغم هدير كالسيفر «أوقفها يا هاول، إنها تقتل كلينا!».

لكن هاول اكتفى بالقول، حين تركه مايكل، «أقتلت أي عنكبوت؟».

«كلا طبعًا!»، ردت صوفي غاضبة، فقد جعلتها أوجاعها حانقة. «لقد نظرن إلي وولين الأدبار للنجاة بحياتهن. ما هن؟ كل الفتيات اللاتي أكلت قلوبهن؟».

ضحك هاول «كلا، إنها عناكب فحسب»، قال وارتقى السلالم حالمًا.

تنهد مايكل، وذهب نحو خزانة المكانس وبحث حتى وجد سريرًا مطويًا قديمًا، وفراشًا من القش وبعض الخرق، ووضعها في المكان المقنطر تحت السلالم. «يحسن بك أن تنامي هنا الليلة».

«أيعني هذا أن هاول سيسمح لي بالبقاء؟»، سألت صوفي.

«لست أدري!»، قال مايكل ساخطًا. «إن هاول لا يلزم نفسه بشيء أبدًا. لقد قضيت هنا ستة أشهر قبل أن يلاحظ أني أعيش هنا فجعلني مساعده. لكني حسبت أن السرير أفضل من الكرسي».

«شكرًا جزيلًا لك إذن»، قالت صوفي ممتنة. كان السرير حقًا أكثر راحة من الكرسي، ولما اشتكى كالسيفر من الجوع ليلًا، سهل على صوفي أن تعرج طريقها لتمنحه جذلًا آخر.

في الأيام التي أعقبت ذلك، نظفت صوفي القلعة بلا حسرة، إذ استمتعت بذلك حقًا. وغسلت النافذة ونظفت حوض المغسلة التي تقطر، وهي تقول لنفسها إنها تبحث عن إشارات، وجعلت مايكل

يفرغ طاولة الأشغال والرفوف من كل شيء لتتمكن من فركها. وأخرجت كل شيء من الخزائن وأنزلت كل شيء من العوارض ونظفتها أيضًا. وتخيلت أن الجمجمة البشرية تبدو كمن عانى طويلًا مثل مايكل. ثم ثبتت بمسامير شرشفًا عتيقًا على العوارض قرب الموقد وأجبرت كالسيفر على أن يحني رأسه وهي تمسح المدخنة. كره كالسيفر ذلك، فقرقع بضحكة لئيمة عندما اكتشفت صوفي أن الهباب قد ملأ الغرفة كلها وعليها أن تعاود تنظيفها. كانت تلك مشكلة صوفي، لم تندم لكنها تفتقر للخطة. لكن الخطة تكمن في لا ندمها؛ إذ رأت أنها لن تنظف هذا جيدًا دون العثور عاجلًا أم آجلًا على كومة هاول المخبأة من أرواح الفتيات، أو القلوب الممضوغة أو أي شيء آخر يفسر عقد كالسيفر. فقد خطر لها أن أعلى المدخنة، يحرسه كالسيفر، مخبأ جيد. لكنها لم تجد هناك إلا أكوام الهباب، التي وضعتها صوفي في أكياس في الفناء. وقد كان الفناء أول المخابئ في قائمتها.

كلما دخل هاول، اشتكى مايكل وكالسيفر من صوفي جهرًا. لكن هاول لم يبالِ، ولا انتبه إلى النظافة، ولا رأى أن صوان الطعام قد امتلأ بالكيك والمربى وقليل من الخس.

وإذ ذاع الخبر في أنحاء پورتهفن، كما تنبأ مايكل، فقد وقف الناس بالباب ليروا صوفي. وسموها السيدة الساحرة في پورتهفن، والمدام الراقية في كنغزبري وذاع الخبر في العاصمة أيضًا، ورغم أن الناس الذين جاؤوا إلى باب كنغزبري أحسن هندامًا من أهل

يورتهفن، غير أن الناس في المكانين لم يرغبوا بزيارة شخص بهذه القوة دون حجة. لذا اضطرت صوفي دومًا أن توقف عملها لتومي وتبتسم وتقبل هدية، أو تجعل مايكل يركّب رقية سريعة لأحدهم. كانت بعض الهدايا لطيفة؛ من قبيل اللوحات، أو سلاسل الأصداف والمآزر المفيدة. استخدمت صوفي المآزر كل يوم وعلقت الأصداف واللوحات في أنحاء حجيرتها الكائنة تحت الدرج، التي سرعان ما أخذت تبدو كالبيت حقًا.

أدركت صوفي أنها ستفتقد الحجيرة حين يطردها هاول، وقد ازدادت خشيتها من فعله ذلك، إذ أيقنت أنه لن يستمر في تجاهلها إلى الأبد.

نظفت الحمام تاليًا، واستغرق هذا أيامًا، لأن هاول يقضي فيه وقتًا طويلًا قبل أن يخرج. وحالما يخرج، مخلفًا الحمام مليئًا بالبخار والرُّقى المعطّرة، تدخله صوفي. «سأبحث عن ذلك العقد الآن!»، غمغمت في الحوض، لكن هدفها الأول كان بالطبع رف العلب والجرار والأنابيب. إذ أنزلت كل واحد منها، بحجة تنظيف الرف، وأمضت جل النهار وهي تتفحصها بعناية لترى إن كانت التي كتب عليها بشرة، وعيون، وشعر قطع من الفتيات حقًا. لكنها كانت كلها دهانات ومساحيق وصباغًا وفقًا لما رأته. وإن كانت هذه يومًا فتيات، فقد ظنت صوفي أن هاول قد استخدم عليها الأنبوب الذي كتب عليه للتعفن وفسّخها في حوض الغسيل جيدًا فلا يمكن استعادتها. لكنها تمنت أن تكون هذه مستحضرات تجميل فحسب.

أعادت الأشياء على الرف ونظفت. تلك الليلة، أثناء جلوسها متوجعة على الكرسي، تذمر كالسيفر أنه استنزف نبعًا حارًا من أجلها حتى جف.

«أين تقع الينابيع الحارة؟»، سألت صوفي التي انتابها الفضول حيال كل شيء في هذه الأيام.

«تحت سباخ پورتهڤن غالبًا»، قال كالسيفر. «ولكن إن واصلت فعل هذا، سيتعين علي جلب الماء من أرض اليباب. متى ستكفين عن التظيف وتعرفين كيف تبطلين العقد؟».

«في الوقت المناسب»، قالت صوفي. «أنى لي أن أعرف البنود من هاول إن كان غائبًا؟ أيغيب هكذا دومًا؟».

«إن كان يلاحق سيدة فقط»، قال كالسيفر.

عندما كان الحمام نظيفًا براقًا، دعكت صوفي السلالم وبسطة الدرج في الأعلى. ثم انتقلت إلى غرفة مايكل الأمامية الصغيرة. مايكل، الذي أخذ متجهمًا يتقبل صوفي في هذه الأثناء مثلما يقبل كارثة طبيعية، صرخ صرخة خوف وهرع إلى الأعلى لينقذ ممتلكاته الثمينة. وقد كانت في صندوق قديم تحت فراشه الصغير الذي أكله العث. ولما أسرع في إبعاد الصندوق لحمايته، لمحت صوفي شريطة زرقاء فيها وردة من حلوى غزل البنات، فوق ما بدا رسائل.

«لمايكل حبيبة إذن!»، قالت لنفسها وهي تفتح النافذة -وكانت تطل على شارع في پورتهڤن أيضًا- وكومت أغطيته على الأسكفة

لتهويتها. أدركت صوفي أنها أضحت شديدة الحشرية في الآونة الأخيرة، لكنها عجبت من نفسها إذ لم تسأل مايكل عن فتاته وكيف يحميها من هاول.

فكنست مقدارًا كبيرًا من الغبار والقمامة من غرفة مايكل حتى كادت تغمر كالسيفر وهي تحاول حرقها.

«ستكونين سببًا في موتي! إنك قاسية القلب مثل هاول!»، قال كالسيفر مختنقًا. ولم يظهر منه إلا شعره الأخضر وجزء أزرق من جبينه الطويل.

وضع مايكل صندوقه النفيس في جارور طاولة الأشغال وأقفل الجارور. «ليت هاول يستمع إلينا!»، قال. «لماذا استغرقت ملاحقة هذه الفتاة منه وقتًا طويلًا؟».

جربت صوفي اليوم التالي أن تبدأ العمل في الفناء الخلفي. لكن السماء كانت تمطر في بورتهفن ذلك النهار، والأمطار تضرب النافذة وتطقطق في المدخنة، جاعلة كالسيفر يهس غيظًا. كان الفناء جزءًا من بيت بورتهفن أيضًا، لذا كان المطر يهطل بغزارة هناك لما فتحت صوفي الباب. وضعت مئزرها على رأسها وبحثت قليلًا، وقبل أن يشتد عليها البلل، وجدت دلوًا من الطلاء الأبيض وفرشاة صبغ كبيرة. فأدخلت هذه الأشياء إلى الداخل وشرعت تعمل على الجدران، ووجدت سلمًا صغيرًا في خزانة المكانس فطلت السقف باللون الأبيض من بين العوارض أيضًا. استمر المطر في الأيام التالية في بورتهفن، رغم أن هاول حين فتح الباب واللطخة الخضراء للمقبض

نحو الأسفل ووطئ تلة، كان الطقس هناك مشمسًا، وظلال غيوم كبيرة تمضي فوق الخلنج أسرع من حركة القلعة. طلت صوفي حجيرتها والسلالم وبسطة الدرج وغرفة مايكل.

«ماذا حدث هنا؟»، سأل هاول حين دخل في اليوم الثالث. «يبدو المكان أكثر ضياءً».

«صوفي»، قال مايكل بصوت ملؤه التشاؤم.

«كان علي أن أخمن»، قال هاول حين توارى في الحمام.

«لقد لاحظ!»، همس مايكل لكالسيفر. «لا بد أن الفتاة استجابت له أخيرًا!».

ما زالت تمطر في بورتهفن اليوم التالي. فربطت صوفي عصبة رأسها، وشمرت عن ساعديها، وربطت مئزرها. ثم حملت مقشتها ودلوها وصابونها، وحالما خرج هاول من الباب، انطلقت مثل ملاك منتقم هرم لتنظف غرفة نوم هاول.

لقد تركت ذلك آخر شيء خوفًا مما قد تجده، بل إنها لم تجرؤ على استراق النظر فيها. وكان ذلك سخيفًا، قالت لنفسها وهي تعرج صاعدة السلالم. تبين لها حتى الآن أن كالسيفر هو من يقوم بأعمال السحر القوي في القلعة ومايكل يقوم بالأعمال الصغيرة، أما هاول فيتسكع لصيد الفتيات ويستغل الآخرين مثلما استغلتها فاني. لم تر صوفي أن هاول مرعب تحديدًا، ولم يعد يخالجها شيء الآن سوى الازدراء.

وصلت بسطة الدرج ووجدت هاول يقف في ممر غرفته. وكان يتكئ بكسل على يد واحدة، وهو يسد عليها الطريق تمامًا.

«كلا لن تفعلي»، قال بسرور كبير. «أريدها قذرة، شكرًا لك».

نظرت صوفي إليه فاغرة فاها. «من أين أتيت؟ رأيتك تخرج».

«تعمدت ذلك»، قال هاول. «لقد عثت فسادًا بكالسيفر ومايكل المسكين. ولا بد أنك ستنقضّين علي اليوم. وأيًا كان ما قاله لك كالسيفر، فأنا ساحر كما تعرفين. ألا تحسبين أن بوسعي فعل السحر؟».

لقد قوّض هذا كل افتراضات صوفي، ولكنها تفضل الموت على الاعتراف بهذا. «يعرف الجميع أنك ساحر أيها الشاب»، قالت بقسوة. «لكن هذا لا يغير من حقيقة أن قلعتك أقذر مكان دخلته في حياتي». نظرت إلى الغرفة من خلف كمّ هاول الأزرق والفضي المتدلي. كانت السجادة على الأرض تكسوها النفايات مثل عش طائر. ولمحت جدرانًا متقشرة ورفًا مليئًا بالكتب، بعضها غريب المنظر. لم يكن ثمة أثر لأي قلوب مقضومة، ولكنها قد تكون على الأرجح خلف السرير الضخم ذي الأعمدة الأربعة أو تحته. كانت ستائره البيضاء رمادية من الغبار ومنعتها من رؤية ما تطل عليه النافذة.

لوح هاول بكمه أمام وجهها. «أه أه. لا تكوني حشرية».

«أنا لست حشرية!»، اعترضت صوفي. «تلك الغرفة...!».

«بلى، أنت حشرية»، قال هاول، «إنك حشرية للغاية، ومتسلطة

جدًا، وعجوز نظيفة حد الرعب. اضبطي نفسك، فأنت تجنين علينا جميعًا».

«لكنها حظيرة خنازير»، قالت صوفي. «لا أستطيع كبح ما أنا عليه!».

«بلى تستطيعين»، قال هاول. «وأنا أحب غرفتي كما هي. عليك الاعتراف بأن لي الحق في سكنى حظيرة الخنازير إن أردت. والآن انزلي السلالم وفكري بشيء آخر تفعلينه، من فضلك. أنا أكره الشجار مع الآخرين».

ما كان لصوفي إلا أن تعرج مبتعدة ودلوها يقرقع بجانبها. كانت مهزوزة قليلًا وشديدة الدهشة من أن هاول لم يلق بها خارج القلعة من فوره. وما دام لم يفعل، فقد فكرت بالأمر التالي الذي يلزم فعله في الحال. ففتحت الباب الواقع جانب السلالم، ووجدت أن المطر قد توقف، فاندفعت خارجة إلى الفناء، حيث أخذت بهمّة تفرّق أكوام القمامة التي تقطر.

سمعت ارتطامًا معدنيًا! وظهر هاول ثانية، يتخبط بخفة، وسط الصفيحة الكبيرة من الحديد الصدئ التي أرادت صوفي تحريكها تاليًا.

«ولا هنا أيضًا»، قال. «أنت مزعجة، أليس كذلك؟ دعي الفناء وشأنه. أعلم موقع كل شيء، ولن أستطيع العثور على الأشياء التي أحتاجها لرقية السفر إن رتبت الفناء».

كان في مكان ما هنا على الأرجح حزمة من الأرواح أو القلوب

المقضومة، قالت صوفي لنفسها، وأحست بخيبة الأمل حقًا. «إن الترتيب هو سبب وجودي هنا!»، صرخت في هاول.

«عليك إذن التفكير في معنى جديد لحياتك»، قال هاول. بدا لهنيهة أنه سيفقد أعصابه أيضًا، فقد حملقت عيناه الغريبتان الفاتحتان بصوفي. لكنه كظم غيظه وقال «والآن هرولي إلى الداخل أيتها العجوز النشطة، واعثري على شيء آخر تلعبين به قبل أن أغضب. وأنا أكره الغضب».

طوت صوفي ذراعيها النحيلتين، إذ لم يعجبها أن تحملق بها عينان كالبلى الزجاجية. «تكره الغضب طبعًا!»، ردت. «فأنت لا تحب أي أمر رهيب، أليس كذلك؟ إنك لمتسكع هارب، هذه حقيقتك! إنك تهرب من كل ما لا يعجبك!».

ابتسم هاول ابتسامة متكلفة «حسن الآن»، قال. «يعرف كلانا خطأ الآخر. ادخلي إلى البيت، هيا. عودي»، وتقدم صوفي، مشيرًا إليها نحو الباب. أمسك كمّ ذراعه المشيرة بحافة معدن صدئ، فشدته وتمزق. «اللعنة!» قال هاول، رافعًا الكم الطويل ذي اللونين الأزرق والفضي. «انظري إلى ما جعلتني أفعل!».

«بوسعي إصلاحه»، قالت صوفي.

نظر إليها هاول نظرة زجاجية أخرى. «ها قد بدأت ثانية»، قال. «كم تحبين الخدمة!» وأخذ الكم الممزق برفق بين أصابع يده اليمنى وسحبها منها. ولما ترك القماش الأزرق والفضي أصابعه، ما كان فيه شق قط. فقال «إليك. أفهمت؟».

عرجت صوفي عائدة إلى الداخل، وقد تهذبت قليلًا. لا يحتاج السحرة إلى العمل بالطريقة المألوفة، وقد أثبت لها هاول أنه ساحر يحسب له حساب حقًا. «لماذا لم يطردني؟»، قالت لنفسها من جهة ولمايكل من جهة أخرى.

«هذا يدهشني»، قال مايكل، «لكني أحسبه يأخذ برأي كالسيفر. معظم من يأتون إلى هنا لا يلاحظون كالسيفر، أو يخافونه».

الفصل السادس

وفيه يُظهر هاول مشاعره باللزاج الأخضر

لم يخرج هاول ذلك اليوم، ولا الأيام القليلة التالية. وجلست صوفي هادئة على الكرسي قرب المصطلى، مبتعدة عن دربه تفكر. فقد رأت أنها قد نفّست عن مشاعرها في القلعة حين انتابها الغضب الشديد من ساحرة اليباب، بقدر ما يستحقه هاول. كما أحست بقليل من الضيق لفكرة وجودها هنا بمزاعم كاذبة. فلربما ظن هاول أن كالسيفر يحبها، لكن صوفي عرفت أن كالسيفر انتهز الفرصة ليعقد معها اتفاقًا، وظنت صوفي أنها خذلت كالسيفر.

لم يدم هذا المزاج، إذ اكتشفت صوفي كومة من ثياب مايكل تحتاج رفوًا. فجلبت كشتبانًا ومقصًا وخيطًا من محفظة الخياطة الجيبية وشرعت في العمل. كانت ذلك المساء مبتهجة تغني مع كالسيفر أغنيته السخيفة عن القدور.

«أأنت سعيدة في عملك؟»، قال هاول ساخرًا.

«أحتاج المزيد»، قالت صوفي.

«بدلتي القديمة تحتاج رفوًا، إن تعين عليك الانشغال بشيء»، قال هاول.

هذا يعني أن هاول لم يعد مستاء، فأحست صوفي بالارتياح. إذ سيطر عليها الخوف ذلك الصباح.

كان واضحًا أن هاول لم يمسك الفتاة التي يلاحقها بعد. واستمعت صوفي إلى مايكل وهو يسأل أسئلة بدهية عن الأمر، وهاول يتملص تملصًا بارعًا من الإجابة عنها. «إنه متسكع هارب»، غمغمت صوفي لجوربين من جوارب مايكل. «لا يسعه مواجهة شرّه». وراقبت هاول منشغلًا قلقًا بغية إخفاء استيائه، وكان هذا أمرًا فهمته صوفي جيدًا.

على طاولة الأشغال عمل هاول بجدّ أكبر وأسرع من مايكل، واضعًا الرُّقى بأسلوب الخبير المتسرع. ومن النظرة التي علت وجه مايكل، كانت معظم الرُّقى غير عادية وصعبة التركيب. لكن هاول قد يترك رقية في منتصف الطريق ويهرع صاعدًا إلى غرفته ليعتني بشيء مخبّأ -شرير قطعًا- فيذهب للأعلى ثم يسرع بعد قليل إلى الفناء ليركّب بلا اهتمام رُقية كبيرة هناك. فتحت صوفي الباب في فرجة ودهشت لدى رؤيتها الساحر الأنيق يجثو في الطين وكمّاه الطويلان معقودان خلف عنقه ليبعدهما عنه وهو يكوّم كتلة من المعدن المدسم في هيكل خاص من نوع ما.

كانت الرقية للملك. فقد وصل مرسول متطيب متأنق آخر حاملًا رسالة وخطابًا طويلًا طويلًا تساءل فيه إن كان هاول يستطيع

تخصيص شيء من وقته، الذي يمضيه بلا ريب في أمور أخرى ذات قيمة، ليسخّر عقله الفذ العبقري لمشكلة صغيرة يمر به جلالته؛ فيفكر كيف لجيش أن ينقل أسلحته الثقيلة عبر السباخ والأرض الوعرة.

كان هاول بالغ التهذيب وأسهب في إجابته، وقال كلا. لكن المرسول تحدث لنصف ساعة أخرى، وتبادل هو وهاول في نهايتها الانحناءات ووافق هاول على صنع الرقية.

«هذا ينذر بسوء»، قال هاول لمايكل بعد ذهاب المرسول. «ما الذي دعا سولمن إلى إهلاك نفسه في أرض اليباب؟ يبدو أن الملك يظنني سأفعل ذلك بدلًا منه».

«لكنه لم يكن مخترعًا مثلك على أي حال»، قال مايكل.

«أنا شديد الصبر والتهذيب»، قال هاول متجهمًا. «كان علي أن أتقاضى منه أجرًا أكبر».

كان هاول صبورًا ومهذبًا بقدر مماثل مع زبائن من پورتهڤن، ولكن المشكلة، مثلما أشار مايكل قلقًا، في أن هاول لا يتقاضى أجرًا مناسبًا من هؤلاء. كان هذا بعد استماع هاول لساعة للأسباب التي تعجز فيها زوجة البحار عن دفع پنس حتى الآن، ثم وعد قبطانًا برقية للريح مقابل لا شيء. تملّص هاول من جدال مايكل بإعطائه درسًا في السحر.

خاطت صوفي أزرارًا لقمصان مايكل واستمعت لهاول يراجع رقية مع مايكل. «أعلم أني متهور»، كان يقول، «ولكن لا حاجة

بك لتقليدي. اقرأها جيدًا بعناية أولًا. وسينبئك شكلها بالكثير، سواء أكانت ذاتية التحقق أم ذاتية الاستخلاص، أم تعويذة بسيطة، أم مزيجًا من القول والفعل. وحين تعرف ذلك، راجعها ثانية وحدد أي أجزائها تعني ما تقوله وأي أجزائها مكتوبة كأحجية. إنك تتعلم الأنواع الأقوى الآن، وستجد في كل رقية للقوة خطأ واحدًا متعمدًا أو لغزًا لتفادي الحوادث. عليك تحديد هذه المواضع. والآن خذ هذه الرقية...».

أدركت صوفي أنها أيضًا تستطيع تعلم الكثير من الاستماع إلى إجابات مايكل المتقطعة عن أسئلة هاول، ومراقبة هاول يخربش ملاحظات على الورق بقلم ريشة غريبة خالدة. فقد خطر لها أنه ما دامت مارثا اكتشفت رقية لتبادل الأماكن مع لتي في منزل السيدة فيرفاكس، فلا بد أنها قادرة على فعل الأمر نفسه هنا. وبقليل من الحظ قد لا تحتاج إلى الاعتماد على كالسيفر.

حين اطمأن هاول إلى نسيان مايكل أمر الأجر قليله وكثيره الذي يتقاضاه في بورتهفن، أخذه إلى الفناء ليساعده في صنع رقية الملك، فنهضت صوفي مطقطقة وعرجت نحو طاولة الأشغال. كانت الرقية واضحة تمامًا، لكن ملاحظات هاول المخربشة أعجزتها. «لم أر قط خطًا كهذا!» اشتكت للجمجمة البشرية. «أيستخدم قلمًا أم مسعرًا؟»، وقلبت بحماس كل قصاصة ورق على الطاولة وعاينت المساحيق والسوائل في الجرار الماثلة. «أجل، علي الاعتراف»، قالت للجمجمة، «أنا متطفلة، وأنال مكافأتي المستحقة. بوسعي معرفة

كيف أعالج طاعون الطيور[1] أو السعال الديكي، أو أن أعلي الرياح أو أزيل شعر الوجه. لو عرفت مارثا هذا كله، لظلت في بيت السيدة فيرفاكس».

خُيّل لصوفي أن هاول ذهب وعاين كل الأشياء التي حركتها حين عاد من الفناء. لكن هذا لم يكن إلا تململًا إذ لم يعرف ما يفعل بعد ذلك، وسمعته صوفي يطوف جيئة وذهابًا أثناء الليل. ولم يقض في الحمام إلا ساعة الصباح التالي، كأنما لم يستطع تمالك نفسه حين كان مايكل يلبس أفضل بدلاته؛ المخملية بلون البرقوق، جاهزًا للذهاب إلى القصر في كنغزبري، وغلف كلاهما الرقية الضخمة بورق ذهبي. كانت الرقية خفيفة خفة تثير العجب نظرًا لحجمها، فقد حملها مايكل وحده بسهولة، لافًا كلتا ذراعيه حولها. أدار هاول المقبض الكائن فوق الباب موجهًا اللطخة الحمراء للأسفل وأخرجه إلى الشارع بين البيوت المطلية.

«إنهم بانتظارها»، قال هاول، «عليك أن تنتظر معظم الصباح. وأخبرهم أن طفلًا يسعه تشغيلها، وأرِهم. وحين تعود، سأعد من أجلك رقية القوة لتعمل عليها. إلى اللقاء».

أغلق الباب وطاف في أنحاء الغرفة ثانية. «قدماي تؤلماني»، قال فجأة، «سأتنزه في التلال. أخبري مايكل أن الرقية التي وعدته بها على طاولة الأشغال. وهذا شيء تنشغلين به».

---

(١) ويعرف باسم داء نيوكاسل: مرض يصيب الطيور وهو من الأمراض المشتركة بين الإنسان والحيوان.

وجدت صوفي بدلة ذات لونين رمادي وقرمزي، أنيقة بقدر البدلة ذات اللونين الأزرق والفضي، ألقيت في حجرها من لا مكان. حمل هاول حينئذ غيتاره من زاويته، وأدار مقبض الباب موجهًا الأخضر للأسفل، وخرج بين الخلنج المتمايل فوق ماركت تشيپنغ.

«قدماه تؤلمانه!» تذمر كالسيفر. كان الضباب يكتنف پورتهڤن، وكان كالسيفر خفيضًا بين جذوله، يتحرك قلقًا إلى هذه الناحية وتلك ليتجنب قطرات المدخنة. «ما شعوري في ظنه وأنا عالق في موقد رطب كهذا؟».

«عليك إذن أن تعطيني إلماحة على الأقل لأبطل عقدك»، قالت صوفي وهي تهز البدلة الرمادية القرمزية. «يا إلهي، إنك لبدلة جميلة، وإن كنت رثة قليلًا! صنعتِ لاجتذاب الفتيات، أليس كذلك؟».

«لقد أعطيتك إلماحة!»، غضب كالسيفر.

«عليك أن تعطينيها ثانية إذن، إذ لم أفهمها»، قالت صوفي وهي تضع البدلة وتعرج نحو الباب.

«لو أعطيت إلماحة وقلت إنها إلماحة لأصبحت معلومة، وليس مسموحًا لي بفعل ذلك»، قال كالسيفر. «إلى أين تذهبين؟».

«لأفعل شيئًا لم أجرؤ على فعله حتى خرج كلاهما»، قالت صوفي. وأدارت المقبض المربع الكائن فوق الباب حتى أصبحت اللطخة السوداء نحو الأسفل، ثم فتحت الباب.

لم يكن في الخارج شيء. لم يكن أسود، ولا رماديًا ولا أبيض، لم يكن كتيمًا ولا شفافًا، ولم يتحرك، وليس له رائحة أو إحساس. وحين مدت إليه صوفي إصبعًا حذرة للغاية، لم يكن حارًا ولا باردًا، بل لم يكن شيئًا، وبدا أنه لا شيء تمامًا وكليًا.

«ما هذا؟»، سألت كالسيفر.

كان كالسيفر مهتمًا بقدر صوفي. ومال بوجهه الأزرق الطويل خارج سياج الموقد ليرى الباب، وقد نسي أمر الضباب. «لست أدري»، همس، «أنا أحافظ عليه فحسب. كل ما أعرفه أنه يقع على جانب القلعة الذي لا يمكن لأحد أن يمشي فيه. يبدو بعيدًا للغاية».

«كأنه أبعد من القمر!»، قالت صوفي. وأغلقت الباب وأدارت المقبض موجهة اللطخة الخضراء للأسفل. وترددت لحظة ثم أخذ تعرج نحو السلالم.

«لقد أقفلها»، قال كالسيفر. «قال لي أن أخبرك بذلك إن حاولت التطفل ثانية».

«أوه»، قالت صوفي. «وماذا عنده في الأعلى؟».

«لا أدري»، قال كالسيفر. «لا أعلم شيئًا عن الطابق العلوي. لو تعلمين كم يغيظني هذا! بل إني لا أستطيع رؤية خارج القلعة. أن أرى القليل لأعرف في أي اتجاه أسير».

جلست صوفي، التي اغتاظت مثله، وأخذت ترفو البدلة الرمادية القرمزية. ودخل مايكل بعد هذا بوقت قصير.

«لقد التقاني الملك في الحال»، قال. «إنه...» ونظر في أنحاء الغرفة. ووقعت عينه على الزاوية الفارغة حيث يكون الغيتار عادة. «أوه، كلا!»، قال. «ليست الصديقة ثانية! حسبتها وقعت في غرامه وانتهى الأمر منذ أيام. ما الذي يؤخرها؟».

اغتاظ كالسيفر بلؤم «لقد فسرت الإشارات تفسيرًا خاطئًا. فقد وجد هاول عديم القلب هذه السيدة صعبة قليلًا، فقرر تركها وشأنها بضعة أيام ليرى إن كان هذا سينجح. هذا كل ما في الأمر».

«مزعج!»، قال مايكل. «هذا يعني المتاعب. وأنا الذي كنت آمل أن هاول قد استعاد صوابه ثانية!».

خبطت صوفي البدلة على ركبتيها. «حقًا!»، قالت، «كيف لكما أن تتحدثا هكذا عن شر مطلق كهذا! لكني أرى أني لا ألوم كالسيفر على الأقل، فهو عفريت شرير. ولكن أنت يا مايكل!».

«لا أظنني شريرًا»، احتج كالسيفر.

«لكني لست مستاء من هذا، إن كان هذا رأيك»، قال مايكل. «لو علمت المتاعب التي عانيناها لأن هاول يواصل الوقوع في الحب هكذا! لدينا قضايا قانونية، وخاطبون يحملون أسلحة، وأمهات يحملن مرقاق العجين، وآباء وأعمام يحملون هراوات. والعمات، العمات رهيبات. إذ يلاحقنك حاملات دبابيس القبعات. غير أن الأسوأ أن تعرف الفتاة نفسها أين يسكن هاول وتقف بالباب، باكية بائسة. فيخرج هاول من الباب الخلفي ويتعين علينا أنا وكالسيفر أن نهتم بالأمر».

«أكره التعسات»، قال كالسيفر. «إنهن يقطرن علي، وأفضل أن يكنّ غاضبات».

«دعونا نوضح الأمر»، قالت صوفي وهي تضم قبضتيها المعجرتين لتغدوا حمراوين ناعمتين. «ما الذي يفعله هاول بهؤلاء الإناث المسكينات؟ قيل لي إنه يأكل قلوبهن ويخطف أرواحهن».

ضحك مايكل بلا ارتياح. «لا بد أنك قادمة من ماركت تشبنغ إذن. أرسلني هاول هناك لأشوه سمعته حين استقر المقام بالقلعة هنا في البداية. أنا..إه... وأنا من قال هذه الأمور. هذا ما تقوله العمات عادة. وهذا صحيح بصورة ما».

«هاول متقلب جدًا»، قال كالسيفر. «يدوم اهتمامه بالفتاة حتى تقع في حبه، ثم لا يبالي بها».

«لكنه لا يهنأ له بال حتى يجعلها تحبه»، قال مايكل متحمسًا. «ولا يمكنك أن تفهمي منه شيئًا حتى يوقعها في حبه. أتطلع دومًا للوقت الذي تقع فيه الفتاة في غرامه، إذ تتحسن الأمور حينئذ».

«حتى يبدأن بملاحقته»، قال كالسيفر.

«تحسبه عاقلًا فيعطيهن اسمًا زائفًا»، قالت صوفي مقرعة. كان تقريعها لتخفي حقيقة شعورها بالحمق نوعًا ما.

«أوه، إنه يفعل دومًا»، قال مايكل. «يهوى إعطاء الأسماء الكاذبة والتظاهر. ويفعل هذا وإن لم يكن يتودد إلى فتاة. ألم تلاحظي أنه

الراقي جنكن في پورتهڤن، والساحر پندراغن في كنغزبري، بالإضافة إلى هاول الرهيب في القلعة؟».

لم تلاحظ صوفي، وهذا ما أشعرها بالحمق أكثر. وأثار غضبها إحساسها بالحمق «حسن، ما زلت أرى الأمر شريرًا، الطواف وإتعاس الفتيات»، قالت. «هذه قسوة وتفاهة».

«لقد خلق هكذا»، قال كالسيفر.

سحب مايكل مقعدًا بثلاث قوائم قرب النار وجلس عليه وصوفي تخيط، مخبرًا إياها بانتصارات هاول والمتاعب التي حدثت بعدئذ. تذمرت صوفي من البدلة الجميلة، وما زالت تشعر بالحمق. «أنت آكلة القلوب إذن أيتها البدلة، ألست كذلك؟ لماذا تقول العمات أشياء غريبة جدًا حين يتحدثن عن بنات إخوتهن؟ لعلهن تخيلنك يا بدلتي الطيبة. ما شعورك حيال عمة غاضبة تلاحقك، ها؟»، حين أخبرها مايكل عن عمة بعينها في باله، خطر لصوفي أنها على الأرجح أقاويل أيضًا عن هاول وصلت إلى ماركت تشيبنغ بهذه الكلمات. وتخيلت فتاة صعبة المراس مثل لتي تهتم شديد الاهتمام بهاول وينتهي الأمر بتعاستها.

اقترح مايكل تناول الغداء وتذمر كالسيفر كعادته حين فتح هاول الباب ودخل، أكثر ضجرًا من ذي قبل.

«أتود تناول شيء؟»، قالت صوفي.

«كلا»، قال هاول. «ماء ساخن في الحمام يا كالسيفر». ووقف

لحظة بباب الحمام متجهمًا. «أيحتمل أنك رتبت رف الرُقى هذا يا صوفي؟».

أحست صوفي بمزيد من الحمق. ما كان لشيء أن يجبرها على الاعتراف بأنها مرت على كل العلب والجرار بحثًا عن أعضاء الفتيات. «لم ألمس شيئًا»، أجابت بورع لما مضت لجلب المقلاة.

«أرجو أنك لم تفعلي»، قال مايكل قلقًا حين صُفق باب الحمام.

سُمع من الحمام أصوات شطف وتدفق مياه أثناء إعداد صوفي للغداء.

«إنه يستخدم الكثير من الماء الساخن»، قال كالسيفر من تحت المقلاة. «أظنه يصبغ شعره. أرجو أنك تركت رُقى الشعر وشأنها. إنه شديد الغرور بمظهره، نظرًا لرجل له شعر بلون الطين».

«أوه، اخرس!»، وبّخته صوفي. «لقد أعدت كل شيء حيث وجدته!»، كانت حانقة جدًا فأفرغت مقلاة البيض واللحم المقدد على كالسيفر. فأكلها كالسيفر طبعًا بحماس هائل وكثير من الاضطرام والالتهام. فأعدت صوفي المزيد فوق اللهب المتقد، وأكلت هي ومايكل. كانا ينظفان الطاولة، وكالسيفر يمرر لسانه الأزرق حول شفتيه البنفسجيتين، حين انفتح باب الحمام بارتطام وصاح هاول، ناحبًا يائسًا.

«انظروا إلى هذا!»، صاح. «انظروا إليه! ما الذي فعلته قوى الفوضى في تلك المرأة بكل هذه الرقى؟».

استدار مايكل وصوفي ونظرا إلى هاول. كان شعره رطبًا، ولكن عدا عن ذلك، لم ير أي منهما فيه اختلافًا.

«إن كنت تقصدني...»، بدأت صوفي.

«إني لأعنيك! انظري!»، زعق هاول. جلس بخبطة على المقعد ثلاثي القوائم وخلل أصابعه في شعره الرطب. «انظري. تمعني. عايني. لقد تلف شعري! أبدو مثل مقلاة من البيض واللحم المقدد!».

انحنى مايكل وصوفي متوترين على رأس هاول. بدا لون الكتان المعتاد ممتدًا حتى الجذور، والفارق الوحيد قد يكون طفيفًا، طفيفًا جدًا، أثرًا من حمرة. رأت صوفي ذلك مقبولًا، إذ ذكّرها قليلًا بلون شعرها.

«أجده جميلًا»، قالت.

«جميل!»، صرخ هاول. «لا بد لك ذلك، فقد فعلته عامدة. لم يهنأ لك بال حتى تتعسيني أيضًا. انظري إليه! إنه بلون الزنجبيل! علي الاختباء حتى يزول!»، وبسط ذراعيه منفعلًا. «يأس!»، صاح، «وعذاب! ورعب!».

أضحت الغرفة معتمة، فقد تضخمت أشكال شبه بشرية هائلة قاتمة في الزوايا الأربع وتقدمت نحو صوفي ومايكل، تولول في تقدمها. بدأت الولولة مثل عويل فزع، ثم علت إلى نباح يائس، ثم علت ثانية لتغدو صيحات ألم وخوف. سدت صوفي أذنيها بيديها،

لكن الصراخ تخلل من بين يديها، أعلى فأعلى، وازداد فظاعة كل لحظة. انكمش كالسيفر على عجل في الموقد وخفق في طريقه تحت أدنى جذل. وجر مايكل صوفي من مرفقها وسحبها نحو الباب. ثم أدار المقبض موجهًا الأزرق للأسفل، وركل الباب ففتحه، وخرج كلاهما إلى الشارع في بورتهفن بأسرع ما استطاعا.

كان الصوت رهيبًا بقدر مماثل في الخارج. وقد فتحت الأبواب وخرج الناس يتراكضون واضعين أياديهم على آذانهم.

«أيتعين علينا تركه وحيدًا في تلك الحالة؟»، ارتعشت صوفي.

«أجل»، قال مايكل، «إن كان يظنها غلطتك، فلا بد لنا من الخروج».

أسرعا في البلدة، تلاحقهما الصرخات النابضة، وسار معهما جمع غفير. ورغم أن الضباب غدا رذاذًا بحريًا دافقًا، فإن الجميع تقدموا نحو الميناء أو الرمال، حيث كان الصوت أكثر احتمالًا. إذ ابتلعته قليلًا الرحابة الرمادية للبحر. وقف الجميع في جموع مبللة، ناظرين إلى الأفق الأبيض المغبش والحبال الراشحة على السفن الراسية حين غدا الصوت نشيجًا عملاقًا يفطر القلب. فكرت صوفي أنها ترى البحر للمرة الأولى في حياتها، ومؤسف أنها لم تستمتع به أكثر.

همد النشيج ليغدو تنهيدات بائسة ثم صمتًا، فأخذ الناس يعودون حذرين إلى البلدة، وتقدم بعضهم بخوف من صوفي.

«أيعاني الراقي المسكين خطبًا أيتها السيدة الساحرة؟».

«إنه تعس قليلًا اليوم»، قال مايكل. «هيا، أظننا نستطيع المجازفة بالعودة».

وأثناء سيرهما قرب حافة الرصيف الحجري، صاح بهما عدد من البحارة من السفن الراسية قلقين، يودون معرفة إن كان الصوت يعني العواصف أو الحظ السيء.

«أبدًا»، قالت صوفي، «انتهى الأمر الآن».

لكنه لم ينتهِ. عادا إلى بيت الساحر، الذي بدا من الخارج مبنى عاديًا مائلًا بعض الشيء ولولا أن كان مايكل مع صوفي لما عرفته، وفتح مايكل الباب المتداعي بحذر. وفي الداخل لم يزل هاول جالسًا على المقعد، بهيئة القانط تمامًا، وقد غطاه لزاج أخضر سميك.

ثمة كمية مريعة فظيعة رهيبة من اللزاج الأخضر، أطنان منه. وقد غطى هاول تمامًا، ونز من رأسه وكتفيه في قطرات لزجة، تتكوم على ركبتيه ويديه، وتسيل أسفل ساقيه عجينة، وترشح من المقعد في سيول لزجة. كانت في بِرَك مبقبقة وبحيرات زاحفة غطت جل الأرضية. وتسللت أصابع طويلة منه إلى المصطلى، وفاحت منه رائحة نتنة.

«أنقذاني!» قال كالسيفر في همس أجش. كان شبه خامد في لهبين خافقين صغيرين جدًا. «سيطفئني هذا الشيء!».

رفعت صوفي تنورتها وتقدمت نحو هاول بأقرب ما استطاعت، لكنها لم تقترب كثيرًا. «توقف!»، قالت. «كف في الحال! إنك تتصرف كالأطفال!».

لم يتحرك هاول أو يرد. وحلق وجهه من خلف اللزاج، شاحبًا حزينًا واسع العينين.

«ماذا نفعل؟ أهو ميت؟»، سأل مايكل مرتجفًا في الزاوية.

قالت صوفي في نفسها إن مايكل فتى لطيف، لكنه عديم الفائدة في المآزق. «كلا، ليس ميتًا طبعًا»، قالت. «ولولا كالسيفر، لتركته يتصرف مثل إنقليس هلامي طوال اليوم ولن أبالي! افتح باب الحمام».

حين شق مايكل طريقه بين برك اللزاج نحو الحمام، ألقت صوفي مئزرها على المصطلى لتمنع وصول المزيد منه إلى كالسيفر وامتشقت الرفش. وغرفت حملًا من الرماد وألقته في أكبر برك اللزاج، فهسهست بقوة. امتلأت الغرفة بالبخار وغدت رائحتها أفظع من ذي قبل. فشمرت صوفي كميها، وأحنت ظهرها لترفع مقدارًا من ركبتي الساحر اللزجتين، ثم دفعت هاول بمقعده وكل شيء نحو الحمام. انزلقت قدماها وتعثرت باللزاج، لكن الرشح ساعد في تحريك المقعد. خرج مايكل وسحب هاول من كمّيه اللذين يقطر منهما اللزاج. ودحرجاه معًا إلى الحمام، وهناك، أدخلا هاول إلى مقصورة الاستحمام، إذ رفض أن يتحرك.

«ماء ساخن يا كالسيفر!»، لهثت صوفي عابسة. «ساخن جدًّا».

استغرق إزالة اللزاج عن هاول ساعة، واحتاج مايكل ساعة أخرى لإقناع هاول بالنهوض عن المقعد ولبس ثياب جافة. لحسن الحظ أن البدلة الرمادية والقرمزية التي رفتها صوفي كانت ملقاة على

ظهر الكرسي، بعيدًا عن اللزاج، فقد تلفت البدلة الزرقاء الفضية. قالت صوفي لمايكل أن يضعها في الحوض وينقعها. عندئذ، جلبت، وهي تدمدم وتتذمر، مزيدًا من الماء الساخن. وأدارت مقبض الباب موجهة الأخضر للأسفل وجرفت كل اللزاج إلى الخارج على السباخ. تركت القلعة أثرًا كأثر الحلزون في الخلنج، لكنها طريقة سهلة للتخلص من اللزاج. كان للعيش في قلعة متحركة بعض المزايا، هذا ما خطر لصوفي وهي تغسل الأرضية. وتساءلت إن كانت أصوات هاول تنبعث من القلعة أيضًا. وفي هذه الحال أشفقت صوفي على أهل ماركت تشيبنغ.

كانت صوفي بعدئذ متعبة وشكسة. فقد عرفت أن اللزاج الأخضر انتقام هاول منها، ولم تكن مستعدة أبدًا لتبدي تعاطفًا حين أخرج مايكل هاول من الحمام أخيرًا، وهو يلبس البدلة الرمادية والقرمزية، وأجلسه برفق على الكرسي قرب المصطلى.

«كان هذا غباءً تامًا!»، بقبق كالسيفر. «أكنت تحاول التخلص من أفضل جزء من سحرك أو شيئ من هذا القبيل؟».

لم يعبأ هاول، بل جلس مبديًا الحزن مرتجفًا.

«لا أستطيع جعله يتكلم!»، همس مايكل تعسًا.

«إنها نوبة غضب ليس إلا»، قالت صوفي. كانت مارثا ولتي تحسنان المرور بنوبات غضب أيضًا، وعرفت ماذا تفعل أثناءها. من جانب آخر، كان صفع الساحر لأنه جن جنونه بسبب شعره أمرًا خطرًا. على أية حال، أدركت صوفي بحكم تجربتها أن النوبات

نادرًا ما تنبع من الأمر الذي يبدو هكذا ظاهريًا. وجعلت كالسيفر يتحرك لتضع كفتًا من الحليب على الجذول. ولما غدا دافئًا، وضعت كوبًا منه بين يدي هاول. «اشرب»، قالت، «والآن ما سبب كل هذه الجلبة؟ أهي الشابة التي تواصل لقاءها؟».

رشف هاول الحليب ناعسًا. «أجل»، قال، «تركتها وشأنها لأرى إن كانت ستتذكرني بحب، لكن هذا لم يحدث. لم تكن واثقة حتى لما رأيتها آخر مرة. وها هي تخبرني الآن بوجود شاب آخر».

بدا تعسًا للغاية فأشفقت عليه صوفي. لقد جف شعره، ولاحظت وهي تحس بالذنب، أنه يكاد يكون زهريًا.

«إنها أجمل فتاة رأيتها في هذه الأنحاء»، واصل هاول حديثه حزينًا، «إنني أحبها حبًا جمًا، لكنها تسخر من إخلاصي الكبير وتأسف لوجود شاب آخر. كيف لها أن تحب شابًا آخر بعد كل هذا الاهتمام الذي منحتها إياه؟ إنهن يتخلصن عادة من أي شاب آخر لدى ظهوري».

تقلص عطف صوفي بحدة. وخطر لها أنه إذا استطاع هاول أن يغطي نفسه باللزاج الأخضر بهذه السهولة، فإن بوسعه بالسهولة نفسها أن يغير شعره إلى لون لائق. «لماذا لا تطعم الفتاة رقية حب وتنهي الأمر معها؟»، سألت.

«أوه، كلا»، قال هاول، «لا تُلعب اللعبة هكذا، فهذا يفسد كل المتعة».

تقلص عطف صوفي ثانية. «إنها لعبة، أليس كذلك؟ ألا تفكر بأمر الفتاة المسكينة؟»، قالت موبخة.

أنهى هاول شرب الحليب وحدق بالكوب بابتسامة عاطفية. «إنني أفكر بها طوال الوقت»، قال، «الحبيبة الحبيبة لتي هاتر».

وتلاشى عطف صوفي تمامًا بخبطة حادة. وحل محله مقدار عظيم من القلق. قالت في نفسها أوه مارثا! لقد كنت مشغولة! لم يكن من تتكلمين عنه أحد من مخبز سيسري إذن!

الفصل السابع

وفيه تمنع الفزاعة صوفي من مغادرة القلعة

لم يمنع صوفي من الذهاب إلى ماركت تشيپنغ ذلك المساء إلا هجمة من الآلام والأوجاع. لكن الرذاذ في پورتهڤن قد تسلل إلى عظامها، واضطجعت في حجيرتها وتوجعت وقلقت على مارثا. وقالت في نفسها لعل ذلك ليس بالغ السوء، عليها فقط أن تخبر مارثا أن الخاطب الذي لم تكن واثقة من أمره ليس إلا الساحر هاول، وسيخيف هذا مارثا. كما ستخبرها أن طريقة إخافة هاول بأن تقول إنها واقعة في غرامه، ثم أن تهدده بالعمات ربما.

لم تزل صوفي تطقطق حين نهضت الصباح التالي. «اللعنة على ساحرة اليباب!» اشتكت لعصاها حين أخرجتها استعدادًا للمغادرة. وتناهى إليها غناء هاول من الحمام كأنه لم يمر بنوبة في حياته، وتسللت بهدوء إلى الباب بأسرع ما مكّنها عرجها.

خرج هاول من الحمام قبل أن تصل الباب طبعًا، فنظرت إليه صوفي حانقة. كان متأنقًا حيويًا، يضوع منه شذى زهر التفاح برقة. ولمع ضياء الشمس المتسلل من النافذة على بدلته الرمادية القرمزية

وصنع هالة زهرية فاتحة تطوق شعره. «أحسب أن شعري جميل بهذا اللون»، قال.

«أحقًا؟»، قالت صوفي نزقة.

«إنه يتماشى مع البدلة»، قال هاول. «إنك بارعة في أشغال الإبرة، صحيح؟ لقد أضفيت على هذه البدلة المزيد من الأناقة».

«هَه!»، قالت صوفي.

وقف هاول واضعًا يده على المقبض الكائن أعلى الباب. «أتتعبك الآلام والأوجاع؟»، قال. «أم ساءك أمر ما؟».

«ساءني؟»، قالت صوفي. «ولِمَ يسوؤني؟ لقد ملأ أحدهم القلعة بهلام نتن فقط، وأصاب بالصمم كل مَن في پورتهڤن، وأخاف كالسيفر حتى غدا جمرة، وحطم بضع مئة قلب. فلمَ يسوؤني ذلك؟».

ضحك هاول «أعتذر»، قال مديرًا المقبض موجّهًا الأحمر للأسفل. «يود الملك رؤيتي اليوم، وسأقضي وقتي منتظرًا في القصر حتى المساء غالبًا، لكني أستطيع علاج رئيتك حين عودتي. لا تنسي أن تخبري مايكل أنني تركت له تلك الرقية على الطاولة». وابتسم لصوفي مرحًا وخرج إلى أبراج كنغزبري.

«وتحسب هذا يجعل كل شيء على ما يرام!»، دمدمت صوفي حين انغلق الباب. لكن الابتسامة قد هدّأتها «إن كانت تلك الابتسامة قد هدأتني، فلا عجب إذن أن تنتاب الحيرة مارثا المسكينة!»، غمغمت.

«أحتاج جذلًا آخر قبل ذهابك»، ذكّرها كالسيفر.

عرجت صوفي لتلقي في الموقد بجذل آخر، ثم مضت نحو الباب ثانية، لكن مايكل حينئذ جاء نازلًا السلالم واختطف بقايا رغيف الخبز من فوق الطاولة وهو يركض نحو الباب. «لست تمانعين، أليس كذلك؟»، قال قلقًا. «سأجلب رغيفًا طازجًا لدى عودتي. عندي أمر طارئ علي الاهتمام به اليوم. وإن جاء قبطان البحر طلبًا لرقية الريح، فهي على الطاولة عليها علامة واضحة». وأدار مقبض الباب موجهًا الأخضر للأسفل، وخرج إلى التلال شديدة الرياح والرغيف مربوط على بطنه. «إلى اللقاء!»، صاح حين تحولت القلعة بعيدًا عنه وانصفق الباب.

«إزعاج!»، قالت صوفي. «كيف للمرء أن يفتح الباب إن لم يكن في القلعة أحد يا كالسيفر؟».

«سأفتحه أنا لك أو لمايكل، أما هاول فيفتحه بنفسه»، قال كالسيفر.

لن يبقى أحد خارج القلعة حين غادرت صوفي. ولم تكن واثقة كل الثقة من عودتها، لكنها لم تشأ إخبار كالسيفر. ومنحت مايكل وقتًا ليقطع شطرًا من طريقه أنّى كان وتقدمت نحو الباب ثانية، غير أن كالسيفر أوقفها هذه المرة.

«إن كنت ستطيلين الغياب، فلعلك تدنين مني بعض الجذول فأستطيع تناولها»، قال.

«أيمكنك حمل الجذول؟»، سألت صوفي متعجبة رغم برمها.

وليجيبها مد كالسيفر لهبًا أزرق على هيئة ذراع تتفرع منه شعلات تشبه الأصابع في نهايتها. لم يكن بالطويل جدًا، ولا بدا قويًا جدًا. «أترين؟ بوسعي بلوغ المصطلى»، قال متفاخرًا.

كدست صوفي كومة من الجذول أمام سياج الموقد ليستطيع كالسيفر تناول العلوية منها. «لا تشعلها ما لم تضعها في الموقد»، قالت محذرة وتقدمت نحو الباب ثانية.

عندئذ قرع أحد الباب قبل أن تبلغه.

قالت صوفي في نفسها إنه أحد الأيام المزعجة. لا بد أنه قبطان البحر، فمدت يدها لتدير المقبض الأزرق نحو الأسفل.

«كلا، هذا باب القلعة»، قال كالسيفر «ولكني لست واثقًا ...».

حسبت صوفي وهي تفتح الباب أن مايكل عاد لسبب ما.

نظر إليها وجه ملفوف شزرًا، إذ فاحت منها رائحة عطنة. وتحت السماء الشاسعة الزرقاء، ذراع مكسوة بالخرق تنتهي في وسط عصا تدور وتحاول إمساكها. إنها الفزاعة، ولم تكن مصنوعة إلا من العصي والخرق، لكنها حية وتحاول الدخول.

«اجعل القلعة تسير أسرع يا كالسيفر!»، صرخت صوفي.

جرشت الآجرات الحجرية المحيطة بالباب وسحقت، وأخذت الأرض البنية المخضرة فجأة تندفع للوراء. وخبطت ذراع الفزاعة الخشبية على الباب، ثم مضت تخرمش جدار القلعة حين تركتها

القلعة خلفها. فلفت ذراعها الأخرى محاولة التشبث بالحجر، وعزمت على دخول القلعة إن استطاعت.

صفقت صوفي الباب. وظنت أن هذا أمر يظهر غباء سعي البنت البكر وراء حظها! كانت هذه الفزاعة التي نصبتها في الوشيع ومازحتها في طريقها إلى القلعة. وأعاد مزاحها حياة الشر إليها، فتبعتها طوال الطريق إلى هنا وحاولت تلمس وجهها. فركضت نحو النافذة لترى إن كان الشيء لم يزل يحاول دخول القلعة.

كل ما استطاعت رؤيته طبعًا هو النهار المشمس في پورتهڤن، واثني عشر شراعًا تعلو اثنتي عشرة صارية خلف السطوح المقابلة، وغيمة من نوارس البحر في السماء الزرقاء.

«هذه مشكلة الوجود في عدة أماكن في وقت واحد!»، قالت للجمجمة البشرية الموضوعة على الطاولة.

ثم، فجأة، تذكرت العيب الحقيقي لكونها امرأة مسنة. فقد قفز قلبها واضطرب قليلًا، ثم بدا أنه يحاول أن ينبض طريقه خارج صدرها، وهذا مؤلم، فارتعشت أوصالها وارتجفت ركبتاها، وظنت أنها تحتضر، وكل ما استطاعت فعله الوصول إلى الكرسي قرب المصطلى. فجلست هناك لاهثة، ممسكة بصدرها.

«أمن خطب؟»، سأل كالسيفر.

«أجل، قلبي. بالباب فزاعة!»، قالت صوفي لاهثة.

«وما علاقة الفزاعة بقلبك؟»، سأل كالسيفر.

«كانت تحاول الدخول، وأخافتني خوفًا فظيعًا. وقلبي.. لكنك لن تفهم، أيها العفريت الصغير السخيف!»، قالت صوفي لاهثة، «فليس لك قلب».

«بلى لدي»، قال كالسيفر متفاخرًا بقدر فخره لدى عرضه ذراعه. «في الأسفل في الجزء المتوهج تحت الجذول. ولا تصفيني بالصغير، فإني أكبرك بملايين السنوات! أأستطيع تخفيف سرعة القلعة الآن؟».

«إن رحلت الفزاعة فقط. هل رحلت؟»، قالت صوفي.

«لا أدري»، قال كالسيفر. «إنها ليست من لحم ودم كما تعرفين. وأخبرتك أني لا أستطيع النظر خارجًا».

نهضت صوفي وجرجرت نفسها نحو الباب ثانية، وهي تشعر بالتعب. ففتحته بهدوء وحذر. منحدر أخضر وصخور ومنعطفات بنفسجية تدوم في الوراء، أشعرتها بالدوار، لكنها تمسكت بإطار الباب ومالت للخارج لتنظر إلى الجدار المطل على السباخ التي يخلفونها وراءهم. كانت الفزاعة على مبعدة خمسين ياردة، وتقفز من أجمة إلى دغل خلنج ببسالة منحوسة، مادة ذراعيها العصوين خفاقتين في ميل خفيف لتتوازن على التلال. وخلفتها القلعة وراءها وصوفي تراقب، وكانت بطيئة لكنها لم تزل تتبعهم، فأغلقت صوفي الباب.

«ما زالت هناك، تقفز خلفنا. أسرع»، قالت.

«لكن هذا يربك حساباتي»، قال كالسيفر مفسرًا. «كنت أنوي

الطواف حول التلال والعودة إلى حيث تركنا مايكل لنأخذه هذا المساء».

«فأسرع ضعفين وطف التلال مرتين، بأسرع ما تستطيع لتسبق هذا الشيء المريع!»، قالت صوفي.

«يا للجلبة!»، تذمر كالسيفر، لكنه زاد سرعة القلعة. وأحست صوفي فعلًا، للمرة الأولى، بالاهتزاز من حولها حين تهاوت على كرسيها متسائلة إن كانت تحتضر. لم ترد الموت بعد، قبل أن تتكلم مع مارثا.

وأخذ كل شيء في القلعة يرتج من حركتها طيلة النهار. فصلصلت الزجاجات، واصطكت أسنان الجمجمة على الطاولة. وسمعت صوفي سقوط الأشياء من الرف في الحمام وطرطشتها في الحوض حيث نقعت بدلة هاول الفضية الزرقاء. وأخذت تشعر بتحسن طفيف وجرجرت نفسها نحو الباب ثانية وأطلّت، وشعرها تطيّره الريح. ما زالت الأرض تحت القلعة تنساب للوراء، وبدت التلال تدور ببطء والقلعة تسرع عبرها. وكاد الجرش والارتجاج يصيبها بالصمم، والدخان ينبعث خلفهم في نفثات لكن الفزاعة كانت نقطة سوداء صغيرة على منحدر بعيد حينئذ، ثم توارت عن الأنظار تمامًا لما نظرت بعد ذلك.

«جيد، سأتوقف لقضاء الليلة إذن. لقد كان هذا مجهدًا»، قال كالسيفر.

تلاشى الاهتزاز، وكفّت الأشياء عن الارتجاج. وخلد كالسيفر

للنوم، كما تفعل النار، خامدًا بين الجذول حتى أضحت إسطوانات محمرة يكسوها الرماد الأبيض، وأثرًا في الأسفل من لهب أزرق مخضر.

أحست صوفي بالنشاط مرة أخرى، فذهبت وأخرجت ست علب وزجاجة من الماء اللزج في الحوض. كانت العلب مبلولة، ولم تجرؤ صوفي على تركها هكذا بعد ما حدث البارحة، فوضعتها على الأرض، وبحذر، ذرّت عليها المادة التي كتب عليها قدرة التجفيف. فجفت في الحال، فشجّعها هذا وصرفت صوفي الماء من الحوض وجربت القدرة على بدلة هاول، فجفت من فورها. ما زالت مبقعة بالأخضر وبدت أصغر مما كانت عليه، ولكن صوفي فرحت لأنها استطاعت فعل شيء كما يجب.

كانت مسرورة جدًا فأشغلت نفسها بإعداد العشاء، وكوّمت كل ما على الطاولة حول الجمجمة في طرف وأخذت تقطّع البصل. «إن عينيك لا تدمعان يا صديقتي. فعددي نعمك»، قالت للجمجمة.

انصفق الباب وانفتح.

كادت صوفي أن تجرح نفسها خوفًا، ظانة أنها الفزاعة ثانية. لكنه مايكل، إذ دخل جذلًا. وألقى برغيف وفطيرة وصندوق مخطط باللونين الأبيض والزهري فوق البصل. ثم أمسك بصوفي من معصمها النحيل وراقصها في أنحاء الغرفة.

«كل شيء على ما يرام! كل شيء على ما يرام!»، صاح فرحًا.

قفزت صوفي وتعثرت لتبتعد عن حذاء مايكل. «رويدك،

رويدك!»، قالت لاهثة دائخة تحاول إبعاد السكين كيلا تجرح أحدهما. «ما الذي على ما يرام؟».

«لتي تحبني!»، صاح مايكل، مراقصًا إياها في الحمام تقريبًا ثم في المصطلى. «بل إنها لم تلتقِ قط بهاول! الأمر كله خطأ!»، ودارا سوية وسط الغرفة.

«هلا تركتني قبل أن تجرح هذه السكين أحدنا؟!»، زعقت صوفي، «ولعلك تشرح لي قليلًا».

«وي-أوپ!»، صاح مايكل، ودار بصوفي إلى الكرسي ثم ألقى بها إليه حيث جلست لاهثة. «ليلة البارحة تمنيت أنك صبغتِ شعره باللون الأزرق!»، قال. «لست أبالي الآن. حين قال هاول «لتي هاتر» فكرت بصبغ شعره بالأزرق بنفسي. تعرفين أسلوبه في الحديث. لقد علمت أنه سيتخلى عن هذه الفتاة، حالما يجعلها تحبه، مثلما فعل بالأخريات كلهن. وحين ظننت الفتاة لتي، أنا... على أية حال، تعرفين أنه قال ثمة شخص آخر، وظننته أنا! لذا هرعت إلى ماركت تشيپنغ اليوم. وكان كل شيء على ما يرام! لا بد أن هاول يسعى وراء فتاة أخرى لها الاسم نفسه، فلتي لم تلتقه قط».

«لنوضح الأمر»، قالت صوفي دائخة، «نحن نتحدث عن لتي هاتر التي تعمل في مخبز سيسري للمعجنات، صحيح؟».

«طبعًا!»، قال مايكل نشوان، «أحببتها منذ بدأت العمل هناك، ولم أصدق الأمر حين قالت إنها تحبني، فلديها مئات المعجبين، ولو

كان هاول أحدهم لما تعجبت. أشعر بالارتياح الشديد! جلبت لك كيكة من مخبز سيسري لنحتفل. أين وضعتها؟ أوه، ها هي ذي».

وألقى إلى صوفي بالصندوق المخطط بالزهري والأبيض، وتساقط البصل منه على حجرها.

«كم عمرك يا صغيري؟»، سألت صوفي.

«بلغت الخامسة عشرة يوم مايو الماضي»، قال مايكل. «أطلق كالسيفر ألعابًا نارية من القلعة، ألم تفعل يا كالسيفر؟ أوه، إنه نائم. لعلك تظنينني صغيرًا على الخطبة -لم يزل أمامي ثلاث سنوات من التدريب، وأمام لتي سنوات أطول- لكننا تبادلنا الوعود، ولا نمانع في الانتظار».

فقالت صوفي في نفسها إن مايكل في عمر يناسب مارثا. وقد عرفت حتى الآن أنه فتى لطيف مستقيم سيمتهن السحر مستقبلًا. بورك قلب مارثا! حين عادت بذاكرتها إلى يوم مايو الغريب ذاك، أدركت أن مايكل كان واحدًا من جمع الهاتفين المستندين على المنضدة أمام مارثا. لكن هاول كان في الخارج في ماركت سكوير.

«أواثق أنت أن لتي صادقة في شأن هاول؟»، سألت في قلق.

«كل الثقة. أعرف متى تكذب، إذ تكف عن لفّ إبهاميها»، قال مايكل.

«إنها تفعل أيضًا!»، قالت صوفي ضاحكة.

«وأنى لك أن تعرفي؟»، سأل مايكل دهشًا.

«لأنها أختـ... حفيدة أختي»، قالت صوفي، «وفي صغرها لم تكن صادقة تمامًا. لكنها صغيرة جدًا وإه... حسن، أحسب أنها تغيرت حين كبرت. قد لا يكون لها الهيئة نفسها بعد سنة أو نحوها».

«وأنا أيضًا. الناس من أعمارنا يتغيرون طيلة الوقت. ولن يحزننا هذا، إذ ستظل لتي»، قالت مايكل.

بصورة ما، قالت صوفي في نفسها. «ولكن لنقل إنها تقول الحق، وإنها عرفت هاول باسم زائف؟»، واصلت حديثها قلقة.

«لا تقلقي، فكرت بهذا!»، قال مايكل. «وصفت لها هاول -لا بد أن تعترفي أنه مميز جدًا- ولكنها لم تره ولا غيتاره اللعين. لم أحتج أن أخبرها أنه لا يجيد العزف عليه، إذ لم تقع عيناها قط عليه، وقد لفت إبهاميها طيلة الوقت وهي تقول إنها لم تره».

«هذا مريح!»، قالت صوفي، مضطجعة بتخشب في كرسيها. وكان أمر مارثا مريحًا قطعًا، لكنه ليس مريحًا جدًا، لأن صوفي واثقة أن لتي هاتر الوحيدة الأخرى في المقاطعة هي الحقيقية. ولو كان ثمة أخرى، لدخل أحدهم متجر القبعات وثرثر عن الأمر. كأنما لتي صعبة المراس لم تستجب لهاول، غير أن ما أثار قلق صوفي أن لتي أخبرت هاول باسمها الحقيقي. لعلها لم تكن واثقة من شعورها حياله، لكنها أعجبت به لتأتمنه على سر مهم كهذا.

«لا تقلقي كثيرًا!»، ضحك مايكل مستندًا على ظهر الكرسي. «انظري إلى الكيكة التي جلبتها لك».

وحين بدأت صوفي تفتح الصندوق، خطر لها أن مايكل تحوّل

من اعتبارها كارثة طبيعية إلى حبها حقًا. كانت فائقة السرور والامتنان فقررت أن تخبر مايكل الحقيقة الكاملة عن لتي ومارثا بنفسها أيضًا، فمن العدل أن يعرف أي عائلة ينوي الزواج بابنتها. انفتح الصندوق، وكانت أشهى كيكات مخبز سيسري، تغطيها الكريمة وحبات الكرز والقليل من لفافات الشوكولاته. «أوه!»، قالت صوفي.

نقر المقبض المربع الكائن فوق الباب لتتجه اللطخة الحمراء إلى الأسفل من تلقاء نفسها ودخل هاول. «يا لها من كيكة مذهلة! هذه المفضلة عندي. من أين أتيت بها؟»، قال.

«أنا... إه... لقد ذهبت إلى مخبز سيسري»، قال مايكل بخوف وخجل. رفعت صوفي نظرها إلى هاول، وكلما أرادت أن تقول إنها واقعة تحت تأثير رقية حال شيء بينها وبين ذلك، حتى الساحر.

«يبدو أنها تستحق العناء»، قال هاول معاينًا الكيكة. «سمعت أن مخبز سيسري أفضل من أي مخبز للكيك في كنغزبري. غباء مني أني لم أذهب قط إلى المكان. أفطيرة ما أرى على الطاولة؟»، وتقدم ليلقي نظرة. «فطيرة فوق طبقة من البصل النيء، وجمجمة بشرية تبدو مضطهدة». حمل الجمجمة وأزال حلقة بصل من محجر عينها. «أرى أن صوفي انشغلت ثانية. أما استطعت كبحها يا صديقتي؟»

اصطكت أسنان الجمجمة، فدهش هاول ووضعها جانبًا بسرعة.

«أيقلقك خطب؟»، سأل مايكل، كأنه أدرك الإشارات.

«أجل»، قال هاول. «عليّ العثور على أحد يشوه سمعتي لدى الملك».

«أمن عيب في رقية العربة؟»، قال مايكل.

«كلا. لقد نجحت تمامًا، وهذه هي المشكلة»، قال هاول بضيق وهو يدوّر حلقة بصل على إحدى أصابعه. «إن الملك يحاول إجباري على فعل شيء آخر الآن. إن لم نكن شديدي الحذر يا كالسيفر، فسيعينني ساحر البلاط». لم يجب كالسيفر، وتراجع هاول إلى ناحية الموقد فأدرك أن كالسيفر نائم. «أيقظه يا مايكل. أحتاج التشاور معه»، قال.

ألقى مايكل جذلين على كالسيفر وناداه، فلم يحدث شيء باستثناء عمود رفيع من الدخان.

«كالسيفر!»، صاح هاول، لكن هذا لم يجدِ نفعًا أيضًا. نظر هاول إلى مايكل نظرة محيرة ورفع المسعر، وهو أمر لم تره صوفي يفعله قبلًا. «آسف يا كالسيفر»، قال وهو ينخسه تحت الجذول غير المحترقة. «استيقظ!».

فالتفت غيمة كثيفة سوداء من الدخان وتوقفت. «ابتعد»، تذمر كالسيفر، «إنني متعب».

حينئذ بدا هاول خائفًا للغاية. «ما خطبه؟ لم أعهده هكذا من قبل!».

«أحسب أنها الفزاعة»، قالت صوفي.

دار هاول على ركبتيه وسدد إليها نظرته الزجاجية كالبلى. «ما الذي فعلته؟»، واستمر في التحديق أثناء شرح صوفي. «فزاعة؟»، قال، «أوافق كالسيفر على زيادة سرعة القلعة بسبب فزاعة؟ عزيزتي صوفي، أخبريني من فضلك كيف تجبرت على عفريت النار ليصبح خاضعًا هكذا. أود أن أعرف بشدة!».

«لم أتجبر عليه»، قالت صوفي، «لقد أثارت خوفي فأشفق علي».

«أثارت خوفها وأشفق كالسيفر عليها»، كرر هاول. «عزيزتي صوفي، إن كالسيفر لا يشفق على أحد أبدًا. على أية حال، أرجو أن تستمتعي بالبصل النيء والفطيرة الباردة عشاء لك، لأنك أخمدت كالسيفر تقريبًا».

«لدينا الكيكة»، قال مايكل محاولًا إرساء السلام.

حسّن الطعام مزاج هاول، رغم أنه ظل يلقي نظرات قلقة على الجذول غير المحترقة في المصطلى طوال تناولهم الطعام. كانت الفطيرة باردة جدًا، والبصل لذيذ حين نقعته صوفي بالخل، أما الكيكة فكانت بديعة. وأثناء تناولهم لها، جازف مايكل بسؤال هاول عما أراده الملك.

«لا شيء محدد بعد»، قال هاول متجهمًا. «لكنه كان يحدثني عن أخيه، وهذا نذير شؤم. يبدو أنهما تشاجرا شجارًا قديمًا قبل اختفاء الأمير جستن، والناس يتكلمون. لا بد أن الملك أرادني أن أتطوع للبحث عن أخيه. ومثل أحمق ذهبت وقلت له إنني لا أظن الساحر سولمن ميتًا وهذا ما زاد الأمر سوءًا».

«ولماذا تود التملص من البحث عن الأمير؟»، سألت صوفي. «ألا تظن أنك تستطيع العثور عليه؟».

«إنك وقحة متسلطة، ألست كذلك؟»، قال هاول، فما زال لم يغفر لها ما فعلته بكالسيفر. «أود التملص من الأمر لأني أعلم أني أستطيع العثور عليه، إن كان يجب أن تعرفي. كان جستن صديقًا حميمًا لسولمن، وسبب الخلاف أنه أخبر الملك أنه ذاهب للبحث عنه. إذ لم يحسب أن الملك قد أرسل سولمن إلى أرض اليباب في المقام الأول. والآن، إن كان لا بد أن تعرفي فثمة سيدة في اليباب شريرة للغاية. لقد توعدتني أن تقليني حيًا العام الماضي، وأرسلت لعنة خلفي تفاديتها حتى الآن لأني كنت عاقلًا فأعطيتها اسمًا مزيفًا».

فذعرت صوفي «أتعني أنك هجرت ساحرة اليباب؟».

قطع هاول لنفسه قطعة أخرى من الكيكة، مبديًا الحزن والوقار. «لا يقال الأمر هكذا. أعترف أني ظننتني متيمًا بها لبعض الوقت. إنها سيدة شديدة الحزن بصورة ما، ومكروهة جدًا. كل رجل في إنغري يخاف منها إلى الموت. أنت تفهمين هذا الإحساس يا عزيزتي صوفي».

انفتح فم صوفي في ازدراء مطلق، فقال مايكل بسرعة «أتحسب أن علينا تحريك القلعة؟ لقد اخترعتها لهذا السبب، أليس كذلك؟».

«هذا يعتمد على كالسيفر»، نظر هاول إلى الوراء إلى الجذول التي لا يعلو منها الدخان. «علي القول، إن كان الملك والساحرة

يلاحقاني، فإن عندي توقًا شديدًا في تثبيت القلعة على صخرة كالحة لطيفة على مبعدة آلاف الأميال».

تمنى مايكل لو [illegible] يتكلم. وأدركت صوفي أنه خطر له أن آلاف الأميال مسافة بعيدة للغاية عن مارثا. «ولكن ماذا يحدث لفتاتك لتي»، قالت لهاول، «إن عزمت رأيك وانتقلت؟».

«أحسب أن هذا سينتهي عندئذ»، قال هاول شارد الذهن. «ولكن إن استطعت التفكير بطريقة أزيح بها الملك عن طريقي... وجدتها!»، رفع شوكته، وعليها كتلة ذائبة من الكريمة والكيك، وأشار بها إلى صوفي. «يمكنك تشويه سمعتي لدى الملك. يمكنك أن تتظاهري بأنك أمي العجوز وتستعطفيه من أجل فتاك أزرق العينين». ابتسم لصوفي ابتسامة فتنت ساحرة اليباب ولتي أيضًا، مصوبًا إياها من فوق الشوكة وعبر الكريمة إلى عيني صوفي مباشرة، تصويبة مدوخة. «ما دمت تجبرت على كالسيفر، فلن تجدي مشقة مع الملك».

نظرت صوفي خلال البريق ولم تقل شيئًا. قالت في نفسها إن هذا حيث تتملص هي، إذ كانت راحلة، وهذا سيء للغاية في ما يخص عقد كالسيفر، فقد طفح بها الكيل من هاول. اللزاج الأخضر أولًا، ثم الحملقة بها لأجل شيء فعله كالسيفر بمطلق إرادته، وهذا الأمر الآن! ستتسلل غدًا إلى أبر فولدنغ وتخبر لتي بكل شيء.

الفصل الثامن

وفيه صوفي تغادر القلعة في اتجاهات عديدة في آن معًا

أحست صوفي بالارتياح لدى رؤية كالسيفر يتوهج نشطًا مرحًا الصباح التالي ولو لم يطفح بها الكيل من هاول، لتأثرت بسعادة هاول لرؤية كالسيفر. «حسبتها أخمدتك يا كرة الغاز العجوز»، قال هاول جاثيًا قرب المصطلى وكلاه يخوضان في الرماد.

«كنت متعبًا فحسب»، قال كالسيفر، «شيء ما أعاق حركة القلعة. لم يسبق لي أن حركتها بهذه السرعة».

«حسن، لا تجعلها تجبرك على فعل ذلك ثانية»، قال هاول. ووقف، نافضًا الرماد بأناقة عن بدلته ذات اللونين الرمادي والقرمزي. «ابدأ العمل على تلك الرقية اليوم يا مايكل. وإن جاء أحد من طرف الملك، فأخبره أني خرجت في أمر طارئ خاص حتى غدٍ. سأذهب لرؤية لتي، ولكن لا داعي لتقول هذا». وحمل غيتاره وفتح الباب، وقد أدار المقبض موجهًا اللطخة الخضراء للأسفل، على التلال الرحبة الغائمة.

عادت الفزاعة ثانية. وحين فتح هاول الباب، ارتمت عليه مائلة

ووجه الملفوف على صدره. وأصدر الغيتار رنينًا مريعًا، وزعقت صوفي زعيقًا خافتًا من الخوف وتشبثت بالكرسي. كانت إحدى ذراعي الفزاعة العصويتين تخرمش بشدة لتمسك بالباب. ومن ثبات قدمي هاول، تبين أنه يدفع بقوة، ما من شك أن الشيء عازم على دخول القلعة.

خرج وجه كالسيفر الأزرق من الموقد، ووقف مايكل دون حراك في الخلف. «ثمة فزاعة حقًا!»، قال كلاهما.

«أوه، حقًا؟ قولا لي!»، لهث هاول. ووضع قدمًا على إطار الباب ودفع، فطارت الفزاعة إلى الوراء ببلادة، وحطت بخبطة خفيفة على الخلنج على مبعدة بضع ياردات. ثم هبت واقفة في الحال وتقدمت واثبة نحو القلعة ثانية. أسرع هاول ووضع غيتاره على العتبة ونزل لملاقاتها. «كلا، لن تفعلي يا صديقتي»، قال مادًا يدًا واحدة. «عودي من حيث أتيت». وتقدم ببطء، وما زال يمد يدًا واحدة. تراجعت الفزاعة قليلًا، وهي تقفز ببطء حذر إلى الوراء. وحين توقف هاول، توقفت الفزاعة أيضًا، وساقها الوحيدة مغروسة في الخلنج وذراعاها المكسوتان بالخرق تميلان إلى هذا الجانب وذاك مثل امرئ يتدرب على الملاكمة، أما الخرق المرفرفة على ذراعيها فكانتا محاكاة مجنونة لكمي هاول.

«لن تذهبي إذن؟»، قال هاول. وتحرك رأس الملفوف ببطء من جانب لجانب. كلا. «أخشى أنك ستفعلين»، قال هاول، «أنت تخيفين صوفي، ولا ندري ما الذي ستفعله إن أحست بالخوف. وإن

فكرت بالأمر، فأنت تخيفيني أيضًا». تحركت ذراعا هاول، ببطء كأنه يرفع ثقلًا كبيرًا، حتى ارتفعتا أعلى رأسه. وصاح بكلمات غريبة، أخفت نصفهَا فرقعةٌ عاصفة فجائية. وابتعدت الفزاعة محلقة فطارت للأعلى والخلف، والخرق ترفرف، والذراعان تدوران اعتراضًا، أعلى وبعيدًا، أكثر فأكثر، حتى أضحت لطخة محلقة في السماء، ثم نقطة متلاشية في الغيوم، ثم اختفت عن الأنظار تمامًا.

خفض هاول ذراعيه وعاد إلى الباب، ماسحًا وجهه بظاهر يده. «أتراجع عن كلامي القاسي يا صوفي»، قال لاهثًا. «ذلك الشيء كان مخيفًا. ربما كان يعيق حركة القلعة طيلة البارحة، ففيه أقوى سحر رأيته. ماذا كان كل ما بقي من آخر شخص عملت عنده في التنظيف؟».

ضحكت صوفي ضحكة ضعيفة، إذ كان قلبها يسيء النبض ثانية.

أدرك هاول أن بها خطبًا، فقفز إلى الداخل من فوق غيتاره، وأمسك بمرفقها، وأجلسها على الكرسي. «اهدئي الآن!»، وحدث شيء بين هاول وكالسيفر عندئذ. وأحست به صوفي، لأن هاول يمسكها، وكالسيفر لم يزل خارج الموقد. أيًا كان ذلك، فقد أخذ قلبها يحسن التصرف في الحال. ونظر هاول إلى كالسيفر ورفع كتفيه، واستدار ليعطي مايكل تعليمات كثيرة حول إبقاء صوفي هادئة لباقي اليوم. ثم حمل غيتاره وغادر أخيرًا.

استلقت صوفي على الكرسي وتظاهرت بالمرض ضعفيْ ما

أحست، إذ أرادت أن يختفي هاول عن الأنظار. فالمفارقة أنه كان ذاهبًا إلى أبر فولدنغ أيضًا، لكن عليها السير بوتيرة أبطأ بكثير فتصل في الوقت الذي يبدأ فيه رحلة العودة، والمهم ألا تلتقيه في الطريق. راقبت مايكل بمكر وهو يبسط الرقية ويحك رأسه مفكرًا، فانتظرت حتى سحب كتبًا كبيرة ذوات أغلفة جلدية من الرفوف وأخذ يدون ملاحظاته تدوينًا محمومًا محبطًا. ولما بدا منشغلًا تمامًا، غمغمت صوفي عددًا من المرات «الجو خانق هنا!».

فلم ينتبه مايكل، وقالت صوفي «خانق للغاية»، وهي تنهض وتسير متثاقلة إلى الباب. «هواء نقي». فتحت الباب وخرجت. فأوقف كالسيفر القلعة مذعنًا لما فعلت. نزلت صوفي إلى الخلنج وألقت نظرة فيما حولها لتتمالك نفسها. كان الطريق على التلال إلى أبر فولدنغ خطًا رمليًا يتخلل الخلنج أسفل القلعة. مفهوم، فلن يجعل كالسيفر الأمور تنقصها الراحة من أجل هاول. وخرجت صوفي نحوها، وأحست بشيء من الحزن، إذ ستشتاق لمايكل وكالسيفر.

كادت تصل الطريق لما سمعت صراخًا من خلفها. إذ جاء مايكل نازلًا التل خلفها، وجاءت القلعة الشاهقة السوداء متثاقلة خلفه، مطلقة نفثات قلقة من الدخان من أبراجها الأربعة.

«ماذا تفعلين؟»، قال مايكل حين أدركها. ومن نظرته إليها فهمت صوفي أنه حسب الفزاعة أطارت صوابها.

«إنني بخير تمامًا»، قالت صوفي بازدراء. «إنني ذاهبة لرؤية حفيدة أختي الثانية، وهي تدعى لتي هاتر أيضًا. أتفهم الآن؟».

«أين تعيش؟»، سأل مايكل، كأنه حسب أن صوفي لا تعرف.

«في أپر فولدنغ»، قالت صوفي.

«لكنها تبعد أكثر عشرة أميال!»، قال مايكل. «لقد وعدت هاول أنني سأجعلك ترتاحين، ولا يمكنني السماح لك بالذهاب. أخبرته أني لن أجعلك تغيبين عن ناظريّ».

لم يعجب الأمر صوفي كثيرًا، فقد وجدها هاول نافعة لأنه يريدها أن تقابل الملك، ولذا فهو لا يريدها طبعًا أن تغادر القلعة. «هَه!»، قالت.

«ثم»، قال مايكل وهو يسيطر على الوضع بهدوء، «إن هاول ذاهب إلى أپر فولدنغ أيضًا».

«أنا واثقة من هذا تمامًا»، قالت صوفي.

«أنت قلقة على الفتاة إذن، إن كانت حفيدة أختك»، قال مايكل وقد فهم المغزى أخيرًا. «فهمت! لكني لن أدعك تذهبين».

«أنا ذاهبة»، قالت صوفي.

«ولكن هاول سيستشيط غضبًا إن رآك هناك»، تابع مايكل موضحًا الأمور. «لأني وعدته، وسيغضب من كلينا. عليك أن تنالي قسطًا من الراحة». ثم، لما كانت صوفي مستعدة لضربه قال «انتظري! في خزانة المكانس زوج من أحذية الفراسخ السبعة!».

وأخذ صوفي من معصمها النحيل وسحبها صاعدين التل إلى القلعة المنتظرة. كانت مضطرة للقفز قليلًا بغية ألا تطأ قدماها

الخلنج. قالت لاهثة «لكن سبعة فراسخ تعادل واحدًا وعشرين ميلًا! سأبلغ نصف الطريق إلى يورتهفن في خطوتين!».

«كلا. إنها عشرة أميال ونصف في الخطوة»، قال مايكل. «وهذا يوصل إلى أپر فولدنغ بالضبط. إن أخذ كل منا فردة وذهبنا معًا، فلن أكون تركتك تغيبين عن ناظري عندئذ ولن تفعلي أي شيء مجهد، وسنصل إلى هناك قبل هاول، ولن يعرف أننا ذهبنا. هذا يحل كل المشاكل تمامًا!».

فرح مايكل بنفسه كثيرًا ولم ترغب صوفي في الاعتراف. فرفعت كتفيها وحسبت أن الأجدر بمايكل أن يعرف الفتاتين لتي قبل أن يتغير مظهراهما ثانية، إذ كان هذا أكثر صدقًا. ولكن حين أخرج مايكل الحذاء من خزانة المكانس، ساور الشك صوفي. فقد حسبته حتى الآن زوجًا من الدلاء الجلدية ضاع مقبضاهما ثم أصبحا مسحوقين قليلًا.

«عليك أن تضعي قدمك فيه، بحذائك»، شرح مايكل وهو يحمل الشيئين الثقيلين الشبيهين بالدلوين إلى الباب. «هذا النموذج الأولي للأحذية التي صنعها هاول لجيش الملك. تمكنا من جعل الأحدث أخف قليلًا وأكثر شبهًا بالأحذية». جلس هو وصوفي على العتبة ووضع كل منهما قدمًا في فردة. «وجهي نفسك شطر أپر فولدنغ قبل أن تنزلي الحذاء»، حذرها مايكل. ثم وقف هو وصوفي على قدميهما اللتين تلبسان الحذاءين العاديين وأدارا نفسيهما بحذر ليواجها أپر فولدنغ. «امشي الآن»، قال مايكل.

زيپ! اندفعت الأرض خلفهما في الحال بسرعة حتى بدت ضبابًا، ضبابًا رماديًا مخضرًا للأرض وضبابًا رماديًا مزرقًا للسماء. وعبث نسيم حركتهما بشعر صوفي وسحب كل تجعيدة في وجهها إلى الوراء حتى حسبت أنها ستصل ونصف وجهها خلف كل أذن.

توقف الاندفاع فجأة كما بدأ فجأة، وكان كل شيء هادئًا ومشمسًا. كانا في حقول حوذان يصل إلى الركب وسط المتنزه العام لقرية أپر فولدنغ، وحملقت بهما بقرة قريبة، وخلفها أكواخ مسقفة بالقش تغفو تحت الأشجار. لسوء الحظ، كان الحذاء الشبيه بالدلو ثقيلًا جدًا فتعثرت صوفي في هبوطها.

«لا تنزلي قدمك!»، صاح مايكل بعد فوات الأوان.

إذ كان ثمة المزيد من الضباب السريع والريح المندفعة. ولما توقفا وجدت صوفي نفسها أسفل وادي فولدنغ، في سباخ فولدنغ تقريبًا. «أوه، تبًا!»، قالت ووثبت حذرة على حذائها وحاولت ثانية.

زيپ! ضباب. فعادت إلى حقل أپر فولدنغ الخضراء، تتعثر من ثقل الحذاء. ولمحت مايكل يغوص ليمسك بها...

زيپ! ضباب. «أوه، اللعنة!» تذمرت صوفي، فقد عادت إلى التلال ثانية. كانت القلعة الماثلة السوداء تنساب بهدوء في القرب، وكان كالسيفر يسلي نفسه في نفث حلقات دخان سوداء من برج واحد. رأت صوفي هذا القدر قبل أن يعلق حذاؤها في الخلنج فتعثرت للأمام ثانية.

زيپ! زيپ! زارت صوفي هذه المرة في تعاقب سريع ماركت سكوير وماركت تشپنغ والمرج الأمامي لقصر كبير جدًا. «اللعنة!» قالت. «تبًا!»، كلمة واحدة لكل مكان. ثم انطلقت ثانية بقوتها الدافعة وزيـزيـپ أخرى! نزلت في نهاية ذاك الوادي في حقل ما. رفع ثور كبير أحمر أنفه المحلّق من العشب وأخفض قرنيه مستعدًا.

«أنا ذاهبة يا بهيمتي الطيبة!»، قالت صوفي قافزة في الأنحاء قفزًا محمومًا.

زيپ! عودة إلى القصر. زيپ! إلى ماركت سكوير. زيپ! ها هي القلعة ثانية. لقد بدأت تتقن ذلك. زيپ! ها هي أپر فولدنغ؛ ولكن كيف تتوقف؟ زيپ!

«أوه، اللعنة!» قالت صوفي وقد أصبحت في مارش فولدنغ ثانية.

هذه المرة قفزت بحذر ومشت بتأن شديد. زيپ! ولحسن الحظ حط الحذاء في روث البقر وجلست بخبطة. ركض مايكل قبل أن تتمكن صوفي من الحركة وخلع الحذاء عن قدمها. «شكرًا لك!»، قالت صوفي منقطعة الأنفاس. «كأنما لا سبب يدعوني للتوقف!».

قفز قلب صوفي قليلًا وهما يعبران الحديقة العامة إلى منزل السيدة فيرفاكس، ولكن مثلما تقفز القلوب لدى فعلك الكثير بسرعة، وأحست بالامتنان لما فعله كالسيفر وهاول أيًا يكن.

«مكان جميل»، علّق مايكل وهو يخبئ الحذاء في وشيع منزل السيدة فيرفاكس.

وافقته صوفي، فقد كان المنزل أكبر المنازل في القرية. كان مسقفًا بالقش، له جدران بيضاء بين عوارض سوداء، ومثلما تذكرت صوفي من زياراتها في طفولتها، فإنك تصل الرواق المسقوف عبر حديقة تعج بالزهور وطنين النحل. فوق الرواق المسقوف زهر العسل وورد أبيض معترش يتنافسان من يمنح النحل عملًا أكثر. كان صباحًا صيفيًا رائعًا حارًا في أپر فولدنغ.

فتحت السيدة فيرفاكس الباب بنفسها. كانت إحدى السيدات ممتلئات المريحات، لها لفافات من الشعر بلون الزبدة ملتفة حول رأسها، ويجعلك النظر إليها تحب الحياة. أحست صوفي بنزر يسير من الحسد ناحية لتي. نقلت السيدة فيرفاكس نظرها بين مايكل وصوفي، التي رأتها آخر مرة قبل عام صبية في السابعة عشرة، وما من سبب يدعوها أن تعرفها وهي امرأة عجوز في التسعين. «صباح الخير لكما»، قالت بتهذيب.

تنهدت صوفي، فقال مايكل «هذه الخالة الكبرى للتي، وقد أحضرتها لترى لتي».

«أوه، قلت إن وجهها مألوف!»، قالت السيدة فيرفاكس. «ثمة شبه عائلي. تفضلا بالدخول. لتي مشغولة قليلًا الآن، ولكن تناولا بعض الكعك المسطح والعسل أثناء انتظاركما».

وفتحت الباب الأمامي أكثر. وأبعد كلب كبير من نوع كولي

تنورة السيدة فيرفاكس، ومر من بين صوفي ومايكل، وركض إلى أقرب حوض زهور، منتزعًا الزهر يمنة ويسرة.

«أوه، أوقفاه!»، قالت السيدة فيرفاكس لاهثة، مسرعة تلاحقه، «لا أريده أن يخرج الآن!».

واستمرت المطاردة المضطربة لدقيقة أو نحوها، ركض فيها الكلب هنا وهناك، متأوهًا تأوه استياء، وركضت السيدة فيرفاكس وصوفي خلف الكلب، قافزتين فوق أحواض الزهور متصادمتين، وركض مايكل خلف صوفي قائلًا «توقفي! ستتعبين نفسك!»، ثم انطلق الكلب قافزًا عند زاوية البيت. فأدرك مايكل إن إيقاف صوفي يستوجب إيقاف الكلب، فاندفع في الاتجاه المعاكس عبر أحواض الزهور، وطاف حول البيت ملاحقًا الكلب، فأمسكه بحفنتين من شعره الكثيف حين وصل البستان في الخلف.

تقدمت صوفي متثاقلة لتجد مايكل يجر الكلب للخلف ويصنع لها تعبيرات غريبة بوجهه حتى ظنته مريضًا بادئ الأمر. لكنه أمال رأسه كثيرًا ناحية البستان فعرفت أنه يحاول إخبارها شيئًا. فألصقت وجهها بزاوية البيت وهي تظن أنها سترى سربًا من النحل.

كان هاول هناك مع لتي، يجلسان في بستان من أشجار التفاح المطحلبة في كامل إثمارها، وعلى مبعدة منهما صف من خلايا النحل. جلست لتي على كرسي حديقة أبيض، وجثى هاول على ركبة واحدة على العشب عند قدميها، ممسكًا بإحدى يديها مبديًا النبل والشهامة، ولتي تبتسم له بحب. غير أن الأسوأ في رأي صوفي أن لتي لم تبد

شبيهة بهارثا البتة. بل كانت في شخصها الفائق الجمال، وكانت تلبس ثوبًا لونه شبيه بالألوان الزهرية والبيضاء لأزهار التفاح الكثيفة في الأعلى، وانسدل شعرها الداكن في تموجات لامعة فوق أحد كتفيها وبرقت عيناها بالإخلاص لهاول.

أخفت صوفي رأسها خلف الزاوية ونظرت خائفة إلى مايكل وهو يمسك الكلب المتأوه. «لا بد أن عنده رقية للسرعة»، همس مايكل، خائفًا مثلها.

لحقت بهما السيدة فيرفاكس، لاهثة محاولة أن تثبت للمخلف خصلة منفلتة من شعرها الزبدي. «كلب سيء!»، قالت في همس قوي لكلب الكولي. «سألقي عليك رقية إن فعلت هذا مرة أخرى!» فطرف الكلب بعينيه وجلس. مدت السيدة فيرفاكس إصبعًا حازمة «إلى البيت! ابق في البيت!»، حرر الكولي نفسه من يدي مايكل وانسل إلى البيت ثانية. «شكرًا جزيلًا لك»، قالت السيدة فيرفاكس لمايكل حين تبعوا الكلب. «سيظل يحاول عض زائر لتي. إلى الداخل!»، صرخت بحزم في الحديقة الأمامية، حين فكر الكلب بالالتفاف حول البيت والذهاب نحو البستان من الجانب الآخر. نظر إليها الكلب نظرة حزينة من فوق كتفه وزحف إلى الداخل عبر الرواق المسقوف بأسى.

«قد يعرف ذلك الكلب الحقيقة»، قالت صوفي. «أتعرفين من زائر لتي يا سيدة فيرفاكس؟».

ضحكت السيدة فيرفاكس «الساحر بندراغن، أو هاول، أو

أيّا ما يدعو نفسه»، قالت. «لكني ولتي لا نظهر له معرفتنا. تسليت لدى ظهوره أول مرة، مسميًا نفسه سلفستر أوك، لأني عرفت أنه نساني، رغم أني لم أنسه، ورغم أن شعره كان أسود في أيام دراسته»، طوت السيدة فيرفاكس يديها أمامها وكانت واقفة باستقامة، مستعدة للحديث طيلة اليوم، كما رأتها صوفي تفعل كثيرًا في الماضي. «لقد كان آخر تلامذة معلمتي، قبل أن تتقاعد كما تعرفان. حين كان السيد فيرفاكس على قيد الحياة، كان يجب أن ننتقل كلانا إلى كنغزبري لرؤية عرض بين الحين والآخر. أستطيع نقل اثنين جيدًا إن فعلت ذلك ببطء. واعتدت زيارة السيدة العجوز پنتستمن حين أكون هناك، إذ تحب أن يظل تلامذتها على اتصال بها. وذات يوم عرّفتنا على هاول الشاب. أوه، كم كانت فخورة به. لقد علّمت الساحر سولمن أيضًا وقالت إن هاول أفضل بضعفين...».

«ولكن ألا تعرفين سمعة هاول؟»، قاطعها مايكل.

إن دخول حديث السيدة فيرفاكس كمثل الدخول في حبل وثب يلتف، إذ عليك اختيار اللحظة المناسبة، ولكن حالما تدخله، فستتورط. استدارت السيدة فيرفاكس قليلًا لتواجه مايكل.

«جله محض كلام في نظري»، قالت. فتح مايكل فمه ليقول إنه ليس كذلك، لكنه كان في حبل القفز وقد استمر في التقلب. «وقلتِ للتي «هذه فرصتك الكبرى يا حبي». أعلم أن هاول يستطيع تعليمها أكثر مما أفعل بعشرين ضعفًا؛ فأنا سأعترف لكما أن ذكاء لتي يفوق ذكائي، وقد ينتهي بها المطاف لتكون بمهارة

ساحرة اليباب، ولكن بطريقة خيرة. لتي فتاة طيبة وأنا أحبها، ولو كانت السيدة پنتستمن تواصل التعليم، لأرسلت لها لتي غدًا. لكنها لم تعد كذلك، لذا قلت «ها هو الساحر هاول يتودد إليك يا لتي ويمكنك أن تفعلي أكثر من الوقوع في غرامه فتجعلينه يكون معلمك. سيحقق كلاكما نجاحًا باهرًا». لا أظن لتي ميالة للفكرة في البدء، لكنها لانت قليلًا في الآونة الأخيرة، وتمضي الأمور على خير ما يرام اليوم».

هنا صمتت السيدة فيرفاكس لتبتسم بإحسان لمايكل، واندفعت صوفي في حبل القفز بدورها. «لكن أحدهم أخبرني أن لتي تهوى أحدًا آخر»، قالت.

«يؤسفني ذلك»، قالت السيدة فيرفاكس. ثم أخفضت صوتها «ثمة عائق فظيع»، وهمست ملمحة، «وهذا يتطلب الكثير من أي فتاة، وقد أخبرته بهذا. إنني آسف عليه...».

استطاعت صوفي أن تقول «أوه؟» محيرة.

«لكنها رقية قوية مخيفة. هذا محزن للغاية»، واصلت السيدة فيرفاكس. «كان علي إخباره أنه يستحيل على أحد له قدراتي كسر أي رقية ألقتها عليه ساحرة اليباب. هاول بوسعه ذلك، لكنه لن يطلب من هاول طبعًا، أليس كذلك؟».

هنا مايكل، الذي ظل ينظر بتوتر إلى زاوية البيت خشية ان يأتي هاول ويكتشف أمرهما، واستطاع القفز عبر حبل الوثب وإيقافه بقوله «أحسب أنه يجدر بنا الرحيل».

«أواثقان أنكما لا ترغبان بالدخول لتذوق العسل؟»، سألت السيدة فيرفاكس. «أستخدمه في كل رقياتي كما تعلمان»، وغابت ثانية وهذه المرة لدى أرض العسل الساحرة. سار مايكل وصوفي بهدوء على الدرب نحو البوابة ومشت خلفهما السيدة فيرفاكس، وهي تتحدث وتعدّل بحزن النباتات التي أحناها الكلب أثناء كلامها. وفي هذه الأثناء أجهدت صوفي تفكيرها لتجد طريقة تعرف بها كيف عرفت السيدة فيرفاكس أن لتي هي لتي، دون إزعاج مايكل. صمتت السيدة فيرفاكس لتلتقط أنفاسها قليلًا وهي تعدّل زهور الترمس.

فانتهزت صوفي الفرصة. «ألم تكن حفيدة أختي مارثا مَن يفترض بها القدوم إليك يا سيدة فيرفاكس؟».

«فتاتان شقيتان!»، قالت السيدة فيرفاكس باسمة تهز رأسها وهي تخرج من الترمس. «كأني لن أميز إحدى رقياتي المؤلفة من العسل! ولكن مثلما قلت لها حينئذ «أنا لست بالتي تبقي أحدًا رغمًا عنه وأفضّل تعليم أحد راغب بالتعلم. ولكني»، قلت لها، «لن أسمح بأي تظاهر هنا. ابقي بشخصك أو ارحلي». وسارت الأمور على خير ما يرام كما ترين. أواثقة أنك لا تودين البقاء وسؤالها بنفسك؟».

«أحسب أنه يجدر بنا الذهاب»، قالت صوفي.

«علينا العودة»، أردف مايكل ناظرًا نظرة متوترة أخرى نحو البستان. وجلب حذاء الفراسخ السبعة من الوشيع وجلس خارج البوابة منتظرًا صوفي. «وسأمسك بك هذه المرة»، قال.

اتكأت السيدة فيرفاكس على بوابتها حين أدخلت صوفي قدمها في الحذاء. «حذاء الفراسخ السبعة»، قالت. «أتصدقان أني لم أر واحدًا من هذه لسنوات. إنه مفيد للغاية لامرأة في مثل عمرك يا سيدة إه... وسأرحب بالحصول على زوج لنفسي هذه الأيام. إذن أنت من ورثت عنها لتي حرفة السحر، أليس كذلك؟ لا يعني هذا أنها متوارثة في الأسر، ولكن كثيرًا ما...».

أمسك مايكل بذراع صوفي وسحبها. فنزلت فردتا الحذاء وتلاشى باقي حديث السيدة فيرفاكس في الزيپ! ودفقة هواء. تعين على مايكل أن يخرج قدمه في اللحظة التالية لئلا يصطدما بالقلعة. كان الباب مفتوحًا، وفي الداخل كان كالسيفر يدمدم «باب پورتهڤن! ظل أحدهم يقرعه منذ غادرتما!».

الفصل التاسع

وفيه مايكل يواجه مشكلة في رقية

كان قبطان البحر بالباب، إذ جاء من أجل رقية الريح أخيرًا، ولم يعجبه اضطراره للانتظار. وقال لمايكل «إن ضيّعت التيار يا فتى، فسأبلغ عنك الراقي. لا أحب الصبية الكسالى».

كان مايكل، في نظر صوفي، شديد التهذيب معه، لكنها كانت مغتمة للغاية ولم تتدخل. وبعدما ذهب القبطان، تقدم مايكل نحو طاولة الأشغال وقطّب الجبين متفكرًا برقيته ثانية وجلست صوفي ترفو جوربيها بصمت. لم يكن عندها إلا زوج واحد وقد أحدثت قدماها المعجرتان ثقوبًا كبيرة فيه، وغدا ثوبها الرمادي باليًا قذرًا. فسألت نفسها ماذا لو تجرأت وقصت الأجزاء الأقل تبقعًا من بدلة هاول الزرقاء الفضية لتخيط لنفسها تنورة جديدة، لكنها لم تجرؤ على ذلك.

«صوفي»، قال مايكل رافعًا رأسه عن الصفحة الحادية عشرة من ملاحظاته، «كم حفيدة لأختك؟».

خشيت صوفي من أن يبدأ مايكل بطرح الأسئلة، فقالت «حين

تكون في مثل عمري يا فتاي، فإنك تضيّع العدّ. إنهن متشابهات كلهن. والفتاتان المدعوتان لتي قد يكونان توأمًا في نظري».

«أوه، كلا، ليس تمامًا»، فوجئت برد مايكل، «فالحفيدة في أپر فولدنغ ليست جميلة بقدر فتاتي لتي». ومزق الصفحة الحادية عشرة وكتب الثانية عشرة. «أنا مسرور لأن هاول لم يلتقِ بفتاتي لتي»، قال. وبدأ صفحته الثالثة عشرة ومزقها أيضًا. «أحسست برغبة في الضحك حين قالت السيدة فيرفاكس إنها تعرف من يكون هاول، وأنت كذلك؟».

«كلا»، قالت صوفي. فهذا لا يغير شيئًا من مشاعر لتي. وتذكرت وجه لتي المشرق المحبّ تحت زهر التفاح. وقالت بلا أمل «أحسب أنه ما من احتمال لوقوع هاول في الحب هذه المرة؟».

نخر كالسيفر شررًا أخضر في المدخنة.

«خشيت أن تبدئي التفكير هكذا»، قال مايكل. «لكنك تخادعين نفسك، مثل السيدة فيرفاكس تمامًا».

«وأنى لك أن تعرف؟»، قالت صوفي.

تبادل كالسيفر ومايكل النظرات. «أنسيت قضاءه ساعة على الأقل في الحمام هذا الصباح؟»، سأل مايكل.

«لقد قضى ساعتين يضع الرقى على وجهه. الأحمق المغرور!»، قال كالسيفر.

«هذا هو المقصد. اليوم الذي ينسى فيه هاول فعل ذلك سيكون

اليوم الذي أصدق فيه وقوعه في الحب حقًا، وليس قبل ذلك»، قال مايكل.

تذكرت صوفي هاول جاثيًا على ركبة واحدة في البستان، جالسًا ليبدو وسيمًا قدر استطاعته، وأدركت أنهما محقان. وفكرت بالذهاب إلى الحمام وإفراغ كل رقى الجمال العائدة إلى هاول في المرحاض. لكنها لم تجرؤ حقًا. وعوضًا عن هذا، تثاقلت وجلبت البدلة الزرقاء الفضية، وقضت بقية النهار تقص منها مثلثات زرقاء بغية صنع تنورة مرقّعة.

ربّت مايكل على كتفها برفق حين جاء ليلقي بكل صفحات ملاحظاته السبع عشرة إلى كالسيفر، وقال «الجميع يتخطون الأمور في النهاية كما تعلمين».

عندئذ تبين أن مايكل يواجه معضلة في رقيته، فتخلى عن الملاحظات وكشط بعض الهباب من المدخنة. رفع كالسيفر رأسه ليراقبه بطريقة غامضة، فأخرج مايكل جذرًا باليًا من أحد الأكياس المعلقة على العوارض ووضعه في الهباب. ثم، وبعد كثير من التفكير، أدار مقبض الباب موجهًا اللطخة الزرقاء للأسفل، واختفى في بورتهفن لعشرين دقيقة. ثم عاد بصدَفة حلزونية كبيرة ووضعها مع الجذر في الهباب. ثم مزق صفحات وصفحات من الورق ودسها أيضًا. ووضع كل ذلك أمام الجمجمة البشرية ووقف ينفخ عليها، ليدور الهباب وقصاصات الورق فوق طاولة الأشغال.

«ما الذي يفعله برأيك؟»، سأل كالسيفر صوفي.

كف مايكل عن النفخ وأخذ يطحن كل شيء، الورق وغيره، بمدقّ وهاون، ناظرًا إلى الجمجمة بين الفينة والأخرى مترقبًا. لم يحدث شيء، فجرب مكونات أخرى من الأكياس والجرار.

«أشعر بالاستياء لتجسسنا على هاول»، أعلن وهو يدق مجموعة ثالثة من المكونات حتى الموت في وعاء. «ربما كان ذا هوى مع الفتيات، لكنه رفيق بي للغاية. فقد تعهدني حين لم أكن سوى يتيم منبوذ يجلس على عتبة بابه في پورتهِفن».

«وكيف حدث ذلك؟»، سألت صوفي وهي تقص مثلثًا آخر.

«ماتت أمي وغرق أبي في عاصفة»، قال مايكل. «ولا يرغب بك أحد إن حدث لك هذا. واضطررت لترك بيتنا لأني لا أستطيع دفع الإيجار، وجربت العيش في الشوارع، لكن الناس ظلوا يبعدوني عن عتبات بيوتهم وقواربهم حتى بات المكان الوحيد الذي فكرت بالذهاب إليه مكانًا يخشى الجميع من الاقتراب منه. وكان هاول قد بدأ حينها بصورة بسيطة ليكون الراقي جنكن. لكن الجميع قالوا إن في بيته شياطين، لذا نمت على عتبة الباب بضع ليالٍ حتى فتح هاول الباب ذات صباح وهو في طريقه لشراء الخبز وسقطت إلى الداخل. فقال لي إن بوسعي الانتظار في الداخل حتى يجلب شيئًا نأكله. فدخلت، ووجدت كالسيفر، وبدأت الحديث إليه لأني لم ألتق عفريت نار من قبل».

«وعمّ تحدثتما؟»، قالت صوفي متسائلة في نفسها إن كان كالسيفر قد طلب من مايكل أن يبطل عقده أيضًا.

«أخبرني بمتاعبه وبكى عليّ، ألم تفعل؟»، قال كالسيفر. «ولم يخطر له أني قد أعاني متاعب أيضًا».

«لا أظن ذلك، إنك تتذمر كثيرًا وحسب»، قال مايكل. «كنت لطيفًا معي ذلك الصباح، وأحسب أن هاول تأثر. ولكنك تعرفين طباعه، ولم يخبرني أن بوسعي المكوث، لكنه لم يطلب مني الرحيل. فأخذت أكون ذا جدوى أينما وسعني ذلك، كالاهتمام بأمر المال حتى لا ينفقه كله حالما يحصل عليه، وهكذا».

أطلقت الرقية نفخة «ووف» عندئذ وانفجرت بهدوء. نفض مايكل الهباب عن الجمجمة، وجرب مكونات جديدة. بدأت صوفي صنع مرقعة من المثلثات الزرقاء حول قدميها على الأرض.

«لقد ارتكبت الكثير من الأخطاء الغبية حين بدأت»، واصل مايكل حديثه. «وكان هاول شديد اللطف حيال ذلك، وحسبت أنني تخطيت هذا. وأرى أنني أساعد في أمر المال، فهاول يشتري الغالي من الثياب، ويقول إن أحدًا لن يتفق مع ساحر يبدو كمن لا يستطيع جني المال من حرفته».

«هذا لأنه يهوى الثياب»، قال كالسيفر. وراقبت عيناه البرتقاليتان صوفي وهي تعمل بتمعن.

«لقد تلفت هذه البدلة»، قالت صوفي.

«ليس الثياب فحسب»، قال مايكل. «أتذكر الشتاء الماضي حين لم يبق عندنا إلا جذلك الأخير وخرج هاول واشترى الجمجمة وذلك الغيتار الغبي؟ أحسست بالغضب منه حقًا، وقال إنهما جميلان».

«وماذا فعلت بشأن الجذول؟»، سألت صوفي.

«جلب هاول بعضها من شخص يدين له بالمال»، قال مايكل. «هذا ما قاله على الأقل، وأرجو أنه كان صادقًا. وأكلنا أعشاب البحر، إذ قال هاول إنها مفيدة لنا».

«أشياء لذيذة. جافة وهشة»، همهم كالسيفر.

«أكرهها»، قال مايكل ناظرًا شارد الذهن إلى وعائه من المكونات المطحونة. «لا أدري؛ يجب أن يكون عندنا سبعة مكونات، إلا إن كانت سبعة عمليات، ولكن لنجربها في نجمة خماسية على أية حال». ووضع الوعاء على الأرض ورسم بالطبشور نجمة خماسية مدببة حولها.

انفجر المسحوق بقوة جرفت مثلثات صوفي إلى المصطلى. فشتم مايكل ومسح علامات الطبشور على عجل.

«إنني متورط في هذه الرقية يا صوفي. أتظنين أن بوسعك مساعدتي؟»، قال.

فقالت صوفي في نفسها إنه مثل من يجلب فروضه المنزلية إلى الجدة، وجمعت مثلثاتها ووضعتها صبورة. قالت بحذر «لنلقِ نظرة. لست أعرف شيئًا عن السحر كما تعلم».

وألقى مايكل متحمسًا في يدها ورقة غريبة لامعة قليلًا. بدت غير عادية، وإن كانت رقية. فقد كتبت بأحرف ثخينة، لكنها كانت رمادية مشوشة، وكان عليها بقع رمادية مثل غيوم عاصفة متراجعة

حول كل حوافها. «انظري ماذا ترين»، قال مايكل. فقرأت صوفي:

اذهب والتقط نجمة

تهوي من سابع ظلمة

واجعل جذرًا ذا فرعين

يعلق منك- وفي طفلين!

قل لي أين الماضي الآن

مَن فالقُ قدم الشيطان؟

***

أسمِعني في عمق البر

ما غنّته عروس البحر

وأعِذْني من شر العين

بتلاوة حرفين اثنين

أو قل

ما الريح

النافحة شراع الروح[١].

حدد معنى هذا

---

(١) قصيدة بعنوان أغنية للشاعر جون دُن، من كتاب أغنيات وسوناتات ترجمة بهاء جاهين مراجعة وتقديم فاطمة موسى، المشروع القومي للترجمة.
يقصد بالجذر ذي الفرعين جذر اليبروح أو ما يُعرف باللُفاح، وقد آمن الإنسان أن لهذا الجذر قوى سحرية فصنع منها ما يعرف بأكسيد الغرام، كما ورد ذكره في سفر التكوين(٣٠: ١٤-١٦) والريح النافحة شراع الروح: ترجمها ماجد الحيدر: أن الريح/ تجري بها يشتهي عقل شريف وهي الأدق.

واكتب قصيدة أخرى بنفسك».

حيّر هذا صوفي عظيم الحيرة، إذ لم تكن رقية كمثل الرقى التي استرقت النظر إليها من قبل. ثم أمعنت النظر فيها مرتين، ولم يساعدها شرح مايكل المتحمس وهي تحاول القراءة. «تعرفين أن هاول أخبرني أن الرقى المتقدمة فيها ألغاز؟ حسن، فكرت في البدء أن كل سطر لغز. فاستخدمت الهباب والشرر للشهاب، والصدفة لغناء الحوريات. وحسبت أني أُعتبر طفلًا، فجلبت جذر يبروح، وكتبت قوائم من السنوات الماضية من التقويم، السنوي لكني لست واثقًا من هذا -ربما هذا موضع الخطأ- وأيمكن للشيء الذي يعيذ من شر العين أن يكون ورقة حماض بري؟ لم أفكر بهذا من قبل، لم ينجح شيء على أية حال!».

«لا عجب»، قالت صوفي، «تبدو لي مثل مجموعة أشياء يستحيل فعلها».

لكن مايكل لم يقبل بهذا. وأشار بعقلانية إلى أن أحدًا لن يتمكن من صنع الرقية إن كانت مستحيلة. وأردف «وأنا خجل للغاية من التجسس على هاول وأود إصلاح الأمر بصنع هذه الرقية على نحو صحيح».

«حسن جدًا»، قالت صوفي. «لنبدأ من «حدد معنى هذا». يجب أن يحرك هذا الأمور، إن كان تحديد المعنى جزءًا من الرقية على أية حال».

لكن مايكل لم يقبل هذا أيضًا. «كلا»، قال. «إنها من الرقى

التي تكشف نفسها لك وأنت تعدينها، وهذا معنى سطرها الأخير. حين تكتبين النصف الثاني، لتحددي معنى الرقية، فهذا سيجعلها تنجح. هذه الأنواع متقدمة جدًا. علينا حل المقطع الأول بداية».

جمعت صوفي مثلثاتها الزرقاء في كومة مرة أخرى. «لنسأل كالسيفر»، اقترحت، «من يا كالسيفر...؟».

لكن هذا أيضًا لم يسمح لها به مايكل. «كلا، اهدئي. أحسب كالسيفر جزءًا من الرقية. انظري إلى ما تقول «أخبرني» و«علمني». حسبت أولًا أنها تعني تعليم الجمجمة، لكن هذا لم ينجح، فلا بد أن يكون كالسيفر إذن».

«إن كنت تعارض كل ما أقوله، فافعلها بنفسك!»، قالت صوفي. «على أية حال، فلا بد أن كالسيفر يعرف من فلق قدمه!».

توهج كالسيفر قليلًا عندئذ. «ليس عندي أقدام، فأنا عفريت ولست بشيطان». وبعد أن قال ما قال، تراجع تحت جذوله، حيث سمعت طقطقته، وهو يغمغم «كثير من الكلام الفارغ!». تناقش مايكل وصوفي بالرقية طوال ما بقي من وقت. وحينها استحوذ اللغز على صوفي، فلمت مثلثاتها، وجلبت قلمًا وورقة، وأخذت تكتب ملاحظات بمقدار ملاحظات مايكل. وجلست هي ومايكل طيلة النهار يحدقان من بعيد، يقضمان ريشات الكتابة ويتراشقان بالاقتراحات.

هذا ما جاء في صفحة عادية من ملاحظات صوفي:

أيحمي الثوم من الحسد؟ بمكنني قص نجمة من الورق ورميها.

أيمكننا أن نعزوها إلى هاول؟ هاول يحب غناء الحوريات أكثر من كالسيفر. لا أظن عقل هاول نزيهًا. وماذا عن كالسيفر؟ أين تكون السنوات الماضية على أية حال؟ أيعني أن هذه الجذور الجافة تحمل الثمار؟ نزرعه؟ إلى جانب الحماض البري؟ في صدفة؟ حافر مشقوق، لدى كل الدواب إلا الخيول. ضع حذوة لحصان بفص ثوم؟ ريح؟ رائحة؟ ريح حذاء الفراسخ السبعة؟ أهاول شيطان؟ الأصابع المشقوقة في حذاء الفراسخ السبعة؟ الحوريات يلبسن أحذية؟

كتبت صوفي هذا، وسأل مايكل بيأس مماثل «أيمكن «للريح» أن تكون بَكَرة؟ أيشنق رجل شريف؟ هذا سحر أسود، في النهاية».

«لنتناول العشاء»، قالت صوفي.

فأكلا الخبز والجبن، وهما يحدقان من بعيد. قالت صوفي أخيرًا «حبًا بالسماء يا مايكل، لنكف عن التخمين ونجرب فعل ما تقوله. أين أفضل مكان لرؤية نجمة ساقطة؟ في الخارج على التلال؟».

«سباخ بورتهفن أكثر استواء»، قال مايكل. «أنستطيع؟ إن النجوم الساقطة تتحرك بسرعة كبيرة».

«ونحن كذلك، باستخدام حذاء الفراسخ السبعة»، أشارت صوفي.

هب مايكل، مفعمًا بالارتياح والسرور. «أظنك وجدتها!»، قال باحثًا عن الحذاء. «لنذهب ونجرب».

هذه المرة أحسنت صوفي إذ أخذت عصاها ووشاحها، إذ كان

الوقت ليلًا. كان مايكل يدير مقبض الباب الأزرق نحو الأسفل حين حدث أمران غريبان. فقد بدأت أسنان الجمجمة تصطك على طاولة الأشغال، وتأجج كالسيفر عاليًا في المدخنة، وقال «لا أريدكما أن تذهبا!».

«سنعود سريعًا»، قال مايكل ملاطفًا.

فخرجا إلى الشارع في پورتهڤن. كانت ليلة قمراء منعشة. وحالما بلغا نهاية الشارع، تذكر مايكل أن صوفي كانت مريضة طيلة الصباح وأخذ يساوره القلق من تأثير هواء الليل على صحتها. فقالت له صوفي ألا يكون سخيفًا، فقد خبطت بنشاط طوال الطريق بعصاها حتى تركا النوافذ المضاءة خلفهما وغدا الليل رحبًا ورطبًا وباردًا. ضاعت من السباخ رائحة الملح والتراب، وتلألأ البحر ووشوش بنعومة في الخلف. أحست صوفي، أكثر من كونها رأت، بأميال وأميال من الأرض المستوية تمتد أمامهما. وما رأته حزمًا من الرذاذ المائل للزرقة الخفيضة والبريق الشاحب للمستنقعات، واحدة إثر واحدة، حتى اندمجت في خط شاحب حيث تبدأ السماء. كانت السماء في مكان آخر أكبر، وبدا درب التبانة مثل حزمة من الرذاذ ارتفع من السباخ، وتلألأت النجوم الرائعة عبره.

وقف مايكل وصوفي، وكل منهما يضع فردة من الحذاء جاهزة على الأرض أمامهما، ينتظران تحرك إحدى النجوم.

بعد نحو ساعة تظاهرت صوفي أنها لا ترتجف، خشية إقلاق مايكل.

قال مايكل بعد نصف ساعة «مايو ليس بالوقت المناسب من العام. لكن أغسطس أو نوڤمبر الأفضل».

بعد نصف ساعة قال بقلق «ماذا سنفعل بجذر اليبروح؟».

«لنهتم بهذا الجزء قبل أن نقلق لذاك»، قالت صوفي ضاغطة أسنانها وهي تتكلم، خشية أن تصطك.

قال مايكل بعد وقت «عودي إلى البيت يا صوفي. إنها رقبتي في النهاية».

فتحت صوفي فمها لتقول إن هذه فكرة جيدة، حين انفصلت نجمة عن عنان السماء واندفعت في خيط أبيض في السماء. «هذه واحدة!»، زعقت صوفي.

خبط مايكل قدمه في حذائه وانطلق. ووضعت صوفي قدمها وعصاها وانطلقت بعد ثانية. زيپ! ارتطام. بعيدًا في السباخ بالرذاذ والفراغ والبرك ذات اللمعان الباهت في كل اتجاه، غرست صوفي عصاها في الأرض واستطاعت الثبات. كان حذاء مايكل لطخة داكنة قربها، أما مايكل فكان صوت ترشيش من جري الأقدام المجنون في الأمام.

وهناك نجمة ساقطة. رأتها صوفي، شعلة بيضاء صغيرة هابطة على بعد بضع ياردات خلف الحركات الداكنة لمايكل. أخذ الشكل البراق يهبط ببطء، وكأنها سيمسكه مايكل.

فأخرجت صوفي قدمها من الحذاء. «هيا يا عصاي!» قالت

بصوت أجش. «خذيني إلى هناك!»، وانطلقت في عرج حثيث، تقفز عبر كتلة العشب وتتخبط في البرك، وعيناها على ذلك الضوء الأبيض الصغير.

حين وصلت، كان مايكل يخطو نحو النجمة بخطى هادئة، مادًا كلتا ذراعيه لإمساكها. رأت صوفي هيئته في نور النجمة، التي كانت تنساب نحو يدي مايكل ولا تبعد عنه إلا خطوة أو نحوها في الخلف. كانت تنظر إليه بقلق، يا للغرابة! قالت صوفي في نفسها. كانت مخلوقة من النور، وقد أنارت حلقة بيضاء من العشب والقصب والبرك السوداء حول مايكل، ومع ذلك كان لها عينان كبيرتان قلقتان تسترقان النظر للخلف إلى مايكل، ووجه مدبب صغير.

أفزعها وصول صوفي، فغطست غطسة عصبية وصرخت بصوت زاعق حاد «ما الأمر؟ ماذا تريد؟».

حاولت صوفي أن تقول لمايكل توقف فهي خائفة! ولكن لم يبق لديها من الأنفاس ما يكفي للكلام.

«أريد الإمساك بك فحسب»، شرح مايكل. «لن أؤذيك».

«كلا! كلا!»، صرخت النجمة يائسة. «هذا خطأ! يجب أن أموت!».

«لكني أستطيع إنقاذك إن سمحت لي بإمساكك»، قال لها مايكل برفق.

«كلا!»، صرخت النجمة. «أفضل الموت!»، فغاصت هاربة

من أصابع مايكل. غاص مايكل خلفها، لكنها كانت سريعة جدًا. فغطست في أقرب المستنقعات، وارتفع الماء الأسود في وهج من البياض للحظة. ثم كان أنين خافت محتضر. حين عرجت صوفي نحوهما، كان مايكل يقف مراقبًا الضوء الأخير يخبو من كتلة صغيرة مدورة تحت الماء الداكن.

«هذا محزن»، قالت صوفي.

تنهد مايكل. «إن قلبي انفطر عليها. لنعد إلى البيت. سئمت من هذه الرقية».

احتاجا عشرين دقيقة للعثور على الحذاء، وظنت صوفي أن عثورهما عليه معجزة.

«تعلمين»، قال مايكل وهما يسيران مغتمين عبر الشوارع المظلمة لـپورتهڤن. «أنا واثق أني لن أنجح في صنع هذه الرقية، إنها متقدمة جدًا. سأسأل هاول، وأنا أكره الاستسلام، لكني على الأقل سأحصل على شيء من العقل الذي منحته له لتي هاتر».

لم يسعد هذا صوفي البتة.

الفصل العاشر

وفيه يعد كالسيفر بإعطاء صوفي تلميحًا

لا بد أن هاول عاد أثناء غياب مايكل وصوفي. وخرج من الحمام حين كانت صوفي تعد الإفطار على كالسيفر، وجلس على الكرسي بأناقة، مهندمًا متأنقًا يضوع منه شذى زهر العسل.

«عزيزتي صوفي»، قال، «أنت دائمة الانشغال. أجهدت نفسك في العمل البارحة، رغم نصيحتي، أليس كذلك؟ لماذا صنعت من أفضل بدلاتي أحجية صور مقطوعة؟ هذا سؤال ودود كما ترين».

«لقد لطختها بالهلام قبل أيام»، قالت صوفي. «أنا أعيد خياطتها».

«أستطيع فعل ذلك»، قال هاول. «وأحسبني أثبت لك. كما يمكنني صنع حذاء الفراسخ السبعة من أجلك إن أعطيتني قياس قدمك. ربما يكون حذاء عمليًا من جلد العجل البني. مدهش أن يسع المرء قطع عشرة أميال ونصف في خطوة واحدة ومع ذلك يحط على روث بقرة».

«قد يكون روث ثور»، قالت صوفي. «أستطيع القول إنك

وجدت عليه طينًا من السباخ أيضًا. فالمرء في عمري يحتاج كثيرًا من التريض».

«لقد كنت أكثر انشغالًا مما حسبت إذن»، قال هاول. «لأني حين أبعدت ناظري عن وجه لتي الجميل للحظة البارحة، أقسمت إني رأيت أنفك الطويل يبرز من زاوية البيت».

«السيدة فيرفاكس صديقة للعائلة»، قالت صوفي. «وأنى لي أن أعرف أنك ستكون هناك أيضًا؟».

«إن عندك غريزة يا صوفي، وبها تعرفين»، قال هاول. «لا شيء يخفى عنك. إن غازلت فتاة على كتلة جليدية وسط محيط، فسأرفع رأسي، عاجلًا أم آجلًا -ولعله عاجل- لأراك تدورين في الأعلى على عصا مكنسة. في الواقع، ستنتابني خيبة الأمل لو لم أرك».

«أأنت ذاهب إلى جبل الجليد اليوم؟»، قالت صوفي. «عرفت من النظرة على وجه لتي البارحة ألا شيء يدعوك للبقاء هناك!».

«إنك تجورين علي»، قال هاول. بدا متألمًا للغاية، فنظرت صوفي بارتياب إلى الجانبين. خلف الجوهرة الحمراء المتدلية من أذن هاول، وبدا وجهه من الجانب حزينًا نبيلًا. «ستنقضي سنوات طويلة قبل أن أهجر لتي»، قال. «وفي الحقيقة إني ذاهب لرؤية الملك ثانية اليوم. أأنت سعيدة يا سيدة حشورة؟».

لم تكن صوفي واثقة أنها صدقت كلمة من هذا، رغم أن مقبض الباب يشير إلى كنغزبري، وقد أدير موجهًا اللطخة الحمراء نحو

الأسفل، وغادر هاول بعد الإفطار، منحيًا مايكل حين حاول سؤاله عن الرقية المحيرة. وغادر مايكل أيضًا، إذ ليس عنده ما يفعله، وقال إنه قد يذهب إلى مخبز سيسري.

تركت صوفي وحدها. ما زالت لم تصدق حقًا ما قاله هاول عن لتي، لكنها أخطأت في حقه قبلًا، ولم يكن عندها إلا كلام مايكل وكالسيفر عن سلوك هاول في النهاية. جمعت كل مثلثات القماش الصغيرة الزرقاء وأخذت تخيطها شاعرة بالذنب إلى شبكة الصيد الفضية التي كانت كل ما بقي من البدلة. وعندما قرع الباب، فزعت بقوة ظانة أنها الفزاعة مرة أخرى.

«باب پورتهڤن»، قال كالسيفر مشعشعًا بابتسامة بنفسجية نحوها.

لا بأس بهذا إذن. عرجت صوفي نحو الباب وفتحته، موجهة اللطخة الزرقاء نحو الأسفل. كانت عربة تجرها خيول بالخارج، وتساءل الشاب ذو الخمسين عامًا الذي يقودها إن كان لدى السيدة الساحرة شيء يمنع الخيول من طرح الحذوات طيلة الوقت.

«سأرى»، قالت صوفي. وعرجت ناحية الموقد وهمست «ماذا أفعل؟».

«المسحوق الأصفر، في المرطبان الرابع على الرف الثاني»، رد كالسيفر هامسًا. «هذه الرقى تعتمد على الإيمان غالبًا. لا تظهري التردد عندما تعطينها له».

فوضعت صوفي المسحوق الأصفر في ورقة مربعة كما رأت مايكل يفعل، ولفتها جيدًا، ثم عرجت ناحية الباب وهي تحملها.

«إليك يا ولدي»، قالت. «هذا سيثبت الحذوات أفضل من مئة مسمار. أتسمعني أيها الحصان؟ لن تحتاج حدادًا للعام القادم. أجرها بنس، شكرًا لك».

كان يومًا مزدحمًا، إذ تعين على صوفي أن تنحّي جانبًا عملها في الخياطة لتبيع، بمساعدة كالسيفر، رقية لفتح المصارف المسدودة، وأخرى لجلب الماعز، وشيئًا لتحسين البيرة. ولم يزعجها شيء إلا زبون قرعَ على باب كنغزبري. فتحت صوفي الباب مديرة المقبض الأحمر للأسفل لتجد فتى يلبس فاخر الثياب لا يكبر مايكل، شاحب الوجه متعرقًا، يعصر يديه على عتبة الباب.

«السيدة الراقية، حبًا بالرب!»، قال، «أجبرت على القتال في مبارزة فجر غد. أعطيني شيئًا يجعلني واثقًا من النصر، وسأدفع لك ما شئت!».

نظرت صوفي من فوق كتفها نحو كالسيفر، ورد عليها كالسيفر بتعبيرات وجهه، قائلًا إنه لا شيء كهذا جاهز. «لن يكون هذا صوابًا»، قالت للصبي بقسوة. «ثم إن المبارزة خطأ».

«أعطيني شيئًا يجعلني أحظى بفرصة عادلة!»، قال الفتى يائسًا.

نظرت إليه صوفي. كان ضئيل الحجم وفي خوف عظيم للغاية. وارتسمت على وجهه نظرة امرئ يخسر دومًا في كل شيء. فقالت صوفي «سأرى ما يسعني فعله». وعرجت إلى الرفوف وتفحصت الجرار، وبدت الحمراء التي كتب عليها فلفل حرّيف أكثرها قبولًا. فصبت صوفي منها كومة كبيرة على ورقة مربعة، وأوقفت الجمجمة

البشرية بجانبها. «لأنك تعرفين أكثر عن هذا أكثر مني»، همهمت لها. كان الشاب يستند على الباب بقلق ليرى، فأخذت صوفي سكينًا وصنعت ما ظنته يبدو مثل حزوز غامضة على كومة الفلفل. «ستجعلين القتال عادلًا»، غمغمت. «قتالًا عادلًا، أتفهمين؟» ثم لفت الورقة وعرجت نحو الباب وهي تحملها. «ألق هذه في الهواء عند بدء المبارزة»، قالت للشاب الضئيل، «وستمنحك فرصة مماثلة لفرصة الرجل الآخر. بعد ذلك، فربحك وخسارتك يعتمدان عليك».

كان الشاب الضئيل ممتنًا للغاية وحاول إعطاء صوفي قطعة ذهبية. لكن صوفي رفضت أخذها، فأعطاها قطعة بنسين ومضى يصفر سعيدًا. «أشعر أني محتالة»، قالت صوفي وهي تدس النقود تحت المصطلى. «لكني أود أن أشهد القتال!».

«وأنا أيضًا!»، طقطق كالسيفر، «متى ستحررينني فأستطيع الذهاب لرؤية أشياء كهذا؟».

«حين أحصل على تلميح عن هذا العقد»، قالت صوفي.

«قد تحصلين على واحد في وقت لاحق من اليوم»، قال كالسيفر.

دخل مايكل مندفعًا قبيل انقضاء العصرية، ونظر حوله نظرة قلقة ليتأكد أن هاول لم يعد قبله وتقدم إلى طاولة الأشغال، حيث أخرج الأشياء ليتظاهر بأنه كان منشغلًا، وهو يغني مبتهجًا أثناء ذلك.

«أحسدك لقدرتك على السير كل هذه المسافة دون عناء»، قالت

صوفي وهي تخيط مثلثًا أزرق إلى جديلة فضية. «كيف حال ما...
حفيدة أختي؟».

ترك مايكل طاولة الأشغال مسرورًا وجلس على المقعد قرب المصطلى ليخبرها عن يومه. ثم سأل صوفي عن يومها. وما حدث أنه حين دفع هاول الباب بكتفه وفتحه وذراعاه مملوءتان بالرزم، لم يكن مايكل مشغولًا. بل كان يدوّر المقعد ضاحكًا من رقية المبارزة.

أسند هاول ظهره للباب ليغلقه واتكأ هناك في حال محزنة. «انظروا إليكم!»، قال. «الإنهاك بادٍ على محيّاي، أكدح طوال النهار من أجلكم جميعًا، ولا أحد منكم، حتى كالسيفر، يمكنه إيجاد الوقت ليلقي التحية!».

فهب مايكل واقفًا شاعرًا بالذنب وقال كالسيفر «أنا لا ألقي التحية أبدًا!»

«أمن خطب؟»، سألت صوفي.

«هذا أفضل»، قال هاول. «يتظاهر بعضكم بالانتباه إلي أخيرًا. لطف منك أن تسألي يا صوفي. أجل، ثمة خطب. لقد طلب مني الملك رسميًا أن أعثر على أخيه -بتلميح قوي بأن إهلاك ساحرة اليباب سيكون مفيدًا أيضًا- وأنتم تجلسون هنا وتضحكون!».

تبين الآن أن هاول في مزاج يفرز اللزاج الأخضر في أية لحظة. فهرعت صوفي لتزيح خياطتها. «سأعد بعض شرائح الخبز الساخنة المدهونة بالزبدة»، قالت.

«أهذا كل ما يسعك فعله لمواجهة مأساة؟»، سأل هاول. «تعد شرائح الخبز! كلا، لا تنهضي. لقد جئت هنا محمّلًا بأشياء من أجلك، فأقل ما يمكنك فعله هو إظهار اهتمام مهذب. خذي». وألقى بوابل من الرزم إلى حجر صوفي وناول مايكل رزمة.

جلت صوفي الأشياء محتارة؛ عدة أزواج من الجوارب الحريرية، ورزمتان من أجود التنانير الداخلية القطنية، وكشاكش ومخرمات ووصلات من الساتان، وحذاء ذي جوانب مطاطية من الجلد المدبوغ بلون اليمامة الرمادية، ووشاح مخرم، وثوب رمادي من الحرير المموج مهدب بالدانتيلا التي تماثل الوشاح. نظرت صوفي نظرة فاحصة على كل هذا وشهقت. كان الدانتيلا وحده باهظ الثمن، وتحسست حرير الثوب خائفة.

وفتح مايكل تغليف بدلة مخملية جديدة أنيقة. «لا بد أنك أنفقت كل المال في المحفظة الحريرية!»، قال بجحود. «لست بحاجة إلى هذه. أنت من يحتاج بدلة جديدة».

أنشب هاول حذاءه بما بقي من البدلة الزرقاء الفضية ورفعه كارهًا. عملت صوفي بجد لكنها لم تزل ثقوبًا أكثر منها بدلة. «يا لي من محب للغير!»، قال، «لكني لا أستطيع إرسالك أنت وصوفي لتشويه سمعتي عند الملك بثياب بالية. سيحسب الملك أنني لا أعتني بأمي العجوز جيدًا. حسن يا صوفي؟ أقياس الحذاء مناسب؟».

كفت صوفي عن تحسسها المذعور وقالت «أتحاول أن تكون لطيفًا أم جبانًا؟ شكرًا جزيلًا لك وكلا لن أفعل».

«يا للجحود!»، صاح هاول باسطًا ذراعيه. «لنجلب اللزاج الأخضر ثانية! وبعده سأضطر لتحريك القلعة ألف ميل ولن أرى حبيبتي لتي ثانية!».

نظر مايكل إلى صوفي متوسلًا، وحملقت صوفي غاضبة. وأدركت حق الإدراك أن سعادة أختيها تعتمد على موافقتها لمقابلة الملك، مرجئة اللزاج الأخضر. فقالت «لكنك لم تطلب مني فعل شيء بعد، بل قلت إني ذاهبة».

ابتسم هاول. «وأنت ذاهبة، ألست كذلك؟».

«حسن. متى تود مني الذهاب؟»، قالت صوفي.

«بعد ظهر غد»، قال هاول. «سيذهب مايكل بوصفه خادمك. والملك ينتظر قدومك». جلس على المقعد وأخذ يشرح بوضوح وجدية شديدين ماذا تقول صوفي. لم يعد لمزاج اللزاج الأخضر من أثر، فقد مضت الأمور الآن على طريقة هاول، كما رأت صوفي. وودت أن تصفعه. «أريد منك أن تنجزي مهمة حساسة»، قال هاول، «فيستمر الملك بإعطائي عملًا مثل رقى الانتقال، لكنه لن يوكل إلي شيئًا من قبيل العثور على أخيه. عليك إخباره كيف أغضبت ساحرة اليباب وأن تشرحي أني ولد بار بك، لكنني أريد أن تفعلي ذلك على نحو يفهم منه أنني عديم الجدوى تمامًا».

شرح هاول وأسهب في الشرح. شبكت صوفي يديها حول الرزم وحاولت حملها كلها، رغم أنها لم تستطع أن تتفادى التفكير، ولو كنت الملك لما فهمت كلمة مما ترمي إليه العجوز.

كان مايكل يحوم قرب هاول، محاولًا سؤاله عن الرقية المحيرة. وظل هاول يفكر في تفاصيل جديدة دقيقة تقال للملك ويتجاهل مايكل. «ليس الآن يا مايكل. وخطر لي يا صوفي أنك قد تودين التمرن كيلا ينتابك الذهول من القصر. فلا نريد أن يصيبك الاندهاش في خضم اللقاء. ليس بعد يا مايكل. لذا رتبت لك زيارة معلمتي القديمة السيدة بنتستمن. فهي سيدة عجوز راقية، كما أنها أرقى من الملك بصورة ما. لذا ستعتادين هذا الأمر لدى وصولك إلى القصر».

تمنت صوفي حينئذ أنها لم توافق. وأحست بالارتياح العظيم حين استدار هاول إلى مايكل أخيرًا.

«حسن يا مايكل. حان دورك. ما الأمر؟».

لوح مايكل بالورقة البراقة الرمادية وأوضح بسرعة وتعاسة استحالة صنع الرقية.

دهش هاول قليلًا لدى سماع هذا، لكنه أخذ الورقة وقال «أين واجهتك المشكلة؟» وبسطها أمامه. ونظر إليها رافعًا أحد حاجبيه.

«جربتها لغزًا وجربت فعلها كما هي»، أوضح مايكل. «لكنني وصوفي لم نستطع الإمساك بالنجمة الساقطة...».

«يا رب السماوات!»، قال هاول. وأخذ يضحك، وعض شفته ليكبح نفسه. «لكن هذه ليست الرقية التي تركتها لك يا مايكل. أين وجدتها؟».

«على طاولة الأشغال، في كومة الأشياء التي كدستها صوفي حول الجمجمة»، قال مايكل. «كانت الرقية الوحيدة، لذا حسبت..».

هب هاول واقفًا وفتش بين الأشياء على الطاولة. «صوفي تعبث ثانية»، قال. تناثرت الأشياء يمنة ويسرة وهو يبحث. «كان علي أن أعرف! كلا، الرقية الحقيقية ليست هنا». نقر متفكرًا على قبة الجمجمة البنية اللامعة. «أهذا صنعك يا صديقتي؟ أحسبك أتيت من هناك. وواثق أن الغيتار من هناك. إه صوفي يا عزيزتي...».

«ماذا؟»، قالت صوفي.

«حمقاء عجوز مشغولة، صوفي العنيدة»، قال هاول. «أمحق إن قلت إنك أدرت مقبض الباب الأسود للأسفل وأقحمت أنفك الطويل هناك؟».

«إصبعي فحسب»، قالت بخيلاء.

«لكنك فتحت الباب»، قال هاول، «والشيء الذي يظنه مايكل رقية دخل منه. ألم يخطر لأي منكما أنها لا تشبه الرقى التي أصنعها؟».

«تبدو الرقى غريبة دومًا»، قال مايكل. «ما حقيقتها؟».

نخر هاول ضاحكًا. «فكر في معناها. واكتب شطرًا ثانيًا!»، قال وأسرع للأعلى وقال لما خبطت قدماه صعودًا «سأريك».

«أظننا أضعنا الوقت في تجوالنا في السباخ ليلة البارحة»، قالت صوفي. هز مايكل رأسه متجهمًا، وأدركت صوفي أنه يشعر بالغباء، فقالت «ذاك خطئي، فأنا فتحت الباب».

«وماذا كان في الخارج؟»، سأل مايكل باهتمام عظيم.

غير أن هاول عاد نازلًا الدرج حينئذ، وقال «لم أجد الكتاب في النهاية». وبدا مستاء «أقلت إنك خرجت وحاولت الإمساك بنجمة ساقطة يا مايكل؟».

«أجل، لكنها كانت خائفة حتى الموت وسقطت في بركة وغرقت»، قال مايكل

«حمدًا للرب على ذلك!»، قال هاول.

«كان ذاك محزنًا»، قالت صوفي.

«محزن أليس كذلك؟»، قال هاول وقد زاد استياء. «أكانت تلك فكرتك؟ أكيد! كأني أراك تقفزين في السباخ تشجعينه! دعيني أخبرك أن هذا كان أغبى شيء فعله في حياته. لو سنحت له فرصة إمساك النجمة لكان أكثر حزنًا! وأنت...».

خفق كالسيفر في المدخنة ناعسًا. وسأل «لم كل هذه الضجة؟ لقد أمسكت واحدة بنفسك، ألم تفعل؟».

«أجل، وأنا...»، قال هاول محولًا نظرته الزجاجية نحو كالسيفر. لكنه تمالك نفسه واستدار إلى مايكل. «عدني يا مايكل أنك لن تحاول الإمساك بواحدة مرة أخرى».

قال مايكل مذعنًا أعدك. ما قصة تلك الكتابة إن لم تكن رقية؟».

نظر هاول إلى الرقة الرمادية في يده. «إنها تدعى «أغنية» وأظن هذه حقيقتها. لكنها ليست مكتوبة كلها هنا ولا أستطيع

تذكر الباقي منها». ووقف وفكر كأنما خطرت له فكرة جديدة، فكرة أثارت قلقه بجلاء. «أظن السطر التالي مهم»، قال، «علي أن آخذها وأرى...» وتقدم نحو الباب وأدار المقبض الأسود للأسفل، ثم توقف. نظر حوله إلى مايكل وصوفي، اللذين كان كلاهما طبعًا ينظران إلى المقبض. «حسن»، قال، «أعلم أن صوفي ستتسلل بصورة ما إن تركتها خلفي، وهذا ليس عدلًا بحق مايكل. تعاليا، كلاكما، فتكونا حيث يسعني مراقبتكما».

فتح الباب على العدم ومشى فيه. سقط مايكل من مقعده لعجلته للحاق به. وألقت صوفي الرزم يمنة ويسرة إلى المصطلى وهبت واقفة أيضًا. «لا تدع أي شرارة تصل إليها!»، قالت لكالسيفر على عجل.

«إن وعدت أن تخبريني بها في الخارج»، قال كالسيفر، «لقد حصلت على التلميح بالمناسبة».

«حقًا؟»، قالت صوفي. وكانت في عجلة من أمرها فلم تنتبه.

الفصل الحادي عشر

وفيه هاول يذهب إلى بلاد غريبة بحثًا عن رقية

لم تبلغ سماكة العدم إلا مقدار إنش. خلفه، في أمسية رمادية ماطرة كان درب إسمنتي يؤدي إلى بوابة حديقة. فوقف هاول ومايكل ينتظران عند البوابة، وخلفها كان طريق مستوٍ معبّد تحفّه البيوت من كلا جانبيه. نظرت صوفي خلفها من حيث أتت، مرتجفة من المطر، ووجدت القلعة قد أصبحت بيتًا من الآجر الأصفر ذا نوافذ كبيرة. مثل البيوت الأخرى كلها، كان مربعًا وجديدًا، له باب أمامي من الزجاج المغبش. لم يظهر أحد بين البيوت، وربما كان هذا بسبب المطر، لكن صوفي أحست أن السبب الحقيقي، رغم كثرة البيوت، هو وقوعها في مكان ما على أطراف بلدة.

«حين تفرغين من حشريتك»، قال هاول. كانت بزته الرمادية الأرجوانية قد تبللت من المطر. وكان يلوح بحزمة من المفاتيح الغريبة، معظمها أصفر اللون مسطح تماثل البيوت. حين قطعت صوفي الدرب قال «علينا أن نتهندم لنماشي هذا المكان». تذبذبت بدلته، كأنما تحول المطر من حوله فجأة إلى ضباب. وحين عاد إليها

الثبات مرة أخرى، لم تزل رمادية قرمزية، لكنها ذات طراز مختلف. فقد اختفى الكمّان المتدليان وصارت البدلة بأكملها أكثر اتساعًا، وبدت بالية مهترئة.

طالت سترة مايكل حتى بلغت الخصر. فرفع قدمه، وهو يلبس فيها حذاء من القنب، وحملق بالشيئين الأزرقين الضيقين اللذين يطوقان ساقيه. «لا أستطيع ثني ركبتيّ»، قال.

«ستعتادها»، قال هاول، «هيا يا صوفي».

فوجئت صوفي إذ تقدمهما هاول في درب الحديقة نحو البيت الأصفر. ورأت أن على ظهر سترته الواسعة كلمتان غامضتان: رغبي ويلز. تبع مايكل هاول، ماشيًا في اختيال أنيق بفضل الشيئين اللذين يغطيان ساقيه. ونظرت صوفي إلى نفسها فرأت ساقًا أشد نحولًا بضعفين تظهر فوق حذائها المعجر. وعدا ذلك لم يتغير فيها الشيء الكثير.

فتح هاول الباب ذي الزجاج المموج بواحد من مفاتيحه. كان عليه لافتة خشبية معلقة بجانبه بسلسلة. قرأت صوفي رايڤندل، حين دفعها هاول إلى داخل بهو نظيف لامع. تبين أن في البيت ناسًا، إذ أتت أصوات عالية من خلف أقرب الأبواب. وعندما فتح هاول الباب، أدركت صوفي أن الأصوات قادمة من رسوم سحرية ملونة متحركة على صندوق مربع كبير. «هاويل!!»، نادت امرأة تجلس هناك وتنسج.

نحّت غزلها جانبًا، وقد ظهر على سيمائها الضيق، ولكن قبل

أن يتسنى لها النهوض، قفزت فتاة صغيرة كانت تشاهد الرسوم السحرية بجدية شديدة مسندة ذقنها على يديها، وألقت بنفسها على هاول. «خالي هاول!»، صرخت، وقفزت نصف الطريق نحو هاول وساقاها ملتفتان حوله.

«ماري!»، صاح هاول ردًا عليها، «كيف حالك يا حبي؟ أكنت فتاة مطيعة؟». فأخذ هو والفتاة الصغيرة يتكلمان لغة أجنبية، بسرعة وصوت عالٍ. وتبينت صوفي أنهما متقاربان، وتساءلت عن اللغة. بدت شبيهة بأغنية كالسيفر السخيفة عن القدر، لكن التأكد من ذلك صعب. وبين سيل الأحاديث الأجنبية، تمكن هاول من القول، كأنه بهلوان يتكلم من بطنه «هذه ابنة أختي، ماري، وأختي ميغن پاري. ميغن هذا مايكل فيشر وصوفي إه...».

«هاتر»، قالت صوفي.

صافحت ميغن كليهما بتحفظ وامتعاض. كانت أكبر من هاول، لكنها تشبهه تمامًا، لها الوجه النحيل الطويل نفسه، غير أن عينيها زرقاوان مفعمتان بالقلق، وشعرها داكن أكثر. «اهدئي الآن يا ماري!»، قالت بصوت قطع الحديث الأجنبي. «أستمكث طويلًا يا هاول؟».

«مررت لدقائق فحسب»، قال هاول وهو ينزل ماري.

«لم يأت غارِث بعد»، قالت ميغن بنبرة مقصودة.

«يا للأسف! لا نستطيع البقاء»، قال هاول مبتسمًا ابتسامة دافئة

مصطنعة. «خطر لي أن أعرفك على صديقيّ، كما أود أن أسألك شيئًا قد يبدو سخيفًا. أيحتمل أن نيل أضاع صفحة من الواجب المنزلي للغة الإنجليزية في الآونة الأخيرة؟».

«غريب أن تقول هذا!»، قال ميغن، «فقد بحث عنه في كل مكان الخميس الماضي! تدرّسه معلمة جديدة للإنجليزية، كما ترى، وهي صارمة للغاية، ولا تشغل التهجئة بالها فحسب. بل تزرع الخوف من الرب فيهم ليقدموا العمل في موعده. لكن هذا لا يضير نيل، الشيطان الصغير الكسول! وها هو ذا يوم الخميس يبحث هنا وهناك، وكل ما عثر عليه قصاصة قديمة غريبة عليها كتابة...».

«آه»، قال هاول. «وماذا فعل بتلك الكتابة؟».

«أخبرته أن يسلمها إلى معلمته الآنسة أنغوريان»، قالت ميغن. «فقد يثبت لها أنه حاول ولو لمرة».

«وهل فعل؟»، سأل هاول.

«لست أدري. يجدر بك سؤال نيل، إنه في الأعلى في غرفة النوم الأمامية مع آلته»، قالت ميغن.

«هيا بنا»، قال هاول لمايكل وصوفي، اللذين كانا يحدقان في أنحاء الغرفة المنيرة ذات اللونين البني والبرتقالي. وأخذ يد ماري وخرج بهم جميعًا من الغرفة وصعد بهم إلى الطابق العلوي. وكان على سلالم الدرج سجاد باللونين الأخضر والزهري. فلم يصدر

الموكب الذي يقوده هاول أي صوت أثناء ارتقائه ممر السلالم الزهرية الخضراء ودخوله غرفةً سجادتها لونها أزرق وأصفر. لكن صوفي لم تكن واثقة أن الولدين الجاثمين أمام صناديق منوعة سحرية على طاولة كبيرة قرب النافذة سيرفعان أنظارهما إن مر جيش له فرقة آلات نفخ نحاسية. كان للصندوق السحري الرئيس واجهة زجاجية مثل الموجود في الأسفل، لكنه يظهر كتابات وأشكال بيانية أكثر من الرسوم. كل الصناديق نمت على سيقان طويلة مرنة بيضاء متجذرة في جدار أحد طرفي الغرفة.

«نيل!»، قال هاول.

«لا تقاطعه!»، قال أحد الصبيين، «سيخسر حياته».

ولما كانت مسألة حياة أو موت، تراجع مايكل وصوفي نحو الباب. لكن هاول، غير آبهٍ بمقتل ابن أخته، خطا نحو الجدار وانتزع الصندوقين من جذورهما، فتلاشت الصورة على الصندوق. تفوه كلا الولدين بكلمات لم تظن صوفي أن مارثا تعرفها، واستدار الولد الثاني صارخًا «ماري! سأنال منك لأجل هذا!».

«لم أكن أنا هذه المرة. هه!» ردت ماري صارخة.

استدار نيل أكثر ورمى هاول بنظرة اتهام، فقال هاول بسرور «كيف حالك يا نيل؟».

«من هذا؟»، سأل الولد الآخر.

«خالي الذي ليس بطيب»، قال نيل ونظر شزرًا إلى هاول. كان

أسمر اللون له حاجبان كثيفان، ونظرته آسرة. «ماذا تريد؟ أعِد القابس».

«ها قد نلنا ترحيبًا في الوادي!»، قال هاول. «سأعيد القابس إن أجبتني عن سؤالي».

تنهد نيل. «إنني في خضم لعبة من ألعاب الحاسوب يا خالي هاول».

«لعبة جديدة؟»، سأل هاول.

أبدى كلا الولدين تبرمهما. «كلا، بل هي ما حصلت عليه في عيد الميلاد»، قال نيل. «إنك تعرف حق المعرفة ما يقولانه عن هدر الوقت والمال على أشياء لا جدوى منها. ولن يقدما لي أخرى حتى يوم ميلادي».

«هذه سهلة إذن»، قال هاول. «ولن تمانع في توقفك ما دامت لعبتها قبلًا، وسأرشوك بواحدة جديدة...».

«حقًا؟»، قال الولدان متحمسين، وأردف نيل «أبوسعك أن تجلب واحدة مما لم يحصل عليها أحد بعد؟».

«أجل. ولكن ألقِ نظرة على هذه أولًا وأخبرني ما هي»، قال هاول، ومد الورقة الرمادية اللامعة إلى نيل.

فتفحصها الولدان، وقال نيل «إنها قصيدة»، كما يقول معظم الناس «إنه جرذ ميت».

«هذه التي عينتها الآنسة أنغوريان لتكون الواجب المنزلي الأسبو

الماضي»، قال الولد الآخر. «أذكر منها «الريح» و«ذا زعانف». إنها عن الغواصات».

فطرف مايكل وصوفي بعيونهما لدى سماع هذه النظرية الجديدة، متعجبين أنها لم تخطر لهما، فقال نيل «هي! هذا واجبي المنزلي الذي بحثت عنه طويلًا. أين وجدته؟ أكانت تلك الكتابة الغريبة كتابتك؟ قالت الآنسة أنغوريان إنها مثيرة -لحسن حظي- وأخذتها معها».

«شكرًا لك»، قال هاول. «وأين تعيش؟».

«في الشقة الكائنة فوق متجر السيدة فيليب للشاي. في شارع كاردِف»، قال نيل. «متى ستجلب لي الشريط الجديد؟».

«حين تتذكر بقية القصيدة»، قال هاول.

«هذا ليس عدلًا!»، قال نيل. «لست أذكر ما كتب في القصاصة أيضًا. هذا تلاعب بمشاعر الآخرين...!» وسكت لما ضحك هاول، وتحسس جيبه الواسع وقدم له علبة منبسطة. «شكرًا!»، قال نيل بإخلاص، ومن دون مزيد من الضجيج استدار نحو صناديقه السحرية. غرس هاول حزمة من الجذور في الجدار باسمًا، وأخذ مايكل وصوفي خارج الغرفة. علا حماس الولدين في نشاط غامض، وحشرت ماري نفسها فيه، وهي تتابع واضعة إبهامها في فمها.

هرع هاول إلى السلالم الوردية والخضراء، لكن صوفي ومايكل مكثا قرب باب الغرفة، متسائلين عن الأمر برمته. في الداخل، كان نيل يقرأ «إنك في قلعة مسحورة ذات أربعة أبواب، كل منها ينفتح

على مدى مختلف. في المدى الأول تتحرك القلعة باستمرار وقد يحدق بها الخطر في أية لحظة...».

تعجبت صوفي من ألفة هذا الأمر وهي تعرج على الدرج. فوجدت مايكل يقف في منتصف الطريق بادٍ عليه الحرج. كان هاول في الأسفل يجادل أخته.

«ماذا تقصدين بقولك إنك بعت كل كتبي؟»، سمعت هاول يقول. «أحتاج أحدها على وجه التعيين. لم تكن كتبك لتبيعيها».

«لا تستمر في مقاطعتي!»، أجابته ميغن في صوت خفيض عنيف. «اسمعني الآن! لقد أخبرتك مرارًا أني لست بمستودع لمتلكاتك. إنك مصدر إحراج لي ولغارث، وأنت تتسكع بهذه الملابس بدلًا من ابتياع بدلة لائقة وأن تظهر بمظهر محترم ولو لمرة، وتتجول مع الرعاع والمتبطلين، وتحضرهم إلى بيتي! أتحاول الإزراء بي؟ لقد أنهيت تعليمك ولم تسع للحصول على عمل لائق، بل تكتفي بالتسكع وإضاعة الوقت الذي قضيته في الكلية، وهدر كل التضحيات التي قدمها الآخرون لك، ومبذرًا مالك...».

كانت ميغن مثيلة للسيدة فيرفاكس، فقد استمر صوتها واستمر. وأخذت صوفي تدرك كيف اكتسب هاول عادة التهرب. إن ميغن من الأشخاص الذين يجعلونك تود الخروج بهدوء من أقرب باب. لسوء الحظ، حوصر هاول عند السلالم، وانحشر صوفي ومايكل خلفه.

«... لم تنجز عملًا شريفًا في يوم، ولم تحصل على وظيفة أفخر

بها، بل تجلب العار لي ولغارث، وتأتي هنا لتفسد ماري بدلالك لها»، فسرت ميغن بلا أسف.

نحت صوفي مايكل جانبًا وخبطت نازلة الدرج، وهي تبدو وقورة بقدر ما استطاعت. «هيا بنا يا هاول»، قالت بغرور، «يجب أن نواصل طريقنا. فالمال يضيع بوقوفنا هنا وخدمك يبيعون سبائك الذهب. سررت جدًا بلقائك»، قالت لميغن حين وصلت نهاية الدرج، «ولكن علينا الإسراع. إن هاول رجل مشغول».

هدأت ميغن قليلًا وحملقت بصوفي. فأومأت لها صوفي إيماءة راقية ودفعت هاول نحو الباب الأمامي ذي الزجاج المضبب. كان وجه مايكل أحمر قانيًا. ورأت صوفي ذلك لأن هاول استدار ليسأل ميغن «أسيارتي القديمة في الكوخ، أم بعتها هي أيضًا؟».

«بحوزتك مفتاحها الوحيد»، أجابت ميغن بقسوة.

كان هذا الوداع الوحيد، وانصفق الباب الأمامي وأخذهما هاول إلى مبنى أبيض مربع في نهاية الطريق الأسود المعبد. لم يقل هاول شيئًا عن ميغن، بل قال وهو يفتح الباب الكبير في المبني «أحسب أن معلمة الإنجليزية الصارمة عندها نسخة من ذلك الكتاب».

تمنت صوفي أن تنسى الحادثة التالية. فقد ركبوا كلهم عربة لا تجرها خيول سارت بسرعة رهيبة، وهي تطلق الروائح وتهدر وترتج أثناء قطعها لأكثر الطرق انحدارًا مما رأته صوفي. كانت الطرق شديدة الانحدار فتعجبت صوفي أن البيوت التي تحفها لا

تنزلق في أكداس أسفلها. أغمضت عينيها وتشبثت ببعض القطع التي تمزقت من المقاعد، ورجت أن ينتهي الأمر قريبًا.

وقد حدث لحسن الحظ. فقد وصلوا إلى شارع أكثر استواءً ازدحمت البيوت على جانبيه، قرب نافذة كبيرة تحتلها ستارة بيضاء وملاحظة تقول: المتجر مغلق. ولكن رغم هذه الملاحظة الطاردة، حين ضغط هاول زرًا قرب باب صغير بجانب النافذة، فتحت الآنسة أنغوريان الباب. فنظروا كلهم إليها. بالنسبة لمعلمة مدرسة صارمة، كانت الآنسة أنغوريان شابة ورشيقة ومليحة على نحو يثير العجب. كان لها شعر منساب أسود مزرق يتدلى حول وجهها الأسمر بلون الزيتون على شكل قلب، وعينيها الكبيرتين الداكنتين. كان الأمر الوحيد الذي أوحى بصرامتها هو أسلوبها المباشر الحذق الذي تنظر بها عيناها الكبيرتان وقد قيمتهم جميعًا.

«سأخمن قليلًا وأقول إنك هاوِل جنكنز»، قالت الآنسة أنغوريان لهاول. كان لها صوت خفيض رخيم لكنه يبين البهجة والاعتداد بالذات.

بوغت هاول للحظة، ثم ارتسمت ابتسامته. وكانت هذه عندئذ وداعًا للأحلام السعيدة للتي والسيدة فيرفاكس، كما ظنت صوفي. إذ كانت الآنسة أنغوريان من صنف السيدات اللاتي يوقن المرء أن أحدًا مثل هاول سيقع في غرامهن في التو واللحظة. ولم يكن هاول وحده في هذا، إذ كان مايكل يحملق في إعجاب. ورغم أن البيوت المجاورة بدت مهجورة غير أن الشك لم يساور صوفي

في أنها مليئة بأشخاص يعرفون هاول والآنسة أنغوريان ويراقبون باهتمام ما سيحدث، وأحست بأعينهم الخفية. كانت ماركت تشپنغ هكذا أيضًا.

«ولا بد أنك الآنسة أنغوريان»، قال هاول. «يؤسفني إزعاجك، لكني ارتكبت خطأ غبيًا الأسبوع الماضي وحملت واجب اللغة الإنجليزية العائد لابن أختي بدلًا من ورقة مهمة أحملها بحوزتي. فهمت أن نيل أعطاها لك ليثبت أنه لم يكن يتهرب».

«فعل»، قالت الآنسة أنغوريان، «أفضّل أن تدخل لتأخذها».

كانت صوفي أكيدة أن العيون الخفية في كل البيوت جحظت وارتفعت الأعناق الخفية حين دخلت هي وهاول ومايكل من باب الآنسة أنغوريان وصعدوا قلبة الدرج إلى غرفة المعيشة الصغيرة البسيطة العائدة للآنسة أنغوريان.

قالت الآنسة أنغوريان باحترام لصوفي «ألن تجلسي؟».

لم تزل صوفي ترجف من تلك العربة التي لا تقودها خيول. فجلست مسرورة على أحد الكرسيين، ولم يكن مريحًا جدًا. لم تكن غرفة الآنسة أنغوريان مهيأة بوسائل الراحة بل الدراسة، ورغم غرابة كثير من الأشياء فيها، فقد تفهمت صوفي وجود جدران من الكتب، وأكداس من الورق على الطاولة، وأكوام من الملفات على الأرض. فجلست ورأت مايكل يحدق خجلًا وهاول يبدأ سحره.

«وكيف حدث أن عرفت من أكون؟»، سأل هاول مزجيًا الوقت.

«يبدو أنك أثرت الكثير من الأقاويل في هذه البلدة»، قالت الآنسة أنغوريان، وهي منشغلة بالتنقيب في الأوراق على الطاولة.

«وبم أخبرك الناس الذين يتناقلون النمائم؟»، سأل هاول. واتكأ مسترخيًا على طرف الطاولة وحاول النظر في عيني الآنسة أنغوريان.

«أنك تختفي وتظهر على حين غرة، من أجل أمر واحد»، قالت الآنسة أنغوريان.

«وماذا أيضًا؟»، تابع هاول حركات الآنسة أنغوريان بنظرة عرفت صوفي من خلالها أن فرصة لتي الوحيدة كانت في وقوع الآنسة أنغوريان في غرام هاول أيضًا من فورها.

لكن الآنسة أنغوريان لم تكن من هذا الصنف من النساء. قالت «أشياء أخرى كثيرة، قليل منها في صالحك»، وجعلت مايكل يحمر بالنظر إليه ثم إلى صوفي بأسلوب أوحى أن هذه الأمور لا تناسب أسماعهما. مدت ورقة مصفرة متموجة الأطراف نحو هاول. «ها هي»، قالت بصرامة، «أتعرف ما هي؟».

«طبعًا»، قال هاول.

«أخبرني من فضلك إذن»، قالت الآنسة أنغوريان.

أخذ هاول الورقة، ونشب شغب بسيط حين حاول أخذها من يد الآنسة أنغوريان، لكنها فازت ووضعت يدها خلف ظهرها. ابتسم هاول بلطف ومرر الورقة إلى مايكل وقال «أخبرها».

توهج وجه مايكل المحمرّ حين نظر إليها. «إنها الرقية! أوه، يمكنني صنع هذه... إنها رقية تكبير، أليس كذلك؟».

«هذا ما ظننته»، قالت الآنسة أنغوريان بشيء من الاتهام. «أود أن أعرف ماذا كنت تفعل بشيء كهذا».

قال هاول «إن سمعت كل هذه الأمور عني، فلا بد أنك تعرفين أنني أعد رسالة الدكتوراه عن التعويذات والرقى. تبدين كأنك تشكين في أني أمارس السحر الأسود! أؤكد لك أنني لم أصنع أي نوع من التعويذات في حياتي». لم تستطع صوفي منع نفسها من النخير على هذه الكذبة الوقحة. «وأضع يدي على قلبي»، عقب هاول، عابسًا في وجه صوفي تقطيبة استياء، «أن هذه الرقية بغرض الدراسة فحسب. إنها قديمة للغاية ونادرة. ولذا أردت استعادتها».

«حسن، لقد استعدتها»، قالت الآنسة أنغوريان بحماس. «أتمانع أن تعطيني في المقابل صفحة الواجب المنزلي قبل مغادرتك؟ فالنسخ مكلف».

أخرج هاول ورقة رمادية مذعنًا ومدها بعيدًا عن متناولها، وقال «لقد أزعجتني هذه القصيدة. سخيفة حقًا! لكني لا أذكر بقيتها. أهي لوولتر رالي؟».

نظرت إليه الآنسة أنغوريان نظرة متعبة. «كلا قطعًا. إنها لجون دَنّ وهي مشهورة حقًا. لدي الكتاب الذي يتضمنها هنا، إن شئت إنعاش ذاكرتك».

«من فضلك»، قال هاول، ومن الطريقة التي لاحقت بها عيناه الآنسة أنغوريان وهي تتجه نحو جدار الكتب، أدركت صوفي أن هذا هو السبب الحقيقي الذي دعا هاول إلى القدوم إلى هذه البلاد الغريبة حيث تعيش عائلته. لكن هاول لم يكن بمنأى عن ضرب عصفورين بحجر واحد، إذ قال «آنسة أنغوريان»، متوسلًا متتبعًا تقاطيعها وهي تتمطط لتناول الكتب «ما رأيك في الخروج لتناول العشاء معي الليلة؟».

استدارت الآنسة أنغوريان وهي تحمل كتابًا كبيرًا، وتبدو أكثر صرامة من ذي قبل. «كلا»، قالت. «لست أدري ما الذي بلغك عني يا سيد جنكنز، لكن لا بد أنك سمعت أني ما زلت أعد نفسي خطيبة بن سولفن...».

«لم أسمع به قط»، قال هاول.

«إنه خطيبي»، قالت الآنسة أنغوريان. «لقد اختفى قبل بضع سنوات. والآن، أتود أن أقرأ عليك هذه القصيدة؟».

«افعلي»، قال هاول، بلا أثر للندم، «إن لك صوتًا جميلًا».

«سأبدأ من المقطع الثاني إذن»، قالت الآنسة أنغوريان، «ما دام المقطع الأول في حوزتك». فقرأت قراءة رائعة، ليست منغمة فحسب، بل بأسلوب جعل المقطع الثاني يناسب إيقاع المقطع الأول، الذي لم يكن له إيقاع في نظر صوفي:

«إن كنتَ ولدت بأرض عجب

وترى ما عجزُ العين حجب

فاركب عشرة آلاف مغيب

حتى يمطر شعرك بمشيب

ستعود لتروي لي ما كان

وعجائب لم تحكَ لإنسان

وستقسم لي:

ما مرّت بي

لم ترَ عيني في أي مكان

حسناءَ ومخلصة في آن

إن أكرمك الحظ...»[1]

شحب هاول شحوبًا مريعًا، ورأت صوفي العرق يتصبب على وجهه. «شكرًا لك»، قال. «توقفي هنا. لن أزعجك بقراءة البقية. حتى المرأة الصادقة في السطر الأخير ليست حقيقية، أليست كذلك؟ أتذكرها الآن. يا لسخافتي، إنه جون دَنّ طبعًا». أنزلت الآنسة أنغوريان الكتاب ونظرت إليه، فتكلف الابتسام «علينا الذهاب الآن. أواثقة أنك لن تغيري رأيك بشأن العشاء؟».

«لن أفعل»، قالت الآنسة أنغوريان، «أأنت على ما يرام يا سيد جنكنز؟».

---

(١) الترجمة لبهاء جاهين، سبق ذكرها.

«على خير ما يرام»، قال هاول، وتعجل مايكل وصوفي في نزول السلالم وركوب العربة الفظيعة التي لا تقودها الخيول. لا بد أن المراقبين الخفيين في البيوت ظنوا الآنسة أنغوريان تطاردهم ممتشقة سيفًا، إن حكموا من السرعة التي دفعها بها هاول إلى العربة وابتعد.

«ما الأمر؟»، سأل مايكل حين مضت العربة تهدر وتجرش صاعدة التل ثانية، وتشبثت صوفي بمزق المقعد حفاظًا على حياتها الغالية. تظاهر هاول أنه لم يسمع، فانتظر مايكل حتى أقفل هاول على العربة في كوخها وكرر سؤاله.

«أو، لا شيء»، قال هاول مرحًا، متقدمًا إياهما عائدين إلى البيت الأصفر المسمى رايڤندل. «لقد لاحقتني ساحرة اليباب بلعنتها، هذا كل ما في الأمر. سيحدث ذلك عاجلًا أم آجلًا». بدا كمن يحسب في عقله أو يجمع حين فتح بوابة الحديقة. «عشرة آلاف»، سمعت صوفي همسه. «هذا يعني أنها ستحدث في نهار منتصف الصيف».

«ما الذي سيحدث في نهار منتصف الصيف؟»، سألت صوفي.

«سيكون اليوم الذي يبلغ فيه عمري عشرة آلاف يوم»، قال هاول. «وهذا يا سيدة حشورة»، قال مائلًا نحو حديقة رايڤندل، «هو اليوم الذي يتعين علي فيه العودة إلى ساحرة اليباب». مكثت صوفي ومايكل في الدرب، يحدقان بظهر هاول، المزين بالعبارة شديدة الغموض رغبي ويلز. «إن ابتعدت عن الحوريات»، سمعاه يغمغم، «ولم أمس جذر اليبروح...».

ناداه مايكل «أيجب علينا العودة إلى ذلك البيت؟»، ونادته صوفي «ما الذي ستفعله الساحرة؟».

«تعروني رعشة إن فكرت»، قال هاول. «لست مضطرًا للدخول يا مايكل».

فتح الباب ذا الزجاج المضبب، وفي الداخل كانت الغرفة المألوفة للقلعة. كانت شعلات كالسيفر الناعس تصبغ الجدران بلون أزرق مخضر خافت في الشفق. فرفع هاول كميه الطويلين وقدم جذلًا لكالسيفر.

«لقد أوقعت بي يا أزرق الوجه»، قال.

«أعلم ذلك»، قال كالسيفر. «أحسست بسيطرتها».

الفصل الثاني عشر
وفيه تصبح صوفي الأم العجوز لهاول

لم تر صوفي فائدة كبيرة في تشويه سمعة هاول لدى الملك بعد أن كشفت أمره ساحرةُ اليباب. لكن هاول قال إن الأمر أكثر أهمية من ذي قبل. «سأحتاج كل ما لدي للنجاة من الساحرة»، قال، «ولا أحتمل أن يلاحقني الملك أيضًا».

فلبست صوفي بعد ظهر اليوم التالي ثيابها الجديدة وجلست وهي تشعر أنها على خير ما يرام، رغم شيء من التصلب، تنتظر استعداد مايكل وانتهاء هاول من الاستحمام. وأثناء انتظارها أخبرت كالسيفر عن البلاد الغريبة التي تسكنها عائلة هاول، إذ صرفها هذا عن التفكير بالملك.

أبدى كالسيفر اهتمامًا شديدًا وقال «أعرف أنه أتى من بلاد أجنبية، لكن هذا يبدو عالمًا آخر. ذكاء من الساحرة أن ترسل اللعنة من هناك، ذكاء شديد حقًا. هذا السحر الذي يبهرني، استخدام شيء موجود أصلًا وتحويله إلى لعنة. لقد تعجبت منها حين قرأتها أنت ومايكل ذلك اليوم. لقد أخبرها هاول الأحمق الكثير عن نفسه».

نظرت صوفي إلى وجه كالسيفر الأزرق النحيل. لم تستغرب إعجاب كالسيفر باللعنة، ولا استغربت نعته هاول بالأحمق، فقد كان يشتم هاول دومًا. لكنها لم تتيقن يومًا إن كان كالسيفر يضمر كراهية لهاول، فقد بدا شريرًا للغاية على أية حال ويصعب الجزم بذلك.

حرك كالسيفر عينيه البرتقاليتين لينظر إلى صوفي، وقال: «إنني خائف أيضًا. سأتألم مثل هاول إن أمسكت به الساحرة. وإن لم تبطلي العقد قبل أن تمسك به، فلن يسعني مساعدتك أبدًا».

وقبل أن تسنح الفرصة لصوفي لتسأله المزيد، خرج هاول من الحمام مندفعًا وهو في أبهى حلله، يملأ الغرفة بشذى الزهور ويصيح مناديًا مايكل. فرقع مايكل نازلًا الدرج لابسًا بدلته المخملية الزرقاء الجديدة. ونهضت صوفي وأمسكت بعصاها المؤتمنة، فقد حان وقت الذهاب.

«تبدين ثرية وراقية للغاية!»، قال لها مايكل.

«إنها تشرّفني»، قال هاول، «بغض النظر عن تلك العصا الكريهة القديمة».

«بعض الناس»، قالت صوفي، «شديدو العُجْب بأنفسهم. سترافقني العصا، إذ أحتاجها للدعم المعنوي».

نظر هاول إلى السقف، لكنه لم يجادلها.

ومضوا في طريقهم الجليل في شوارع كنغزبري. نظرت صوفي

إلى الوراء من غير شك لترى كيف تبدو القلعة من هنا، فرأت بوابة كبيرة مقوسة تطوق بابًا أسود صغيرًا. وبدت بقية القلعة كأنها امتداد عديم اللون لسور مجصص بين بيتين حجريين منقوشين.

«قبل أن تسألي»، قال هاول. «إنه إسطبل مهجور فحسب. من هنا».

مشوا في الشوارع، وهم يبدون بأناقة أي واحد من المارة. لم يكن في الشوارع أناس كثيرون، فالطريق إلى كنغزبري طويل جنوبًا، وكان يومًا حارًا هناك، والتمعت الأرصفة. اكتشفت صوفي نقيصة أخرى للشيخوخة؛ إذ يشعر المرء بالغرابة في الطقس الحار. وقد تمايلت المباني الأنيقة أمام عينيها، فاستاءت لأنها أرادت أن ترى المكان، وكل ما حصلت عليه انطباع مشوش عن القباب الذهبية والبيوت العالية.

«بالمناسبة»، قال هاول، «ستناديك السيدة پنتستمن بالسيدة پندراغن، فهذا هو الاسم الذي أعرف به».

«ولأي غرض؟»، قالت صوفي.

«للتخفي»، قال هاول. «پندراغن اسم جميل، أجمل بكثير من جنكنز».

«لقد عشت حياتي باسم عادي»، قالت صوفي وهم ينعطفون إلى شارع ضيق بارد مريح.

«لا يسعنا أن نكون كلنا مثل آل هاتر المجانين»، قال هاول.

كان بيت السيدة پنتستمن فاخرًا عاليًا قرب نهاية الشارع الضيق. كان فيه أشجار برتقالية في أحواض على جانبي بابه الأمامي الجميل. فتح الباب خادم مسن يلبس بزة سوداء من القطيفة، أخذهم إلى بهو عذب البرودة أرضيته من الرخام المضلع بالأبيض والأسود، حيث حاول مايكل خفية أن يمسح العرق عن وجهه. عامل هاول، الذي يبدي البرود دومًا، الخادم كأنه صديق قديم ومازحه.

سلمهم الخادم إلى غلام يلبس بزة حمراء من القطيفة. أخذت صوفي، حين صعد بهم الصبي بحفاوة درجًا لامعًا، تدرك السبب الذي يجعل من هذا تدريبًا جيدًا على لقاء الملك، فقد أحست أنها في قصر. حين أدخلهم الصبي إلى حجرة استقبال ظليلة، كانت أكيدة أن القصر لن يكون بمثل هذه الأناقة. كل شيء في الغرفة أزرق وذهبي وأبيض، وصغير وأنيق. وكانت السيدة پنتستمن الأكثر أناقة، إذ كانت طويلة نحيلة، وجلست مستقيمة الظهر على كرسي مزخرف باللونين الذهبي والأزرق، تسند نفسها بتصلب وإحدى يديها تلبس قفازًا مشبكًا ذهبيًا تمسك عصا ذهبية الرأس. كانت تلبس ثوبًا حريريًا بلون الذهب العتيق، ذي طراز قديم متحفظ جدًا، ينتهي بغطاء للرأس بلون الذهب العتيق يشبه التاج، وربط بربطة فراشة كبيرة باللون نفسه تحت وجهها الذاوي العقابي. كانت أرقى السيدات وأكثرهن إرهابًا ممن رأت صوفي في حياتها.

«آه، عزيزي هاوِل»، قالت مادة يدها المقفزة بالشبك الذهبي.

انحنى هاول وقبّل القفاز، كما يفترض به من غير شك. وفعل ذلك بلباقة شديدة، لكن أفسدها قليل رؤية هاول يخبط بيده الأخرى لمايكل يعنف من خلف ظهره. فهم مايكل ببطء أنه يفترض به أن يقف قرب الباب بجانب الوصيف. فتراجع هناك على عجل، وهو في غاية السرور لأنه سيبتعد بقدر ما يستطيع عن السيدة پنتستمن.

«اسمحي لي أن أعرفك على أمي العجوز يا سيدة پنتستمن»، قال هاول، ملوحًا بيده لصوفي. ولما أحست صوفي بما أحس به مايكل، فقد تعين على هاول أن يخبط بيدها لها أيضًا.

«يسرني. يسعدني»، قالت السيدة پنتستمن، ومدت قفازها الذهبي نحو صوفي. لم تكن صوفي أكيدة إن كان قصد السيدة پنتستمن أن تقبّل قفازها أيضًا، لكنها لم تجرؤ على المحاولة. بل وضعت يدها على القفاز. وبدت اليد السفلى مثل مخلب عجوز بارد. تعجبت صوفي بعد لمستها من أن تكون السيدة پنتستمن على قيد الحياة. «اغفري لي عدم نهوضي يا سيدة پندراغن»، قالت السيدة پنتستمن. «فصحتي ليست على ما يرام، وقد اضطرتني إلى التقاعد من التعليم قبل ثلاث سنوات. اجلسي من فضلك، اجلسا كلاكما».

جلست صوفي، وهي تحاول ألا ترتجف توترًا، بأناقة على الكرسي المزخرف المقابل لكرسي السيدة پنتستمن، متكئة على عصاها فيما رجت أن يكون على القدر نفسه من الأناقة. تمدد هاول برشاقة على كرسي قربه. وتصرف كأنه في بيته، وحسدته صوفي:

«أنا في السادسة والثمانين»، قالت السيدة پنتستمن. «كم عمرك يا عزيزتي السيدة پنتستمن؟».

«تسعون»، قالت صوفي، وكان هذا أول رقم كبير خطر لها.

«حقًا؟»، قالت السيدة پنتستمن بما بدا حسدًا طفيفًا أنيقًا. «محظوظة أنت إذ ما زال بوسعك التحرك بهذه الرشاقة».

«اوه، أجل. إنها رشيقة للغاية»، وافقها هاول، «ولا شيء يوقفها أحيانًا».

فنظرت السيدة پنتستمن نظرة أوحت لصوفي أنها كانت مدرسة صارمة بقدر الآنسة أنغوريان. ثم قالت «إنني أتحدث إلى أمك. أستطيع القول إنها فخورة بك مثلي، فكلانا سيدة عجوز كان لها يد في تشكيلك. يسع المرء القول إنك صنعتنا المشتركة».

«ألا تظنين أنني فعلت شيئًا بنفسي؟»، سأل هاول. «أضفت قليلًا من لمساتي؟».

«القليل، وهي ليست مما يعجبني»، أجابت السيدة پنتستمن. «لكنك لا ترغب في الجلوس هنا وسماع نقاشنا عنك ستنزل وتجلس في الشرفة، مصطحبًا وصيفك معك، حيث سيجلب لكما هَنش شرابًا باردًا. امض».

لو لم تكن صوفي متوترة للغاية، لضحكت على التعبير الذي ارتسم على وجه هاول. فلا بد أنه لم يتوقع حدوث هذا البتة. لكنه نهض، رافعًا كتفيه قليلًا، ووجّه لصوفي وجهًا محذرًا، ودفع مايكل

ليتقدمه خارج الغرفة. أدرات السيدة بِنتستمن جسمها المتصلب قليلًا لتراهما يخرجان، ثم أومأت للوصيف فخرج مسرعًا أيضًا. وبعد ذلك أدارت السيدة بِنتستمن نفسها عائدة إلى صوفي، التي ازداد توترها أكثر من ذي قبل.

«أحبه أكثر بشعره الأسود»، قالت السيدة بِنتستمن. «إن الصبي يتجه للانحراف».

«من؟ مايكل؟»، قالت صوفي محتارة.

«ليس الخادم»، قالت السيدة بِنتستمن. «لا أظن له من الذكاء ما قد يشعرني بالقلق. إنني أتحدث عن هاوِل يا سيدة بِندراغن».

«أوه»، قالت صوفي وهي تتساءل عما دعا السيدة بِنتستمن لقول «يتجه»، فقد بلغ هاول الانحراف منذ زمن بعيد قطعًا.

«انظري إلى مظهره»، قالت السيدة بِنتستمن مفصّلة، «انظري إلى ثيابه».

«إنه شديد العناية بمظهره دومًا»، وافقتها صوفي وتساءلت عما دعاها لقول ذلك بلطف.

«وكان هكذا دومًا. وأنا شديد العناية بمظهري أيضًا، ولا أرى ضيرًا في ذلك»، قالت السيدة بِنتستمن. «ولكن ما الذي يدعوه إلى التجول لابسًا بدلة مسحورة؟ إنها تعويذة الانجذاب والإبهار، موجهة إلى السيدات، ولا بد من الاعتراف أنه أبلى حسنًا فيها، ولا تكاد تكتشف حتى لعين خبيرة كعيني، إذ يبدو أنها مخبأة في

الدرزات، وهي تعويذة تجعل السيدات لا يستطعن مقاومته وهذا يظهر ميلًا منحطًا إلى فنون السحر الأسود التي لا بد أن تثير قلق الأم فيك يا سيدة پندراغن».

تذكرت صوفي باستياء البدلة ذات اللونين الرمادي والقرمزي. فقد خاطت الدرزات دون أن تلاحظ أي شيء غريب فيها، لكن السيدة پنتستمن خبيرة في السحر، وصوفي خبيرة في الثياب فحسب.

وضعت السيدة پنتستمن قفازيها الذهبيين على رأس عصاها، وأمالت جسدها المتصلب لتتمكن عيناها الخبيرتان الثاقبتان من النظر في عيني صوفي، فازداد قلق صوفي واستياؤها. قالت السيدة پنتستمن «إن حياتي قاربت على النهاية، إذ أشعر بالموت يتسلل إلي في وقت قريب».

«أوه، أنا واثقة أن هذا لن يحدث»، قالت صوفي محاولة أن تواسيها. كان صعبًا فعل أي شيء والسيدة پنتستمن تحدق بها هكذا.

«أؤكد لك أنه سيحدث»، قالت السيدة پنتستمن. «ولهذا أردت رؤيتك بشدة يا سيدة پندراغن. لقد كان هاوِل آخر تلامذتي وأفضلهم كما تعلمين، إذ كنت أقترب من التقاعد حين أتى إلي من بلاد أجنبية. ظننت عملي انتهى حين دربت بنجامن سولڤن -الذي تعرفينه على الأرجح باسم الساحر سولمن، لترقد روحه بسلام!- وتحصّلت له على منصب ساحر البلاط. الأمر الأغرب أنه أتى من بلاد هاول نفسها، ثم جاء هاول، ورأيت على الفور أنه يملك ضعفي الخيال وضعفي القدرات [التي يملكها سولمن]، ورغم

اعترافي بنقائص شخصيته، فإني أدركت أنه قوة للخير. هذا جيد يا سيدة بندراغن. ولكن ما هو الآن؟».

«ماذا حقًا؟»، قالت صوفي.

«لقد حدث له أمر ما»، قالت السيدة بنتستمن ولم تزل تحدق في صوفي بنظرات ثاقبة. «وأنا عازمة على إعادة الأمور إلى مسارها الصحيح قبل مماتي».

«ما الذي حدث برأيك؟»، سألت صوفي قلقة.

«سأعتمد عليك لتجيبيني عن هذا»، قالت السيدة بنتستمن. «قلبي يحدثني أنه اتخذ المسار الذي اتخذته ساحرة اليباب. قالوا لي إنها لم تكن شريرة من قبل، رغم أني عرفت هذا من الأقاويل فحسب، فهي أكبر من كلينا وتحافظ على شبابها بفنون السحر. إن لهاول مواهب كمواهبها، ويبدو أن أصحاب القدرات الفائقة لا يستطيعون مقاومة لمسة إضافية خطيرة من الذكاء، ينجم عنها عيب مهلك ويبدأ الميل البطيء نحو الشر. أثمة احتمال أنك تعرفين ما قد يكون؟».

فتذكرت صوفي صوت كالسيفر وهو يقول «إن العقد لا يجدي نفعًا أيًا منا في المدى الطويل». فسرت فيها البرودة رغم حرارة النهار التي تهب من النوافذ المفتوحة للغرفة الظليلة الأنيقة. فقالت «أجل. لقد أبرم عقدًا ما مع عفريت النار».

اهتزت يدا السيدة بنتستمن قليلًا على عصاها. «هذا هو. عليك إبطال ذلك العقد يا سيدة بندراغن».

«سأفعل إن عرفت كيف»، قالت صوفي.

«سيخبرك إحساس الأم وموهبة السحر القوية لديك كيف تفعلين ذلك قطعًا»، قالت السيدة بنتستمن. «كنت أنظر إليك يا سيدة بندراغن، لعلك لم تلاحظي...».

«أوه، لاحظت يا سيدة بنتستمن»، قالت صوفي. «... وأحب موهبتك»، قالت السيدة بنتستمن، «فهي تنفخ الحياة في الأشياء، كتلك العصا التي في يدك، التي تحدثت إليها من غير شك، إلى حد أنها غدت ما يسميه العوام عصًا سحرية. وأحسب أنك لن يصعب عليك إبطال العقد».

«أجل. ولكني بحاجة لمعرفة بنوده»، قالت صوفي. «أأخبرك هاول أني كنت ساحرة؟ لأنه إن فعل...».

«لم يقل، ولا داعي للخجل. يمكنك الاعتماد على خبرتي في معرفة هذه الأمور»، قالت السيدة بنتستمن. ثم أغمضت عينيها وأحست صوفي بالارتياح، كأنها أطفئ مصباح قوي. «لست أعرف، ولا أرغب في أن أعرف، عن عقود كهذا»، قالت وقد اهتزت عصاها ثانية كأنها ترتجف. والتوى فمها في خط، موحيًا أنها عضت فجأة على قرن فلفل. ثم قالت «لكني الآن أرى ما الذي حدث للساحرة. لقد أبرمت عقدًا مع عفريت نار، وبمرور السنين، سيطر عليها ذلك العفريت. فالعفاريت لا تفرق بين الخير والشر، ولكن يسهل رشوتها في عقد، يقدم فيه البشري لها شيئًا ذا قيمة، شيئًا لا يملكه إلا البشر. وهذا يطيل حياة البشري والعفريت معًا،

ويحصل البشري على قدرة العفريت السحرية ليضيفها إلى قواه».
فتحت السيدة پنتستمن عينيها ثانية. «هذا كل ما يمكنني قوله حول الموضوع»، قالت، «إلى جانب نصحي لك بأن تعرفي ما الذي حصل عليه العفريت. عليّ توديعك الآن، فلا بد أن أنال قسطًا من الراحة».

وكالسحر، وهو ما كان على الأغلب، انفتح الباب ودخل الوصيف ليرافق صوفي خارج الغرفة. كانت صوفي مسرورة جدًا لذهابها، فقد كانت تتلوى من الإحراج. نظرت للوراء إلى قوام السيدة پنتستمن المتصلب المستقيم الظهر حين أغلق الباب وتساءلت إن كانت ستشعر بالاستياء بهذا القدر إن كانت الوالدة العجوز لهاول حقًا وصدقًا. ورأت أنها ستفعل ‹وإني لأحيي هاول لقدرته على احتمال أن تكون مدرّسته أكثر من يوم واحد!›.

«سيدتي؟»، سأل الوصيف ظانًا صوفي تتحدث إليه.

«قلت انزل الدرج ببطء وإلا لن أستطيع اللحاق بك»، أخبرته صوفي. كانت ركبتاها ترتجفان «فأنتم الصبيان الصغار تندفعون مسرعين»، قالت.

فرافقها الوصيف ببطء واحترام نازلًا الدرج اللامع. في منتصف الطريق تعافت صوفي من شخصية السيدة پنتستمن لتفكر فيما قالته السيدة فعلًا. قالت إن صوفي ساحرة، والغريب أن صوفي تقبلت هذا الأمر دون أي عناء. وقالت في نفسها إن هذا يفسر رواج بعض القبعات، وفسرت فرار جين فارير مع الكونت واتست، ولربما فسرت غيرة ساحرة اليباب. كأنما صوفي عرفت هذا دومًا،

لكنها ظنت امتلاك موهبة في السحر أمرًا غير لائق لأنها كانت كبرى ثلاث أخوات، وكانت لتي أكثر تعقلًا في أمور كهذه.

ثم تذكرت البدلة ذات اللونين الرمادي والقرمزي وكادت تقع من الدرج مذعورة. كانت هي من وضعت التعويذة فيها، وسمعت نفسها وهي تغمغم قائلة «خلق لجذب الفتيات!»، قالت للبدلة، وهذا ما فعلته طبعًا. إذ جذبت لتي ذلك اليوم في البستان، والبارحة، رغم أنها مغطاة نوعًا ما، كان لها تأثيرها الخفي على الآنسة أنغوريان.

أوه يا إلهي! قالت صوفي في نفسها، لقد مضيت وضاعفت عدد القلوب التي سيكسرها! لا بد أن أجعله يخلع تلك البدلة بصورة ما!

كان هاول، في البدلة نفسها، منتظرًا مع مايكل في البهو البارد المضلع بالأسود والأبيض. لكز مايكل هاول قلقًا لما نزلت صوفي الدرج ببطء خلف الصبي، فارتسم الحزن على وجه هاول وقال «تبدين منهكة. أحسبِ أنه يجدر بك أن تنسي أمر لقاء الملك. سأذهب وأشوه سمعتي حين أقدم له اعتذارك. أستطيع القول أن شرّي قد أوقعك صريعة المرض، وقد يكون هذا حقيقيًا نظرًا لهيئتك».

لم ترغب صوفي حتمًا بلقاء الملك، لكنها فكرت بما قاله كالسيفر. إن أمر الملك هاول بالذهاب إلى أرض اليباب وأمسكت به الساحرة، فإن فرصة صوفي في العودة إلى الشباب ستتلاشى أيضًا.

فهزت رأسها وقالت: «بعد السيدة ينتستمن، سيكون ملك إنغري مثل أي امرئ عادي».

الفصل الثالث عشر
وفيه صوفي تشوه سمعة هاول

عاد الإحساس بالغرابة يراود صوفي بلا ريب حين وصلوا القصر، فقد أذهلتها قبابه الذهبية الكثيرة كان الطريق إلى المدخل الأمامي يعلو قلبة كبيرة من العتبات، ويحرس كل ست عتبات جندي يلبس القرمزي. لا بد أن الفتية المساكين يوشكون على الإغماء في هذه الحرارة، هذا ما فكرت به صوفي وهي تلهث صاعدة طريقها دائخة أثناء مرورها بهم. أعلى العتبات ممرات مقنطرة وأبهية، وممرات وأروقة الواحد منها في أثر الآخر، ولم تستطع صوفي عدّها. كان عند كل ممر مقنطر شخص ذو ثياب بهية يضع قفازين أبيضين -حافظ على بياضهما رغم الحرارة- يسأل عن أمرهم ثم يأخذهم إلى الشخص الآخر في الممر المقنطر التالي.

«السيدة بندراغن للقاء الملك!»، تردد رجع الصوت في الأبهية.

أُبعد هاول بتهذيب منتصف الطريق وطلب منه الانتظار. واستمر تسليم مايكل وصوفي من شخص لآخر. وأخذا إلى أعلى السلالم التي بعدها لبس الأشخاص ثيابًا زرقاء بدلًا من الحمراء،

واستمر تمريرهما حتى وصلا إلى حجرة انتظار مكسوة بألواح خشبية بمئة لون. هنالك أخذ مايكل وطلب منه الانتظار. أما صوفي، التي لم تكن واثقة عندئذ أنها ليست في حلم غريب، أُخذت عبر أبواب ضخمة، وتردد الصدى ليقول هذه المرة «إن السيدة پندراغن هنا لرؤيتك يا صاحب الجلالة».

وهنالك كان الملك، ليس على عرش، بل جالس على كرسي مربع عليه قليل من رقائق الذهب، قرب منتصف غرفة كبيرة، ويلبس ثيابًا أكثر تواضعًا من الأشخاص الذين يخدمونه. كان وحده، مثل شخص عادي. صحيح أنه جلس مادًا ساقًا واحدة في هيئة ملكية، وأنه كان وسيمًا جسيمًا يكتنفه شيء من الغموض، لكنه بدا في عين صوفي حديث السن عليه أثر من الكبر لكونه ملكًا. وخطر لها أن عليه، بوجهه هذا، أن يكون أكثر شكًا في نفسه.

قال «حسن، لأي شيء تريد والدة الساحر هاول رؤيتي؟».

وفجأة انذهلت صوفي من حقيقة أنها واقفة تتحدث إلى الملك. وقالت في نفسها دائخة كأن الرجل الجالس هناك والشيء الضخم المهم وتعني المَلَكية شيئان منفصلان صادف أنهما يشغلان الكرسي نفسه. وأدركت أنها نسيت كل كلمة من الأمور الحساسة المهمة التي أملاها عليها هاول لتقولها، لكنها مضطرة لقول شيء.

«أرسلني لأقول لك إنه لن يبحث عن أخيك»، قالت، «يا صاحب الجلالة».

نظرت إلى الملك، وبادلها الملك النظر، كان ذلك كارثة.

«أأنت أكيدة؟»، سأل الملك، «فقد بدا الساحر مسعدًا تمامًا حين تحدثت إليه».

الأمر الوحيد الذي بقي في ذهن صوفي هو أنها هنا لتشويه سمعة هاول، فقالت «لقد كذب في ذلك، إذ لم يرد أن يغضبك. إنه متهرب متسكع إن كنت تفهم ما أعني يا صاحب الجلالة».

«ويرجو أن يتملص من العثور على أخي جستن»، قال الملك، «فهمت. هلا جلست، إذ أرى أنك لست بشابة، وأخبرتني بأسباب الساحر؟».

كان بعيدًا عن الملك كرسي عادي آخر. طقطقت صوفي وهي تجلس وأسندت يديها على عصاها مثل السيدة بنتمتسمن، راجية أن يمنحها هذا شعورًا أفضل. غير أن عقلها لم يزل أبيض فارغًا صاخبًا من رهبة الموقف. وكل ما استطاعت التفكير في قوله «لن يرسل أحد أمه العجوز لتشفع له إلا جبان، وبوسعك أن تدرك حقيقته من هذا الأمر يا صاحب الجلالة».

«إنها لخطوة غير مسبوقة»، قال الملك بوقار، «لكني أخبرته أني سأجزل له العطاء لدى موافقته».

«أوه، إنه لا يكترث لأمر المال»، قالت صوفي. «لكنه خائف حتى الموت من ساحرة اليباب، كما تعلم. فقد ألقت عليه لعنة وكشفت أمره».

«فله الحق كله في أن يتملكه الخوف»، قال الملك برعشة خفيفة. «ولكن أخبريني المزيد عن الساحر من فضلك».

المزيد عن هاول؟ فكرت صوفي يائسة. علي تشويه سمعته! كان ذهنها فارغًا حد أنها لهنيهة رأت هاول بلا عيوب، يا للغباء! «حسن، إنه طائش، لا مبالٍ، أناني ومجنون»، قالت. «أظن نصف الوقت أنه لا يبالي بما يحدث لأي امرئ ما دام هو بخير، ثم أعرف أنه أحسن إحسانًا عظيمًا إلى أحدهم. ثم أراه لطيفًا حين يناسبه فعل ذلك فحسب، فأكتشف عندئذ أنه يتقاضى أجورًا زهيدة من الفقراء. لست أدري يا صاحب الجلالة، إنه غامض».

«أرى»، قال الملك، «أن هاول محتال مراوغ عديم المبادئ طلق اللسان لبيبًا، أتوافقيني الرأي؟».

«لقد أجدت في وصفه حقًا!»، قالت صوفي بحماس. «لكنك أغفلت أنه مغرور و...»، ونظرت إلى الملك بارتياب عبر ياردات السجادة، فقد بدا مستعدًا استعدادًا يثير العجب لمساعدتها في تشويه سمعة هاول. كان الملك يبتسم ابتسامة صغيرة مرتابة تتماشى مع شخصه الحقيقي، أكثر من الملك الذي يجب أن يكونه. قال «شكرًا لك يا سيدة پندراغن، لقد أزاحت صراحتك العبء عن كاهلي. لقد وافق الساحر على البحث عن أخي بسرعة شديدة لذا ظننت أنني أسأت اختيار الرجل. وقد خشيت أن يكون امرأ يعجز عن مقاومة التباهي أو يفعل أي شيء مقابل المال. لكنك أثبتِ لي أنه الرجل الذي أحتاجه تمامًا».

«أوه، اللعنة!»، قالت صوفي. «لقد أرسلني لأخبرك أنه ليس كذلك!».

«وهذا ما فعلت»، دفع الملك كرسيه إنشًا باتجاه صوفي. «دعيني أكن صريحًا بالقدر نفسه»، قال. «أحتاج بشدة استعادة أخي يا سيدة پندراغن. ولا يتعلق الأمر بحبي له وندمي على الشجار الذي نشب بيننا فحسب، ولا لأن بعض الناس يتهامسون أنني أبعدته بنفسي، وأي امرئ يعرف كلينا يعرف أن هذا كلام فارغ. كلا يا سيدة پندراغن. فالحقيقة أن أخي جستن جنرال لامع، ولما كانت هاي نورلند وسترانجيا على وشك إعلان الحرب علينا، فلن أتمكن من النجاح بدونه. لقد هددتني الساحرة أيضًا كما تعلمين. تُجمع كل التقارير أن جستن قد ذهب حقًا إلى أرض اليباب، وأنا واثق أن الساحرة تعمدت أن أكون وحدي بدونه وأنا بأشد الحاجة إليه. وأظنها أخذت الساحر سولمن طعمًا لاستدراج جستن. وهذا يعني أني بحاجة إلى ساحر شديد الذكاء عديم الضمير ليعيده».

«سيهرب هاول»، حذرت صوفي الملكَ.

«كلا»، قال الملك. «لا أظنه سيفعل. وهذا ما أوحى به إليّ إرساله إياك للملاقاتي. لقد فعل هذا ليظهر لي أنه جبان جدًا ولن يهتم برأيي به؟ أليس هذا صحيحًا يا سيدة پندراغن؟».

هزت صوفي رأسها موافقة، وتمنت لو أنها تذكرت كل تعليقات هاول الدقيقة، إذ سيفهمها الملك عندئذ وإن لم تفعل هي.

«ليس هذا بفعل رجل مغرور»، قال الملك. «ولكن لا أحد سيفعل هذا إلا إن كان ملاذه الأخير، وهذا يبين لي أن الساحر هاول سيفعل ما أريد إن أوضحت له أن ملاذه الأخير قد فشل».

«أظنك تستنبط تلميحات دقيقة ليست موجودة يا صاحب الجلالة»، قالت صوفي.

«لا أظن ذلك»، ابتسم الملك. وقد قست تقاسيمه التي يكتنفها شيء من الغموض، إذ كان واثقًا من صواب رأيه. «أبلغي الساحر هاول أنني أعينه ساحر البلاط ابتداء من اللحظة يا سيدة پندراغن، وأصدر أمرًا ملكيًا له بالعثور على الأمير جستن، حيًا أو ميتًا، قبل انقضاء العام. ولك إذننا بالانصراف الآن».

مد يده إلى صوفي، مثلما فعلت السيدة پنتستمن، ولكن على نحو أقل ملكية. رفعت صوفي نفسها، متسائلة إن كان عليها تقبيل اليد أم لا. ولكن إذ راودتها رغبة في رفع عصاها وضرب الملك على رأسه بها، فقد صافحته وانحنت انحناءة صغيرة مطرطقة، كأنما كان هذا الفعل الصائب. فابتسم لها الملك ابتسامة ودودة حين عرجت نحو الأبواب المزدوجة.

«أو، اللعنة!»، همست لنفسها. لم يكن هذا ما أرادها هاول، وسينقل القلعة الآن مسافة ألف ميل. ستحزن لتي ومارثا ومايكل، ولا ريب أن في الصفقة سيولًا من اللزاج الأخضر أيضًا. «هذا لأني الكبرى»، همهمت وهي تفتح الأبواب الثقيلة، «لا يمكنني الفوز!».

وهذا أمر آخر سار على غيرما يرام. إذ خرجت صوفي، في خضم ضيقها وخيبتها، من الأبواب المزدوجة الخاطئة، وكان في حجرة الانتظار هذه مرايا في كل جوانبها. ورأت فيها قوامها

الصغير المحدودب يعرج في ثوب رمادي أنيق، والكثير الكثير من الناس يلبسون ثياب البلاط الزرقاء، وآخرون يلبسون ثيابًا أنيقة بقدر ثياب هاول، ولكن لا أثر لمايكل. وكان مايكل طبعًا ينتظر في حجرة الانتظار المكسوة بألواح مصنوعة من مئة نوع من الخشب.

«أوه، تبًا!»، قالت صوفي.

أسرع واحد من الخدم نحوها وانحنى. «سيدتي الساحرة! أأساعدك في شيء؟».

كان شابًا ضئيل الحجم، أحمر العينين. نظرت إليه صوفي وقالت «أوه، أيها الرب الرحيم! فلقد نجحت الرقية إذن؟».

«لقد نجحت فعلًا»، قال الخادم الضئيل بشيء من الحزن. «نزعت عنه سلاحه حين كان يعطس وهو يقاضيني الآن. لكن الأمر المهم» -أشرق وجهه في ابتسامة سعيدة- «أن حبيبتي جين عادت إلي! والآن، ما الذي أقدمه لك؟ أشعر بمسؤولية نحو سعادتك».

«لست واثقة أنها ليست العكس»، قالت صوفي، «أيحتمل أنك كونت كاتراك؟».

«في خدمتك»، قال الخادم الضئيل منحنيًا.

إن جين فارير أطول منه بقدم! قالت صوفي في نفسها، وهذا كله خطئي. «أجل، بوسعك مساعدتي»، قالت وسألت عن مايكل.

طمأنها كونت كاتراك أن مايكل سيستدعى وينزل إلى بهو المدخل

للقائها، وليس في ذلك أي عناء. أخذ صوفي بنفسه إلى مرافق يلبس قفازين وسلمها له بكثير من الانحناء والابتسام. وسُلمت صوفي إلى مرافق آخر، وآخر، كما حدث قبلًا، وفي نهاية المطاف عرجت نازلة العتبات يحرسها الجنود.

لم يكن مايكل هناك، ولا هاول، لكن هذا أراح صوفي قليلًا. قالت في نفسها إنه تعين عليها أن تتوقع حدوث الأمر هكذا! فجلي أن الكونت كاتراك امرؤ لا يفعل أي شيء على نحو صائب، وهي كذلك. ولعله من الحظ الحسن أنها وجدت طريق الخروج. كانت متعبة حزينة تشعر بالحر فعزمت على ألا تنتظر مايكل. إذ أرادت الجلوس في الكرسي المحاذي للموقد وإخبار كالسيفر عن الفوضى التي صنعتها اليوم.

عرجت نازلة العتبات الفاخرة، ثم عرجت قاطعة طريقًا مشجرًا كبيرًا. وخبطت بقدميها في آخر، حيث استدارت الأبراج المذببة والبروج المتلألئة في كثرة مدوخة. وأدركت أن الأمر أسوأ مما ظنت وأنها ضلت الطريق. لم يكن عندها أدنى فكرة قطعًا كيف ستعثر على الإسطبل المتخفي حيث يقع مدخل القلعة. فانعطفت إلى شارع جميل آخر خبط عشواء، لكنها لم تعرفه أيضًا. كما أنها لم تعرف طريق العودة إلى القصر، فجربت سؤال الناس الذين رأتهم. بدا معظمهم متعبًا يشعر بالحر مثلها، فقالوا «الساحر پندراغن؟ ومن يكون؟».

مضت صوفي تعرج يائسة، وكادت تستسلم وتجلس على العتبة

المجاورة لقضاء الليلة، حين قطعت نهاية الشارع الضيق حيث يقع بيت السيدة بِنتستمن. قالت في نفسها آه! بوسعي الذهاب وسؤال الخادم، فقد كان هو وهاول صديقين ولا بد أنه يعرف أين يسكن هاول، فانعطفت الشارع.

كانت ساحرة اليباب قادمة نحوها.

يصعب تخمين كيف عرفتها صوفي، فقد كان وجهها مختلفًا. وبدلًا من أن يكون شعرها خصلًا كستنائية اللون مرتبة، كان كتلة متموجة من الأحمر، يتدلى حتى خصرها، وكانت تلبس ثوبًا ذا تموجات مرفرفة باللونين الأصحر والأصفر الفاتح، وبدت جميلة وأنيقة جدًا. عرفتها صوفي في الحال، وكادت أن تقف لكنها لم تفعل تمامًا.

قالت صوفي في نفسها أن لا سبب يدعوها لتذكري، فلا بد أنني واحدة من المئات الذين سحرتهم. وتقدمت صوفي تخبط بجسارة، ضاربة الحصى بعصاها ومذكرة نفسها، إن وقعت في مأزق، أن السيدة بِنتستمن قالت إن هذه العصا غدت أداة قوة.

كان ذلك خطأ آخر. تقدمت الساحرة ترفرف في الشارع الصغير، تدوّر شمسيتها يتبعها خادمان متجهمان في ثياب من القطيفة البرتقالية. ولما وصلت صوفي توقفت، وزكم عطر زنبق النهار الكهرماني أنف صوفي. «يا إلهي، هذه الآنسة هاتر!»، قالت الساحرة ضاحكة. «أنا لا أنسى وجهًا أبدًا، وبخاصة إن كنت صنعته بنفسي! ما الذي تفعلينه هنا متأنقة هكذا؟ إن كنت تفكرين

بزيارة السيدة پنتستمن فلا تتجشمي العناء. لقد ماتت المرأة العجوز».

«ماتت؟»، قالت صوفي. وراودتها رغبة سخيفة في أن تضيف، لكنها كانت على قيد الحياة قبل ساعة! فمنعت نفسها، فهذا طبع الموت؛ يكون الناس أحياء إلى أن يموتوا.

«أجل، ماتت»، قالت الساحرة. «رفضت إخباري عن مكان شخص أود العثور عليه، وقالت: «على جثتي!» فنفذت ما قالته».

كانت تبحث عن هاول! قالت صوفي في نفسها، ماذا علي أن أفعل الآن؟ لو لم تكن صوفي تشعر بالحر والتعب الشديدين، لخافت أشد الخوف من التفكير. فساحرة استطاعت قتل السيدة پنتستمن لن تجد أي عناء مع صوفي، سواء أكانت معها العصا أم لا. وإن ساورها الشك للحظة أن صوفي عرفت مكان هاول، فستكون هذه نهاية صوفي، ولذا فلعل عجز صوفي عن تذكر مدخل القلعة كان خيرًا.

«لا أعرف من تكون التي قتلتها»، قالت، «لكن هذا يجعلك قاتلة شريرة».

غير أن الساحرة لم يساورها الشك على أية حال، إذ قالت «ولكن أحسبك قلت إنك ذاهبة لزيارة السيدة پنتسمتن؟».

«كلا»، قالت صوفي. «أنت من قال ذلك. ولا ضرورة لمعرفتها كي أنعتك بالشر لقتلك إياها».

«أين تذهبين إذن؟»، قالت الساحرة.

راودت صوفي رغبة في أن تقول للساحرة أن تهتم بشؤونها، لكن هذا يستجلب المشاكل لذا قالت الشيء الوحيد الذي خطر لها، «أنا ذاهبة لرؤية الملك»، قالت.

ضحكت الساحرة غير مصدقة. «ولكن أسيراك الملك؟».

«أجل، طبعًا»، قالت صوفي وهي ترتجف خوفًا وغضبًا. «لقد طلبت موعدًا. وأنا ذاهبة لألتمس ظروفًا أفضل لصانعي القبعات. وها أنت ترين أنني أواصل عملي بعدما فعلته به».

«أنت ذاهبة في الاتجاه الخاطئ»، قالت الساحرة، «فالقصر خلفك».

«أوه؟ حقًا؟»، قالت صوفي. لم يكن عليها التظاهر بالدهشة. «لا بد أنني انعطفت إذن. أخذت أضيع الاتجاهات منذ أن جعلتني على هذه الشاكلة».

ضحكت الساحرة بحرارة ولم تصدق كلمة مما قالته. «تعالي معي إذن»، قالت، «سأدلك على طريق القصر».

ولم تستطع صوفي فعل شيء سوى أن تستدير وتخبط بقدميها بجانب الساحرة، والخادمان يمشيان متجهمين خلفهما. خيم على صوفي الغضب واليأس، ونظرت إلى الساحرة وهي تتموج أنيقة قربها وتذكرت قول السيدة پنتستمن إن الساحرة عجوز حقًا. هذا ليس عدلًا! قالت صوفي في نفسها، ولكنها لا تستطيع فعل شيء حياله.

«لماذا فعلت بي هذا؟»، سألت وهما يمشيان في شارع واسع له نافورة في بدايته.

«كنت تحولين بيني وبين حصولي على بعض المعلومات التي أحتاجها»، قالت الساحرة. لكني حصلت عليها في نهاية المطاف طبعًا». انتابت صوفي الحيرة لدى سماع هذا، وتساءلت إن كان سيجدي نفعًا القول إن ثمة خطأ ما، إذ أضافت الساحرة «رغم أني أستطيع القول إنك لم تعلمي أنك فعلت ذلك»، وضحكت، كأن هذا أكثر ما في الأمر إضحاكًا. «أسمعت ببلاد تدعى ويلز؟»، سألت.

«كلا»، قالت صوفي. «أتقع تحت البحر؟».

ورأت الساحرة هذا أكثر إضحاكًا. «ليس في هذه اللحظة»، قالت. «إنها بلاد الساحر هاول. تعرفين الساحر هاول، أليس كذلك؟».

«من الأقاويل فحسب»، كذبت صوفي. «إنه يأكل الفتيات، وهو شرير مثلك». لكنها أحست بشيء من البرد. ولم يكن ذلك بسبب النافورة التي مرتا بجانبها عندئذ. خلف النافورة، عبر باحة من الرخام الزهري كانت السلالم الحجرية والقصر أعلاها.

«ها قد وصلت، هذا هو القصر»، قالت الساحرة. «أواثقة أن بوسعك صعود كل هذه السلالم؟».

«ليس بأفضل منك»، قالت صوفي. «أعيدي إلي شبابي وسأصعدها جريًا، حتى في هذا الحر».

«لن يكون هذا طريفًا»، قالت الساحرة.

«اصعدي، وإن استطعت إقناع الملك برؤيتك، فذكّريه أن جده أرسلني إلى اليباب وأني أضمر له الضغينة من أجل ذلك».

نظرت صوفي بيأس إلى قلبة السلالم. لم يكن أحد يقف عليها إلا الجنود. وبالحظ الذي واتاها اليوم، فلن يدهشها أن تجد مايكل وهاول في طريقهما نزولًا. ولما كانت الساحرة ستظل واقفة هناك حتى تتأكد من صعودها، لم يكن لدى صوفي خيار سوى الصعود. فعرجت صعودًا، مارة بالجنود المتصببين عرقًا، كل الطريق نحو مدخل القصر ثانية، وكراهيتها للساحرة تزداد مع كل عتبة. فاستدارت في القمة لاهثة، ولم تزل الساحرة هناك، في هيئة خمرية متموجة في الأسفل، وشكلان برتقاليان صغيران قربها، ينتظران رؤيتها تطرد خارج القصر.

«تبًا لها!»، قالت صوفي. وعرجت متقدمة إلى الحرس عند الممر المقنطر. لم يزل الحظ السيء يلاحقها، إذ لم تر أثرًا لمايكل أو هاول في الأماكن خلفه. واضطرت أن تقول للحرس «ثمة أمر نسيت أن أخبر الملك به».

لقد تذكروها، وأدخلوها ليستقبلها شخص يضع قفازين أبيضين. وقبل أن تتمكن صوفي من استجماع قواها، تحركت آلات القصر وسُلمت من شخص لآخر، مثلما حدث في المرة الأولى، حتى وصلت إلى الأبواب المزدوجة نفسها، والشخص نفسه ذي الثياب الزرقاء يعلن «السيدة پندراغن تود رؤيتك ثانية يا صاحب الجلالة».

كان ذلك مثل حلم مزعج، قالت صوفي في نفسها حين دخلت الغرفة الكبيرة نفسها. ويبدو ألا خيار عندها إلا تشويه سمعة هاول ثانية. كمنت المشكلة، مع كل ما حدث ورهبة الموقف ثانية، أن ذهنها كان فارغًا أكثر من ذي قبل. كان الملك هذه المرة يقف قرب مكتب كبير في إحدى الزوايا، يحرك أعلامًا على خريطة متوترًا. رفع نظره وقال مبتهجًا «قالوا لي إنك نسيت إخباري أمرًا».

«أجل»، قالت صوفي. «يقول هاول إنه سيبحث عن الأمير جستن إن وعدته أن تزوجه ابنتك». ما الذي جاء بهذا إلى عقلي؟ قالت في نفسها، سيأمر بإعدام كلينا!

نظر إليها الملك نظرة اهتمام. «لا بد أن تدركي يا سيدة پندراغن أن هذا الأمر لا جدال فيه»، قال. «أرى أنك شديدة القلق على ابنك فاقترحت هذا، لكنك لا تستطيعين إبقاءه مربوطًا بمئزرك إلى الأبد كما تعلمين، وقد اتخذت قراري. تعالي واجلسي على هذا الكرسي من فضلك، تبدين متعبة».

فسارت صوفي نحو الكرسي الخفيض الذي أشار إليه الملك وتهاوت عليه، متسائلة متى سيأتي الحراس لإلقاء القبض عليها.

نظر الملك حوله نظرات غامضة. «كانت ابنتي هنا توًا»، قال. ودهشت صوفي دهشة واضحة حين انحنى ونظر تحت المكتب. «ڤالريا»، نادى. «اخرجي يا ڤالي. من هنا، أحسنت يا فتاة».

سمع صوت حفيف، وبعد لحظة خرجت الأميرة ڤالريا من تحت المكتب في هيئة الجالس، وهي تبتسم بلطف. كان لها أربع أسنان،

لكنها لم تبلغ من العمر ما يمنحها شعرًا كافيًا، بل كان لها حلقة من البياض الناعم فوق أذنيها. حين رأت صوفي، اتسعت ابتسامتها ومدت اليد التي كانت تمصها وأمسكت بثوب صوفي. واستجاب لها ثوب صوفي ببقعة رطبة ازدادت اتساعًا لما وقفت الأميرة على قدميها. حدقت ڤالريا في وجه صوفي، ووجهت لها تعليقًا ودودًا فيما بدا بوضوح لغة أجنبية خاصة.

«أوه»، قالت صوفي وهي تشعر بالحماقة الشديدة.

الفصل الرابع عشر

وفيه ساحر البلاط يصاب بالزكام

مضت صوفي في طريق عودتها إلى مدخل القلعة المطل على كنغزبري في إحدى عربات الملك، تجرها أربعة خيول، وفيها حوذي وسائس وخادم. ورافقها ملازم وستة خيّالة ملكيين لحراستها، والسبب في ذلك هو الأميرة ڤالريا التي صعدت إلى حجر صوفي. وأثناء قرقعة العربة على الطريق المختصر أسفل التل، لم يزل ثوب صوفي مغطى بالآثار الرطبة لاستحسان ڤالريا الملكي. ابتسمت صوفي قليلًا، ورأت أن رأي مارثا قد يكون سديدًا في رغبتها بإنجاب الأطفال، رغم أنها رأت عشرًا من ڤالريا سيكون كثيرًا جدًا. وتذكرت صوفي، أثناء تسلق ڤالريا لها، سماعها أن الساحرة هددت ڤالريا بصورة ما، ووجدت نفسها تقول لڤالريا «لن تمسّك الساحرة بسوء، لن أسمح لها!».

لم يقل الملك شيئًا عن ذلك، لكنه أمر بإيصال صوفي في عربة ملكية.

توقفت العربة توقفًا مزعجًا للغاية أمام الإسطبل المموّه. واندفع

مايكل خارجًا من الباب واعترض طريق الخادم الذي كان يساعد صوفي في نزولها. «أين ذهبت؟»، قال. «كنت شديد القلق! وهاول في غاية الاستياء...».

«أنا واثقة من ذلك»، قالت منشغلة الذهن.

«لأن السيدة بنتستمن ماتت»، قال مايكل.

جاء هاول إلى الباب أيضًا، وبدا شاحبًا حزينًا. كان يحمل لفافة تتدلى منها أختام ملكية باللونين الأزرق والأحمر، عاينتها صوفي وهي تشعر بالذنب. نفح هاول الرقيب قطعة ذهبية ولم يفه بحرف إلى أن مضت العربة والخيالة يقرقعون في طريقهم. ثم قال «أخال أن أربعة الخيول وعشرة الرجال للتخلص من امرأة عجوز. ما الذي فعلته بالملك؟».

تبعت صوفي هاول ومايكل إلى الداخل، متوقعة رؤية الغرفة يغطيها اللزاج الأخضر. لكن هذا لم يحدث، وكان كالسيفر يضطرم في المدخنة، متبسمًا ابتسامته البنفسجية. تهاوت صوفي على الكرسي. «أحسب الملك سئم من ذهابي وتشويه سمعتك، فقد ذهبت مرتين»، قالت. «لم يسر شيء على ما يرام، والتقيت الساحرة في طريقها بعد قتل السيدة بنتسمتن. يا له من يوم!».

أثناء وصف صوفي لبعض ما حدث، اتكأ هاول على رف المدخنة، مؤرجحًا اللفافة كأنه يفكر بإطعامها لكالسيفر. «انظري إلى ساحر البلاط الجديد»، قال. «إني سيء السمعة للغاية». ثم أخذ يضحك مثيرًا دهشة صوفي ومايكل. «وماذا فعلت بكونت

كاترك؟»، قال ضاحكًا، «ما كان علي أن أجعلها تقترب من الملك!».

«لقد شوهت سمعتك فعلًا!»، اعترضت صوفي.

«أعلم. كان هذا سوء تقدير مني»، قال هاول. «والآن كيف لي حضور جنازة السيدة پنتسمتن المسكينة من دون أن تعرف الساحرة؟ ألديك أي أفكار يا كالسيفر؟».

كان جليًا أن هاول غاضب لموت السيدة پنتسمتن أكثر من أي شيء آخر.

كان مايكل هو من ساوره القلق بشأن الساحرة، إذ اعترف الصباح التالي أنه رأى كوابيس طوال الليل. فقد رأى في الحلم أنها دخلت من كل مداخل القلعة في آن واحد. وسأل قلقًا «أين هاول؟»

خرج هاول في وقت باكر جدًا، تاركًا الحمام مليئًا بالبخار الشذي كعادته. لم يأخذ غيتاره، ومقبض الباب كان متجهًا نحو الأخضر، ولم يعرف كالسيفر أكثر من هذا. «لا تفتح الباب لأي أحد»، قال كالسيفر. «فالساحرة تعرف بأمر المداخل كلها عدا مدخل پورتهڤن».

أثار هذا خوف مايكل الشديد فجلب ألواحًا خشبية من الفناء ودقها على الباب بالعرض. ثم شرع أخيرًا يعملُ على الرقية التي استعادوها من الآنسة أنغوريان.

بعد نصف ساعة أدير مقبض الباب بشدة نحو الأسود، وأخذ الباب يهتز. تشبث مايكل بصوفي وقال لها مرتجفًا «لا تخافي، سأحميك».

اهتز الباب اهتزازًا شديدًا لبعض الوقت ثم توقف. لم يكد مايكل يترك صوفي بعد أن أحس بارتياح عظيم، حتى وقع انفجار عنيف، وتناثرت الألواح على الأرض. غاص كالسيفر إلى أسفل الموقد واختبأ مايكل في خزانة المكانس، تاركًا صوفي تقف هناك حين انفتح الباب واندفع هاول دخولًا.

«هذا كثير بعض الشيء يا صوفي!»، قال. «إنني أعيش هنا»، كان يتصبب عرقًا، وتحول اللونان على بدلته من القرمزي والرمادي إلى الأسود والبني، وكان شعره وطرفا كميه يقطران.

نظرت صوفي إلى مقبض الباب الذي لم يزل متجهًا نحو الأسود، فقالت في نفسها إنها الآنسة أنغوريان، لقد ذهب لرؤيتها بهذه البدلة المسحورة. «أين كنت؟»، قالت.

عطس هاول. «واقفًا تحت المطر، وهذا ليس من شأنك»، قال بصوت أجش. «وما عمل هذه الألواح؟».

«أنا من وضعها»، قال مايكل خارجًا من خزانة المكانس. «الساحرة...».

«يبدو أنك تظنني لا أعرف ماذا أفعل»، قال هاول حانقًا. «لدي الكثير من رقى تضليل الاتجاه ولن يعثر علينا الناس أبدًا. وسأمهِل الساحرة ثلاثة أيام. أحتاج شرابًا ساخنًا يا كالسيفر».

أخذ كالسيفر يرتفع فوق جذوله، ولكن حين اقترب هاول من الموقد اختبأ ثانية. «لا تقترب مني هكذا! إنك مبلل»، قال بهسيس.

«صوفي»، قال هاول متوسلًا.

قاطعت صوفي ذراعيها دون إحساس بالشفقة. «وماذا عن لتي؟».

«إنني مبلل»، قال هاول. «يجب أن أشرب شيئًا ساخنًا».

«وأنا قلت ماذا عن لتي هاتر؟»، قالت صوفي.

«تبًا لك إذن!»، ونفض نفسه، فتساقط الماء منه في حلقة أنيقة على الأرض. خرج هاول منها وشعره يلمع جافًا وبدلته باللونين الرمادي والقرمزي ولا أثر للرطوبة فيها، وذهب لجلب كفت. «العالم مليء بالنساء القاسيات القلوب يا مايكل»، قال، «وأستطيع أن أسمّي لك ثلاثة منهن دون الحاجة للتفكير».

«أمنهن الآنسة أنغوريان؟»، سألت صوفي.

لم يجب هاول، وتجاهل صوفي تجاهلًا كبيرًا لما بقي من الصباح أثناء نقاشه تحريك القلعة مع مايكل وكالسيفر. كان هاول يعتزم الهرب فعلًا، مثلما حذرت صوفي الملك من أنه سيفعل، وهذا ما دار في خلدها وهي تجلس وتخيط مزيدًا من مثلثات البدلة الفضية والزرقاء. وأيقنت أن عليها أن تجعل هاول يخلع عنه البدلة الرمادية والقرمزية في أسرع وقت ممكن.

«لا أظننا بحاجة لتحريك مدخل پورتهفن»، قال هاول مستحضرًا

منديلًا لنفسه من الهواء ونفر أنفه بزعيق جعل كالسيفر يخفق بلا ارتياح. «لكني أريد إبعاد القلعة المتحركة عن أي مكان كانت فيه قبلًا وإغلاق مدخل كنغزبري».

قرع أحد الباب عندئذ، ولاحظت صوفي أن هاول قفز ونظر حوله قلقًا بقدر مايكل. لم يفتح أي منهما الباب، وقالت صوفي في نفسها موبخة جبانان! وتساءلت في نفسها ما الذي دعاها البارحة لتجشم كل ذلك العناء من أجل هاول، وهمست للبدلة الزرقاء والفضية قائلة «لا بد أنني مجنونة!».

«وماذا عن مدخل اللون الأسود؟»، سأل مايكل، لما تبين أن الطارق رحل.

«سيبقى»، قال هاول مستحضرًا لنفسه منديلًا آخر في حركة خفيفة أخيرة.

«سيبقى!»، قالت صوفي في نفسها. فالآنسة أنغوريان خارجه، يا للمسكينة لتي!

عندما انتصف الصباح كان هاول يستحضر لنفسه المناديل مثنى وثلاثًا، وقد كانت مربعات مرنة من الورق حقًا كما رأتها صوفي. وواصل العطاس، وغدا صوته مبحوحًا أكثر. وأخذ يستحضر المناديل ستًا ستًا، وكوّم رماد المستعملة قرب كالسيفر.

«أوه، لماذا كلما ذهبت إلى ويلز عدت مصابًا بالزكام؟!»، زعق هاول واستحضر لنفسه لفيفة كاملة من المناديل.

نخرت صوفي.

«أقلت شيئًا؟»، زعق هاول.

«كلا، لكني أفكر بأن الذين يهربون من كل شيء يستحقون كل زكام يصابون به»، قالت صوفي. «والذين يعينهم الملك لفعل شيء ما ويذهبون للتغزل في المطر بدلًا من ذلك لا يلومون إلا أنفسهم».

«لا تعرفين كل ما أعرفه أيتها السيدة الواعظة»، قال هاول. «أتريدين مني أن أكتب قائمة قبل أن أخرج المرة القادمة؟ لقد بحثت عن الأمير جستن، والتغزل ليس بالشيء الوحيد الذي أفعله لدى خروجي».

«متى بحثت؟»، قالت صوفي.

«أوه، آه كم تصطفق أذناك ويتشنج أنفك الطويل!»، زعق هاول. «لقد بحثت لدى اختفائه أول مرة طبعًا. انتابني الفضول لمعرفة ما الذي يفعله الأمير جستن في هذا الطريق، رغم معرفة الكل أن سولمن قد ذهب إلى أرض اليباب. أظن أحدًا باعه تعويذة فاشلة للعثور عليه، لأنه ذهب إلى فولدنغ ڤالي واشترى تعويذة أخرى من السيدة فيرفاكس. وقد أرجعته التعويذة من هذا الطريق، ولا حاجة للقول طبعًا إنه توقف بالقلعة وباعه مايكل تعويذة أخرى للعثور ورُقية للتخفي...».

فوضع مايكل يده على فمه «أكان ذلك الرجل الذي يلبس بزة خضراء هو الأمير جستن؟».

«أجل، لكني لم أذكر الأمر قبلًا»، قال هاول. «لأن الملك سيظن أنه كان يجدر بك أن تبيعه رقية فاشلة. وضميري يؤنبني بشأن ذلك. ضمير، اسمعي الكلمة يا سيدة حشورة، فأنا لدي ضمير»، استحضر هاول لفيفة أخرى من المناديل ونظر من فوقها إلى صوفي بعينين حمراوين ومغرورقتين. ثم وقف «أنا مريض»، قال، «سأخلد للفراش حيث قد أموت». ومشى بورع نحو السلالم. «ادفنوني إلى جانب السيدة پنتسمتن»، زعق وهو يصعد ذاهبًا للنوم.

أشغلت صوفي نفسها بخياطتها بجهد أكبر، فهذه فرصتها لتخلع عن هاول البدلة الرمادية القرمزية قبل أن تحطم قلب الآنسة أنغوريان، إلا إن، طبعًا، خلد هاول إلى الفراش لابسًا ثيابه، وهذا مما لا تستبعده عنه. ذهب هاول إذن للبحث عن الأمير جستن حين ذهب إلى فولدنغ ڤالي لملاقاة لتي. يا للمسكينة لتي! قالت صوفي، وهي تضع درزات سريعة صغيرة حول مثلثها السابع والخمسين، وما زالت بحاجة إلى أربعين أخرى أو نحوها لتنتهي.

سمع صوت هاول توًا يصرخ صراخ الضعيف «ليساعدني أحدكم! إنني أموت من الإهمال في الأعلى!».

نخرت صوفي. وترك مايكل العمل على رقيته الجديدة وهرع إلى السلالم صعودًا ونزولًا. أصبحت الأمور مزعجة جدًا، وحالما أنهت صوفي خياطة عشرة مثلثات زرقاء أخرى صعد مايكل السلم يحمل ليمونًا وعسلًا، أو كتابًا غريبًا، أو دواء للسعال، وملعقة لتناول دواء السعال، ثم قطرة أنفية، وأقراصًا محلاة للحلق، ومضمضمة

وقلمًا وورقة وثلاثة كتب أخرى، ونقيع لحاء الصفصاف. استمر الناس يقرعون الباب أيضًا، جاعلين صوفي تجفل وكالسيفر يخفق قلقًا. ولما لم يفتح أحد الباب، واصل بعض الناس الطرق لخمس دقائق أو نحوها، وهم يظنون محقين أنهم تعرضوا للتجاهل.

أخذ القلق يشتد لدى صوفي على البدلة الفضية الزرقاء، فقد أخذت تصغر وتصغر. لا يمكن للمرء أن يخيط ذلك العدد من المثلثات بدون أخذ كثير من القماش في الدرزات. «مايكل»، قالت حين نزل مايكل مسرعًا مرة أخرى لأن هاول اشتهى شطيرة لحم مقدد على الغداء. «أثمة طريقة لجعل الملابس الصغيرة أكبر يا مايكل؟».

«أوه، أجل»، قال مايكل. «هذه هي رقيتي الجديدة... حين يتسنى لي الوقت للعمل عليها. يريد هاول ست شرائح من اللحم المقدد في شطيرة، أيمكنك أن تطلبي من كالسيفر؟».

تبادلت صوفي وكالسيفر نظرات ناطقة. «لا أظنه يحتضر»، قال كالسيفر.

«سأعطيك القشور تأكلها إن حنيت رأسك»، قالت صوفي تاركة الخياطة. كانت رشوة كالسيفر أسهل من التجبر عليه.

تناولوا شطائر اللحم المقدد على الغداء، غير أن مايكل هرع إلى الأعلى أثناء تناول شطيرته. ثم نزل بخبر أن هاول يريده أن يذهب إلى ماركت تشپنغ الآن، لإحضار أشياء يحتاجها لتحريك القلعة.

«ولكن الساحرة... أهذا آمن؟»، سألت صوفي.

لعق مايكل دهن اللحم المقدد عن أصابعه وغاص في خزانة المكانس. وخرج ملقيًا حول كتفيه بإحدى العباءتين المخمليتين المغبرتين. وفي النهاية كان الذي يضع العباءة رجل ضخم البنية له لحية حمراء. لعق هذا الشخص أصابعه وقال بصوت مايكل «يظن هاول أنني سأكون بأمان هكذا. إنه تضليل وتمويه أيضًا. أتساءل إن كانت لتي ستعرفني». فتح الرجل الضخم الباب موجهًا اللطخة الخضراء للأسفل وقفز خارجًا إلى التلال المتحركة ببطء.

خيم الهدوء، فهدأ كالسيفر وهسهس. لا بد أن هاول أدرك أن صوفي لن تهرع للاعتناء به، فساد الصمت في الأعلى. نهضت صوفي وعرجت بحذر نحو خزانة المكانس، إذ كانت هذه فرصتها للذهاب لرؤية لتي. لا بد أنها شديدة التعاسة الآن، وقد كانت صوفي واثقة تمام الثقة أن هاول لم يذهب إليها منذ يوم البستان. قد يجدي نفعًا إن ذهبت صوفي لتخبرها أن مشاعرها التهبت بفعل بدلة مسحورة على أية حال، كانت تدين للتي بإخبارها.

لم يكن حذاء الفراسخ السبعة في الخزانة، ولم تصدق صوفي الأمر في البدء. فقلبت كل شيء، ولم تجد هناك إلا الدلاء العادية، والعباءة المخملية الأخرى. «تبًا للرجل!»، قالت صوفي. لقد حرص هاول على ألا تتبعه ثانية إلى أي مكان حتمًا.

كانت تعيد كل شيء إلى الخزانة حين قرع أحدهم الباب. فأجفلت صوفي، كعادتها، وتمنت أنه سيرحل. لكن الشخص بدا أكثر تصميمًا من الآخرين، واستمر في القرع أيًا كان، أو لعله كان

يدفع بنفسه على الباب، لأن الصوت كان وومپ وومپ وومپ متواصلة أكثر منه قرعًا عاديًا. واستمر ذلك لخمس دقائق.

نظرت صوفي إلى الشرر الأخضر المضطرب الذي كان كل ما أمكنها رؤيته من كالسيفر. «أهي الساحرة؟».

«كلا»، قال كالسيفر مكتوم الصوت بين جذوله. «إنه باب القلعة. لا بد أن أحدهم يركض بجانبنا، فنحن نمضي بسرعة».

«أهي الفزاعة؟»، سألت صوفي واختلج صدرها اختلاجة لدى التفكير بهذا.

«إنه من لحم ودم»، قال كالسيفر. وارتفع وجهه الأزرق في المدخنة بادية عليه الحيرة. «لست واثقًا مم هو لكنه يريد الدخول بشدة، ولا أظنه يقصد الأذى».

ولما استمر صوت الوومپ وومپ، مانحًا صوفي إحساسًا مزعجًا بأمر طارئ، قررت أن تفتح الباب وتضع حدًا له، ثم إن الفضول انتابها حول ماهيته. ما زالت تحمل العباءة المخملية في يدها إثر تفتيش خزانة المكانس، لذا وضعتها حول كتفيها حين تقدمت إلى الباب. نظر كالسيفر، ثم حنى رأسه طوعًا لأول مرة منذ عرفته، وانطلقت قهقهات كبيرة من تحت اللهب الأخضر المموج. تساءلت صوفي عما حولتها إليه العباءة، وفتحت الباب.

قفز كلب سلوقي ضخم سقيم من التل بين الحجارة السوداء الطاحنة للقلعة وحط في وسط الغرفة. ألقت صوفي بالعباءة وتراجعت على عجل، إذ كانت دومًا تخاف الكلاب، والكلاب

السلوقية ليست مما يبعث الطمأنينة في النفس. وقف الكلب بينها وبين الباب ونظر إليها، ونظرت صوفي بشوق إلى الصخور المتحركة والخلنج في الخارج وتساءلت إن كان دعاؤها هاول سيعود بأي نفع.

حنى الكلب ظهره المحدودب ورفع نفسه على قائمتيه الخلفيتين الضامرتين، فأصبح بطول صوفي تقريبًا. ومد قائمتيه الأماميتين متخشبًا وارتفع للأعلى ثانية. ثم لما فتحت صوفي فمها لتنادي هاول، بذل الحيوان مجهودًا كبيرًا واندفع للأعلى في هيئة رجل يلبس بدلة بنية مجعدة. كان له شعر بلون الزنجبيل ووجه شاحب تعس.

«أتيت من أپر فولدنغ!»، قال الرجل الكلب لاهثًا. «حبيبتي لتي - لتي أرسلتني - لتي تبكي وحزينة جدًا - أرسلتني إليك - وقالت لي أن أبقى-» وأخذ يتمدد ويتقلص قبل أن ينهي كلامه. وأطلق عواء كلب يأسًا وحزنًا. «لا تخبري الساحر!»، تأوه وتلاشى داخل شعر مائل للحمرة مموج عائدًا إلى هيئة الكلب، لكنه كلب مختلف، إذ بدا هذه المرة كلب صيد أحمر. لوّح كلب الصيد الأحمر ذيله المهدب ونظر بجدية إلى صوفي بعينين رطبتين بائستين.

«أوه، يا إلهي»، قالت صوفي وهي تغلق الباب، «إنك واقع في مأزق يا صديقي. لقد كنت ذلك الكلب من نوع كولي، أليس كذلك؟ فهمت ما الذي تحدثت عنه السيدة فيرفاكس، فالساحرة تريد إزهاق الأرواح، إنها تريد ذلك فعلًا! ولكن لماذا أرسلتك لتي إلى هنا؟ إن لم تردني أن أخبر الساحر هاول...».

فزمجر الكلب زمجرة ضعيفة لدى سماع الاسم، لكنه هز ذيله ونظر متوسلًا.

«حسن، لن أخبره»، وعدته صوفي، وبدا الكلب مطمئنًا. فتقدم نحو المصطلى، حيث نظر إلى كالسيفر نظرة متعبة واستلقى بجانب الحاجز في كومة حمراء هزيلة. «ما رأيك يا كالسيفر؟»، قالت صوفي.

«هذا الكلب رجل مسحور»، قال كالسيفر من غير داعٍ.

«أعرف، أبوسعك إزالة السحر عنه؟»، سألت صوفي. فقد حسبت أن لتي سمعت، مثل العديد من الناس، أن لدى هاول ساحرة تعمل معه. كما أن من المهم تحويل الكلب إلى رجل وإرساله إلى أپر فولدنغ قبل أن ينهض هاول من الفراش ويجده هنا.

«كلا. علي أن أرتبط بهاول لفعل ذلك»، قال كالسيفر.

«سأجرب هذا بنفسي إذن»، قالت صوفي. يا للمسكينة لتي! لقد كسر قلبها مع هاول، وحبيبها الآخر الوحيد كلب معظم وقته! وضعت صوفي يدها على رأس الكلب المدور الناعم. «عد إلى الرجل الذي يجب أن تكونه»، قالت، وكررت كثيرًا لكن أثره الوحيد كان إغراق الكلب في نوم عميق، فشخر والتف عند ساقي صوفي.

عندئذ جاء من الأعلى أنين وعويل، ولكن صوفي ظلت تهمس للكلب وتجاهلته. أعقب ذلك سعال أجوف عالٍ، يتلاشى في مزيد من الأنين، فتجاهلته صوفي أيضًا. وتلا السعال عطاس

مدمر، وكل عطسة ترج النافذة وكل الأبواب، فرأت صوفي أن تجاهل هذا أصعب، لكنها نجحت. بووووووت بووووت! استمر نفير الأنف، مثل آلة نفخ موسيقية في نفق. بدأ السعال من جديد، ممزوجًا بالأنين، وامتزج العطاس بالأنين والسعال، وازدادت الأصوات شدة كأنما استطاع هاول أن يسعل ويتأوه، وينفر أنفه ويعطس، ويعول برفق في الوقت نفسه. ارتجت الأبواب، واهتزت عوارض السقف، وتدحرج أحد جذول كالسيفر وسقط من المصطلى.

«حسن، حسن، وصلت الرسالة!»، قالت صوفي، ملقية بالجذل إلى الموقد. «سيكون التالي هو اللزاج الأخضر. احرص على بقاء الكلب في مكانه يا كالسيفر». وصعدت الدرج وهي تتذمر بصوت عال «يا لهؤلاء السحرة حقًا! تخال أن أحدهم لم يصب بالزكام من قبل! حسن، ما الأمر؟»، سألت وعرجت عبر باب غرفة النوم إلى السجادة القذرة.

«إنني أموت ضجرًا»، قال هاول مستدرًا العطف، «أو لعلي أموت فحسب».

كان مضطجعًا يستند على وسائد رمادية قذرة، بادٍ عليه الضعف، يغطيه لحاف مرقع، عدا أنه كان كله بلون واحد مغبر، وكانت العناكب التي يحبها كثيرًا تغزل بهمة في الظلة فوقه.

لمست صوفي جبينه «إنك محموم قليلًا»، اعترفت.

«إنني أهذي»، قال هاول. «والبقع تزحف أمام عيني».

«هذه هي العناكب»، قالت صوفي. «لم لا تداوي نفسك برقية؟».

«لأنه ليس ثمة دواء للزكام»، قال ناعسًا. «الأشياء تدور وتدور في عقلي. وأواصل التفكير في بنود لعنة الساحرة. لم أدرك أنها ستكتشف أمري هكذا، واكتشاف أمري شيء سيء، وإن كانت الأشياء الحقيقية حتى الآن هي من صنع يدي، وأواصل انتظار حدوث البقية».

عادت صوفي بذاكرتها إلى القصيدة المحيرة. «أي أشياء؟«قل لي أين الماضي الآن»؟».

«أوه، أعرف هذا»، قال هاول. «ماضيي أو ماضي غيري. كلها هناك، حيث تكون دومًا. بوسعي الذهاب وأداء دور الجنية الشريرة لدى تعميدي إن شئت، وربما فعلت وهذه هي مشكلتي. كلا، ثمة ثلاثة أمور أنتظر حدوثها: الحوريات، وجذر اليبروح، والريح تهب على عقل صادق. وقد يبيض شعري، كما أظن، ولكني لن أزيل الرقية لأتأكد. لم يبق إلا ما يقارب ثلاثة أسابيع لها لتتحقق، وستنال الساحرة مني حالما يحدث ذلك. ولكن اجتماع شمل أعضاء نادي الرغبي سيكون في ليلة منتصف الصيف، فسأحضر ذلك على الأقل. أما الباقي فقد حدث منذ زمن بعيد».

«أتعني النجمة الساقطة وعدم العثور على امرأة صادقة جميلة؟»، قالت صوفي. «لا أستغرب هذا، نظرًا لأسلوبك. أخبرتني السيدة پنتسمتن أنك تضل الطريق، وقد كانت محقة أليس كذلك؟».

«يجب أن أحضر جنازتها وإن تسبب هذا في قتلي»، قال هاول

حزينًا. «لقد أحسنت السيدة بنتمستن الظن بي دومًا، وقد أعميتها بسحري».

انهمر الماء من عينيه، ولم تكن صوفي واثقة من أنه يبكي حقًا، أم أن هذا عائد لزكامه.

«كنت أتكلم عن مواصلتك هجر السيدات حالما توقعهن في غرامك»، قالت. «لماذا تفعله؟».

أشار هاول بيد مرتجفة إلى الظلة أعلى سريره. «لهذا أحب العناكب. «إن لم تنجح من المرة الأولى، فحاول وحاول وحاول ثانية». وأنا أواصل المحاولة»، قال بحزن عظيم. «لكني جنيت على نفسي بإبرام عقد قبل سنوات، وأعلم أني لن أستطيع أن أحب أي أحد حبًا حقيقيًا».

كان الماء المنهمر من عيني هاول دمعًا من غير ريب، فاهتمت صوفي. «لا ينبغي لك أن تبكي...».

كان في الخارج لغو، فنظرت صوفي لترى الرجل الكلب يتصبب عرقًا في نصف دائرة خارج الباب. فمدت يدها وأمسكت بحفنة من شعره الأحمر، ظانة أنه جاء قطعًا ليعض هاول. لكن الكلب اكتفى بالاستناد إلى ساقيها، وتعين عليها أن تتعثر عائدة إلى الجدار المتقشر.

«ما هذا؟»، سأل هاول.

«كلبي الجديد»، قالت صوفي متمسكة بشعره المموج. وقفت

مقابل الجدار، فاستطاعت النظر من نافذة غرفة النوم. يجب أن تطل على الفناء، غير أنها أطلت على منظر لحديقة أنيقة مربعة في وسطها أرجوحة طفل معدنية. كانت الشمس الغاربة تشعل قطرات المطر المعلقة على الأرجوحة باللونين الأحمر والأزرق. أثناء وقوف صوفي ونظرها، جاءت ابنة أخت هاول ماري تجري عبر العشب الرطب، وتبعتها أخت هاول ميغن. كانت تصيح بماري لئلا تجلس على الأرجوحة الرطبة، غير أن الصوت لا يسمع. «أيدعى ذلك المكان ويلز؟»، سألت صوفي.

ضحك هاول وخبط على اللحاف، فارتفع الغبار كالدخان. «اللعنة على ذلك الكلب!»، زعق. «راهنت نفسي على أني سأبعدك عن استراق النظر من النافذة طوال وجودك هنا!».

«أفعلت؟»، قالت صوفي وتركت الكلب راجية أن يعض هاول بقوة. لكن الكلب واصل استناده عليها، دافعًا إياها نحو الباب. «إذن كانت تلك الأغنية والرقصة لعبة فحسب، أليس كذلك؟»، قالت، «كان علي أن أعرف!».

استلقى هاول على وسائده الرمادية، بادٍ عليه الإحساس بالظلم والألم. فقال موبخًا «أحيانًا تبدين مثل ميغن».

««أحيانًا»، أجابته صوفي، دافعة الكلب خارج الغرفة أمامها، «أفهم كيف أصبحت ميغن هكذا». وأغلقت الباب على العناكب، والغبار والحديقة بخبطة قوية.

الفصل الخامس عشر

وفيه يذهب هاول إلى جنازة، متخفيًا

التف الرجل الكلب على أصابع قدمي صوفي التفافًا شديدًا لدى عودتها إلى الخياطة. لعله كان يأمل أنها ستستطيع رفع الرقية عنه إن هو ظل قريبًا منها. وحين اندفع رجل ضخم أحمر اللحية داخلًا الغرفة، حاملًا صندوقًا من الأشياء، وألقى بعباءته المخملية ليصبح مايكل، وما زال يحمل صندوق الأشياء، نهض الرجل الكلب وهز ذيله، وسمح لمايكل أن يربت عليه ويفرك أذنيه.

«أرجو أن يبقى»، قال مايكل، «لقد أردت أن يكون لي كلب دومًا».

سمع هاول صوت مايكل، فنزل ملتفًا باللحاف البني المرقع الذي أخذه من سريره. توقفت صوفي عن الخياطة وأمسكت بالكلب إمساكًا شديدًا. غير أن الكلب كان ودودًا إلى هاول أيضًا، فلم يمانع حين مد هاول يدًا من اللحاف وربت عليه.

«حسن؟»، زعق هاول، مبددًا غيوم الغبار وهو يستحضر مزيدًا من المناديل الورقية.

«جلبت كل شيء»، قال مايكل. «كما أننا محظوظون حقًا يا هاول. ففي ماركت تشپنغ متجر فارغ للبيع، كان من قبل متجرًا للقبعات. أتظن أنك تستطيع تحريك القلعة إلى هناك؟».

جلس هاول على مقعد طويل مثل سناتور روماني في رداء وفكّر. «يعتمد هذا على سعره»، قال. «إنني لشديد الرغبة في تحريك مدخل پورتهڤن إلى هناك. غير أن هذا ليس بالأمر السهل، لأنه سيعني تحريك كالسيفر، وپورتهڤن تقع حيث يكون كالسيفر. ما رأيك يا كالسيفر؟».

«لا بد أن تكون عملية نقلي دقيقة للغاية»، قال كالسيفر، وقد غدا أفتح بعدة درجات لدى تفكيره بهذا. «أظن أن عليكم تركي حيث أنا».

فاني تبيع المتجر إذن، قالت صوفي في نفسها حين انهمك الثلاثة الآخرون في نقاش الانتقال، ويا للضمير الذي قال هاول إنه يتمتع به! لكن الأمر الرئيس الذي يشغل ذهنها كان السلوك المحير للكلب، فرغم أن صوفي أخبرته عددًا من المرات أنها لن تستطيع رفع الرقية عنه، فلم يبدِ رغبة في الرحيل، ولم يرغب بعضّ هاول. وسمح لمايكل أن يأخذه في نزهة إلى سباخ پورتهڤن تلك الليلة والصباح التالي، كأنما كان هدفه أن يغدو فردًا من العائلة.

«رغم أنني لو كنت مكانك، لذهبت إلى أپر فولدنغ لأكون معها في حالة الإحباط العاطفي»، أخبرته صوفي.

تردد هاول على الفراش وخارجه طيلة اليوم التالي. فإن خلد إلى الفراش تعين على مايكل الإسراع صعودًا ونزولًا. وإن نهض، كان على مايكل أن يجري، يقيس القلعة معه ويثبت ركائز معدنية في كل زاوية. وبين هذين الأمرين، استمر هاول في الظهور، ملتفًا بلحافه وغيوم الغبار، ليسأل أسئلة ويعلن قرارات، معظمها موجه إلى صوفي.

«ما دمت قد طليت كل العلامات التي وضعناها لما ابتكرنا القلعة، أتستطيعين إخباري بمكان العلامات في غرفة مايكل يا صوفي؟».

«لا»، قالت صوفي وهي تخيط مثلثها الأزرق السبعين. «لا أستطيع».

عطس هاول بحزن وذهب، ثم عاد بعد وقت قصير. «إن عزمنا على شراء متجر القبعات يا صوفي، فماذا سنبيع؟».

رأت صوفي أنها سئمت من القبعات ولا تريد الاستمرار طوال حياتها، فقالت «لا قبعات. بوسعك أن تشتري المتجر، لا الحرفة، كما تعرف».

«أشغلي عقلك الجهنمي بالأمر»، قال هاول. «أو فكري، إن كنت تعرفين كيف تفعلين»، وذهب يصعد السلالم ثانية.

ونزل مرة أخرى بعد خمس دقائق. «ألديك أي تفضيلات أخرى بشأن المداخل الأخرى يا صوفي؟ أين ترغبين أن نعيش؟».

فوجدت صوفي ذهنها يذهب سريعًا إلى بيت السيدة فيرفاكس.
«أريد بيتًا جميلًا فيه الكثير من الأزهار»، قالت.

«فهمت»، زعق هاول وابتعد ثانية.

وحين ظهر المرة التالية كان متأنقًا، وقد فعل هذا ثلاث مرات ذلك النهار، ولم تر صوفي في الأمر سوءًا إلى أن وضع هاول العباءة المخملية التي استخدمها مايكل وصار رجلًا أحمر اللحية شاحبًا يسعل يضع على أنفه منديلًا أحمر كبيرًا. فعرفت أن هاول خارج، فقالت له «ستزيد زكامك سوءًا».

«سأموت وستحزنين عندئذ»، قال الرجل ذو اللحية الحمراء وخرج من الباب مديرًا المقبض الأخضر للأسفل.

تسنى لمايكل ساعة بعد ذلك ليعمل على رقيته. وخاطت صوفي المثلث الأزرق الرابع والثمانين، ثم عاد الرجل ذو اللحية الحمراء. فوضع عنه العباءة المخملية وعاد هاول، سعاله أشد من ذي قبل، وأكثر حزنًا على نفسه أيضًا، إن كان هذا ممكنًا.

«لقد أخذت المتجر»، قال لمايكل. «إن له كوخًا مفيدًا في الخلف وبيتًا على الجانب، وأخذت كل شيء. لست واثقًا كيف سأدفع ثمنه».

«ماذا عن المال الذي تقاضيته للعثور على الأمير جستن؟»، سأل مايكل.

«لقد نسيت»، زعق هاول، «أن الهدف من هذه العملية ألا أبحث عن الأمير جستن. سنختفي عن الأنظار». وصعد السلالم

يسعل ليخلد إلى الفراش، حيث شرع بعد قليل في هز عوارض السقف وهو يعطس طلبًا للاهتمام مرة أخرى.

اضطر مايكل إلى ترك الرقية والإسراع للأعلى. كانت صوفي ستذهب لولا أن الرجل الكلب اعترض طريقها حين جربت، وكان هذا جزءًا آخر من سلوكه الغريب. لم يرغب أن تفعل صوفي أي شيء من أجل هاول، وأحست أن هذا منطقي تمامًا، فبدأت بخياطة المثلث الخامس والثمانين.

نزل مايكل مسرورًا وعاد للعمل على رقيته. كان سعيدًا للغاية فانضم إلى كالسيفر في غناء أغنية القدر وتحدث إلى الجمجمة أثناء عمله مثلما تفعل صوفي. «سنعيش في ماركت تشيبنغ»، قال للجمجمة. «بوسعي الذهاب لرؤية لتي كل يوم».

«ألهذا أخبرت هاول عن المتجر؟»، سألت صوفي وهي تسلك إبرتها، وقد كانت عندئذ تخيط المثلث التاسع والثمانين.

«أجل»، قال مايكل سعيدًا. «أخبرتني لتي عنه حين كنا نتساءل كيف سنلتقي. قلت لها...».

قاطعه هاول، وهو يجرر لحافه على السلم مرة أخرى. «هذا آخر ظهور لي قطعًا»، زعق هاول. «نسيت أن أقول إن السيدة پنتسمتن ستدفن غدًا في عزبتها قرب پورتهڤن وأحتاج هذه البدلة نظيفة». وأخرج البدلة الرمادية والقرمزية من تحت اللحاف وألقى بها في حجر صوفي. «إنك تهتمين بالبدلة الخطأ»، قال لصوفي، «هذه البدلة التي أحب، ولكن ليس لي طاقة لتنظيفها بنفسي».

«لست مضطرًا لحضور الجنازة، أليس كذلك؟»، قال مايكل بقلق.

«ما كنت لأحلم بالبقاء بعيدًا»، قال هاول. «لقد صنعت مني السيدة پنتسمتن الساحر الذي أنا عليه، ويجب أن أظهر لها احترامي».

«لكن زكامك أسوأ»، قال مايكل.

«هو من جعله أسوأ»، قالت صوفي. «بخروجه وتبذير نقوده».

ارتسمت على وجه هاول أنبل تعابيره فزعق «سأكون على ما يرام، ما دمت بعيدًا عن ريح البحر. إن عزبة آل پنتسمتن مكان قارس البرودة، والأشجار منحنية على جوانبها ولا ملاذ لأميال».

عرفت صوفي أنه يتظاهر طلبًا للعطف، فنخرت.

«وماذا عن الساحرة؟»، سأل مايكل.

سعل هاول سعالًا مثيرًا للشفقة. «سأذهب متخفيًا، كجثة أخرى على الأرجح»، قال وهو يجرر لحافه عائدًا نحو السلالم.

«ستحتاج كفنًا إذن لا هذه البدلة»، قالت صوفي من ورائه. فجرر هاول لحافه صاعدًا السلم بدون أن يرد ولم تعترض صوفي. كان بين يديها البدلة المسحورة وهذه فرصة جيدة لا يجدر تضييعها. فأخذت المقص وقصت البدلة الرمادية القرمزية إلى سبع قطع متعرجة، وسيثني هذا هاول عن لبسها. ثم شرعت تعمل في خياطة آخر المثلثات من البدلة الفضية والزرقاء، قصاصات صغيرة في

معظمها حول الرقبة. كانت صغيرة جدًا في الحقيقة، إذ بدت ذات قياس صغير جدًا حتى على وصيف السيدة بِنتسمتن.

«عجّل بتلك الرقية يا مايكل، فالأمر ملحّ»، قالت.

«لن أتأخر»، قال مايكل.

بعد نصف ساعة دقق الأشياء في قائمته وقال إنه يظن أنه جاهز. وتقدم نحو صوفي حاملًا وعاء صغيرًا في قاعه مقدار ضئيل من المسحوق الأخضر. «أين تريدينها؟».

«هنا»، قالت صوفي، وقد قطعت آخر الخيوط. دفعت الرجل الكلب النائم جانبًا، ووضعت البدلة ذات قياس الطفل بحذر على الأرض. أمال مايكل، بحذر شديد، الوعاء ونثر المسحوق على كل إنش منها.

مرت دقيقة، وتنفس مايكل الصعداء. إذ أخذت البدلة تتمدد برفق. راقباها تتمدد وتتمدد، حتى تكوم جانب منها مقابل الرجل الكلب وتعين على صوفي سحبه بعيدًا لتمنحها مساحة.

بعد خمس دقائق أجمع كلاهما على أن البدلة تبدو بقياس هاول. فحملها مايكل، ونفض عنها المسحوق الزائد بعناية على الموقد. اتقد كالسيفر وتوهج، وأجفل الرجل الكلب في نومه.

«انتبه!»، قال كالسيفر. «إنها قوية».

أخذت صوفي البدلة وعرجت تتسلل صعودًا. كان هاول نائمًا على وسائدة الرمادية، وعناكبه منهمكة في غزل بيوت جديدة

حوله. بدا نبيلًا وحزينًا في نومه، وعرجت صوفي لتضع البدلة الفضية الزرقاء على الصندوق القديم قرب النافذة، محاولة أن تؤكد لنفسها أن البدلة لم تكبر أكثر بعد أن حملتها. «ومع ذلك، إن منعتك من حضور الجنازة، فلا بأس»، همست وهي تطل من النافذة.

كانت الشمس منخفضة في الحديقة الجميلة، وفي الخارج رجل ضخم داكن البشرة، يرمي بحماس كرة حمراء نحو ابن أخت هاول نيل، الذي يقف وعلى وجهه علائم الصبر على المعاناة ممسكًا بمضرب. أدركت صوفي أن الرجل هو والد نيل.

«أتتلصصين ثانية؟»، قال هاول فجأة من خلفها. استدارت صوفي شاعرة بالذنب، لتجد أن هاول كان نصف مستيقظ. لعله ظن هذا اليوم هو اليوم السابق، لأنه قال «"وأعذني من شر العين"، هذا كله جزء من الماضي. أحب ويلز ولكنها لا تحبني، وميغن حسودة لأنها محترمة وأنا لست كذلك». ثم استيقظ أكثر وسأل «ما الذي تفعلينه؟».

«أضع بدلتك من أجلك»، قالت صوفي وعرجت خارجة على عجل.

لا بد أن هاول عاد إلى النوم، فلم يخرج ثانية تلك الليلة. ولم يبدِ أي حركة حين نهضت صوفي ومايكل الصباح التالي، وحرصا على ألا يزعجاه. إذ لم يشعر أي منهما أن الذهاب إلى جنازة السيدة بنتسمتن فكرة سديدة. تسلل مايكل خارجًا إلى التلال ليأخذ الرجل الكلب في نزهة، ومشت صوفي بهدوء تعد الإفطار وتأمل

أن يتأخر هاول في النوم. ما زال هاول لم يبد أي حركة حين عاد مايكل. كان الرجل الكلب يتضور جوعًا، فبحث مايكل وصوفي في الخزانة عن أشياء يأكلها الكلب عندما سمعا هاول ينزل السلم ببطء.

«صوفي»، قال صوت هاول متهمًا.

كان يقف ممسكًا الباب المؤدي إلى السلم مفتوحًا بذراع اختفت تمامًا في كم فضي وأزرق هائل الحجم. كانت قدماه على العتبة الأخيرة، تقفان داخل النصف العلوي من السترة العملاقة للبدلة الفضية الزرقاء. ولم تصل ذراع هاول الأخرى قرب الكم الضخم الآخر. رأت صوفي تحديد الذراع، تصنع إيماءات تبرز من تحت طوق الرقبة الواسع. وخلف هاول، كانت السلالم مليئة بالبدلة الزرقاء الفضية تمتد على طول الطريق نحو غرفته.

«أوه يا إلهي»، قال مايكل «إنه خطئي يا هاول. أنا...».

«خطؤك؟ هراء!»، قال هاول. «أستطيع تحسس يد صوفي على مبعدة ميل من هذه البدلة. أين بدلتي الأخرى يا عزيزتي صوفي؟».

فجلبت صوفي قطع البدلة الرمادية القرمزية على عجل من خزانة المكانس، حيث خبأتها.

عاينها هاول وقال «حسن، هذا شيء ما. حسبتها ستكون صغيرة جدًا فلا أراها. أعطيني إياها، سبعتها». مدت صوفي كومة من القماش الرمادي والقرمزي نحوه. ونجح هاول، بعد قليل من

البحث، في العثور على يده داخل الثنيات المتعددة للكم الفضي والأزرق وأخرجها من فتحة بين درزتين هائلتين. جذب الكومة منها وقال «سأذهب الآن لأستعد من أجل الجنازة. وأرجو من كليكما أن تحجما عن فعل أي شيء أثناء استعدادي. أرى أن صوفي في أحسن حالاتها الآن، وأريد أن تكون هذه الغرفة في حجمها المعتاد لدى عودتي إليها».

وانطلق في جلال نحو الحمام، يرفل في البدلة الفضية الزرقاء، وتبعه الباقي منها، ينساب على الدرجة إثر الدرجة ويجف على الأرضية. حين وصل هاول الحمام، كان معظم السترة في الطابق السفلي والبنطال يظهر على السلم. وارب هاول باب الحمام واستمر في جر البدلة يدًا إثر يد. وقف مايكل وصوفي والرجل الكلب وشاهدوا الياردة تلو الياردة من القماش الأزرق أو الفضي تتقدم عبر الأرضية، يزينها زر فضي وحيد بحجم حجر الرحى ودرزات هائلة عادية كالحبل. لا بد أن طولها بلغ الميل.

«لا أظنني صنعت تلك الرقية على نحو صحيح»، قال مايكل حين اختفى آخر طرف دائري ضخم حول باب الحمام.

«ولم يقل لك ذلك!»، قال كالسيفر، «جذلًا آخر من فضلك».

أطعم مايكل كالسيفر جذلًا، وأطعمت صوفي الرجل الكلب. غير أن أحدًا منهما لم يجرؤ على فعل أي شيء آخر سوى الوقوف وأكل الخبز والعسل على الإفطار حتى خرج هاول من الحمام.

لقد خرج بعد ساعتين من بخار تعويذات معطرة بشذى رعي

الحمام وكان مسربلًا بالسواد، فبدلته سوداء وحذاؤه أسود وشعره أسود أيضًا، أسود مزرق بلون الغراب كشعر الآنسة أنغوريان. وكان قرطه دلية طويلة سوداء. تساءلت صوفي إن كان الشعر الأسود احترامًا للسيدة پنتستمن، فقد وافقتها الرأي بأن الشعر الأسود يناسب هاول. كانت عيناه الخضراوان الزجاجيتان أجمل معه، ولكنها تساءلت كثيرًا أي البدلتين كانت السوداء.

استحضر هاول لنفسه منديلًا ورقيًا أسود ونفر أنفه فيه، فاهتزت النافذة. حمل شريحة من الخبز والعسل من طاولة الأشغال وأومأ إلى الرجل الكلب، فبدا مترددًا. «أريدك أن تكون حيث أستطيع النظر إليك»، زعق هاول، إذ لم يزل زكامه شديدًا. «تعال هنا أيها الكلب». ولما زحف الكلب مترددًا وسط الغرفة، أضاف هاول «لن تجدي بدلتي الأخرى في الحمام يا سيدة متلصصة. لن تضعي يديك على أي من ثيابي مرة أخرى».

توقفت صوفي عن التسلل إلى الحمام ورأت هاول يمشي حول الرجل الكلب، وهو يأكل الخبز والعسل وينفر أنفه على التوالي.

«ما رأيك بهذا تمويهًا؟»، قال. وألقى بالمنديل الأسود إلى كالسيفر وجثا إلى الأمام على يديه وركبتيه. ولما شرع يتحرك اختفى. فما إن لامس الأرض حتى تحول إلى كلب صيد أحمر الشعر أجعده، كالرجل الكلب.

بوغت الرجل الكلب دهشة، وسيطرت عليه غريزته، فرفع رقبته وخفض أذنيه ودمدم. قلده هاول، وإلا لعله راوده الشعور

نفسه. مشى الكلبان المتماثلان حول بعضهما بعضًا، يحملقان وينفشان شعرهما ويدمدمان ويستعدان للقتال.

أمسكت صوفي ذيل الذي ظنته الرجل الكلب، وأمسك مايكل الذي ظنه هاول. فعاد هاول إلى طبيعته بسرعة. ووجدت صوفي شخصًا طويلًا أسود يقف أمامها فتركت ظهر سترة هاول. وجلس الرجل الكلب عند قدمي مايكل، يحدق حزينًا.

«جيد»، قال هاول. «إن أمكنني خداع كلب آخر، فسأخدع أي أحد. لن يلاحظ أحد في الجنازة كلبًا ضالًا يرفع رجله عند شواهد القبور». ومضى نحو الباب وأدار المقبض نحو الأزرق.

«انتظر لحظة»، قالت صوفي. «إن كنت ذاهبًا إلى الجنازة بوصفك كلب صيد أحمر، فلماذا تتجشم عناء التسربل بالسواد؟».

رفع هاول ذقنه وبدا نبيلًا. «احترامًا للسيدة پنتسمتن»، قال وهو يفتح الباب. «تحب أن يراعي المرء كل التفاصيل»، وخرج إلى شارع پورتهڤن.

الفصل السادس عشر
وفيه الكثير من أعمال السحر

مرت ساعات عديدة. وشعر الرجل الكلب بالجوع مرة أخرى، فقررت صوفي ومايكل تناول الغداء أيضًا، واقتربت صوفي من كالسيفر تحمل المقلاة.

«لماذا لا تتناولان الخبز والجبن ولو لمرة؟»، تذمر كالسيفر.

لكنه أحنى رأسه كعادته. كانت صوفي تضع المقلاة أعلى اللهب الأخضر المموج حين تردد صوت هاول الأجش فجأة.

«هيئ نفسك يا كالسيفر! لقد وجدتني!».

قفز كالسيفر للأعلى، فوقعت المقلاة على ركبتي صوفي. «عليك الانتظار!»، دمدم كالسيفر وهو يضطرم على غير هدى في المدخنة. ثم تحول إلى اثني عشر وجهًا متقدًا أزرق، كأنه تعرض لهز عنيف، وتأجج مطلقًا طنينًا عاليًا أجش.

«ربما يعني هذا أنهما يتقاتلان»، همس مايكل.

لعقت صوفي إصبعًا احترقت قليلًا وأزالت بيدها الأخرى عن

تنورتها شرائح من اللحم المقدد، ونظرت إلى كالسيفر. كان يتمايل من جانب لآخر في الموقد، وتحولت وجوهه المشوشة من الأزرق الداكن إلى السماوي ثم إلى الأبيض تقريبًا. في لحظة كان له عيون برتقالية عديدة، وفي الأخرى صفوف من العيون الفضية البراقة. لم تتخيل شيئًا كهذا قط.

انساب شيء في الأعلى عاصفًا ثم انفجر مزلزلًا كل شيء في الغرفة، وتبعه شيء آخر بدمدمة حادة طويلة. تحول كالسيفر إلى الأسود المزرق، وتكرمش جلد صوفي من الاشتعال المرتد للسحر.

تسلق مايكل إلى النافذة «إنهما قريبان جدًا!».

عرجت صوفي إلى النافذة أيضًا. يبدو أن عاصفة السحر قد ألقت بظلالها على نصف الأشياء في الغرفة. فقد أخذ فكا الجمجمة يصطكان بقوة حد أنها تحركت في حلقات، وأخذت العلب تتقافز، والمساحيق تضطرب في الجرار. سقط كتاب بقوة من الرفوف على الأرض مفتوحًا، مقلبًا صفحاته جيئة وذهابًا. وفي أحد طرفي الغرفة فار البخار المعطر خارجًا من الحمام، وفي الطرف الآخر أطلق غيتار هاول نغمات ناشزة، وتمايل كالسيفر أكثر من ذي قبل.

وضع مايكل الجمجمة في حوض المغسلة ليضع حدًا لاصطكاك أسنانها الذي سيوقعها على الأرض، وفتح النافذة وأطل برأسه خارجها. أيًا كان ما يحدث فقد كان بعيدًا عن الأنظار بعدًا يثير الجنون. إذ وقف سكان البيوت المقابلة عند الأبواب والنوافذ يشيرون إلى شيء في الأعلى بصورة أو بأخرى. ركض مايكل وصوفي

إلى خزانة المكانس، حيث أمسك كل منهما بعباءة مخملية وألقاها عليه. حصلت صوفي على العباءة التي حولت لابسها إلى رجل ذي لحية حمراء، وقد عرفت الآن ما دعا كالسيفر للضحك عليها حين وضعت العباءة الأخرى. إذ تحول مايكل إلى حصان، ولكن الوقت لم يكن مناسبًا للضحك عندئذ. فتحت صوفي الباب جرًا وأسرعت خارجة إلى الشارع، يتبعها الرجل الكلب، الذي بدا عليه هدوء يثير العجب حيال الأمر كله. خطا مايكل إلى الخارج خلفها مقعقعًا بحوافر لا وجود لها، مخلّفين كالسيفر يتحول من الأزرق إلى الأبيض.

غص الشارع بأناس ينظرون إلى الأعلى، ولم يتسن لأحد الوقت ليرى أشياء كالخيول تخرج من البيوت. نظر صوفي ومايكل أيضًا، ووجدا غيمة ضخمة تفور وتلتف فوق أعالي المداخن. كانت سوداء تلتف حول نفسها بعنف، ويطعن ظلماتها وميضٌ أبيض لا يشبه الضوء تمامًا. ولكن حالما وصل صوفي ومايكل، اتخذت كتلة السحر شكل حزمة ضبابية من الأفاعي المتناحرة. ثم انقسمت إلى اثنتين محدثة صوتًا شبيهًا بقتال قطط هائل. أسرعت إحدى الكتلتين تعوي فوق السطوح وبعيدًا نحو البحر، وتبعتها الأخرى صارخة.

عاد بعض الناس إلى داخل بيوتهم حينها، وانضمت صوفي ومايكل إلى جمع الناس الأكثر جسارة الماضين نحو الدروب المنحدرة نحو رصيف الميناء. وهنالك ظن الجميع أن الإطلالة الفضلى ستكون على امتداد انعطافة سور الميناء. وعرجت صوفي لتصل إلى هناك أيضًا، غير أنه ما كان من داعٍ للابتعاد عن حِمى كوخ مدير الميناء. لاحت غيمتان في الفضاء، بعيدًا باتجاه البحر على

الجانب الآخر من سور الميناء، كانتا الغيمتين الوحيدتين في السماء الزرقاء الصافية. كانت رؤيتهما سهلة جدًا، كما كان سهلًا بقدر مماثل رؤية الرقعة الداكنة لعاصفة ثائرة على البحر بين الغيمتين، تثير أمواجًا كبيرة رؤوسها بيضاء. ثمة سفينة منحوسة عالقة في العاصفة، تمايلت صواريها للأمام والخلف، ورأوا ينابيع الماء تضربها من كل جانب. كان البحارة يحاولون جاهدين أن يرفعوا الأشرعة، لكن أحدها على الأقل قد تمزق وتطاير في خرق رمادية.

«ألا يستطيعون الاهتمام بتلك السفينة؟!»، قال أحدهم باستياء.

ثم ضربت الريح والأمواج العاصفة سور الميناء، وجَلَده الماء الأبيض، فعاد الجسورون مسرعين للتجمع عند حافة رصيف الميناء، حيث هاجت السفن الراسية وماجت في مراسيها. وفي خضم هذا كله كان مقدار عظيم من الصراخ بأصوات عالية مغنية. أخرجت صوفي وجهها إلى الريح خلف الكوخ، من حيث أتى الصراخ، واكتشفت أن السحر المحتدم قد أثار ما هو أكثر من البحر والسفينة المحطمة. فقد كان عدد من السيدات السمراوات المبتلات الزلقات، لهن شعر بني مخضر متطاير يجرجرن أنفسهن نحو جدار الميناء، وهن يصرخن ويمددن أذرعًا مبللة إلى سيدات صارخات مبتلات أخريات ألقين إلى الأمواج، ولكل واحدة منهن ذيل سمكة عوضًا عن السيقان.

«تبًا!»، قالت صوفي. «هؤلاء الحوريات من اللعنة!» وهذا يعني أنه ظل أمران مستحيلان آخران ليتحققا.

نظرت إلى الغيمتين، وكان هاول يجثو عند اليسرى أكبر وأقرب بكثير مما ظننت. لم يزل مسربلًا بالسواد، وبالطبع كان ينظر من فوق كتفه إلى الحوريات المهتاجات. لم يكن ينظر إليهن كأنه يتذكر أنهن جزء من اللعنة.

«انشغل بأمر الساحرة!»، صاح الحصان بجوار صوفي.

قفزت الساحرة إلى الوجود، ووقفت على الغيمة اليمنى، في دوامة رداء بلون اللهب وشعر منساب أحمر، وذراعاها مرفوعتان لتستحضر مزيدًا من السحر. لما التفت هاول ونظر إليها، انخفضت ذراعاها، وانتصبت غيمة هاول في نافورة من لهب وردي اللون، اجتاحت حرارتها الميناء، وانبعث البخار من حجارة السور.

«كل شيء على ما يرام!»، قال الحصان لاهثًا.

كان هاول على السفينة المترامية الموشكة على الغرق في الأسفل. أضحى شكلًا ضئيلًا، مستندًا على الصارية الرئيسة المتمايلة، وأعلم الساحرة أنها ضيّعته عبر تلويحه لها بصفاقة. رأته الساحرة لحظة تلويحه، فتحولت الغيمة والساحرة وكل شيء في لحظة واحدة إلى طائر منقض بضراوة يغوص في أثر السفينة.

اختفت السفينة، وغنت الحوريات بصراخ يثير النعاس. لم يكن ثمة شيء إلا الماء المتلاطم الهائج حيث كانت السفينة، لكن الطائر الغواص كان مسرعًا ولم يستطع التوقف، فغاص في البحر مثيرًا رشاشًا قويًا.

هلل الجميع عند حافة الرصيف، وقال أحد خلف صوفي «عرفت أنها ليست بسفينة حقيقية!».

«أجل، لا بد أنها خداع بصري»، قال الحصان بحكمة، «لقد كانت بالغة الصغر».

وبرهانًا على أن السفينة كانت أقرب مما بدت، وصلت أمواج من الرشاش سور الميناء قبل أن يتوقف مايكل عن الكلام. وسارت تلة خضراء بارتفاع عشرين قدمًا من الماء بهدوء على الجانبين، كاسحة الحوريات الصارخات إلى الميناء، مدمرة كل سفينة راسية بعنف من جوانبها، وخابطة في دوامات حول كوخ مدير الميناء. امتدت يد من جانب الحصان وأعادت صوفي نحو الرصيف، فلهثت صوفي وتعثرت في ماء رمادي يبلغ الركبة. وقفز الرجل الكلب قربهما، مبللًا حتى أذنيه.

وصلوا حافة الرصيف، وارتفعت كل القوارب في الميناء للأعلى، حين ارتفع جبل ثان من الماء فوق سور الميناء، ومن جانبه الهادئ انبثق وحش. كان شيئًا طويلًا أسود ذا مخالب، نصفه قط ونصفه أسد بحر، وجاء يجري عند السور نحو حافة الرصيف. وانبثق آخر من الموجة حين تحطمت في الميناء، طويل واهن أيضًا، لكنه أشد تحرشفًا، وجاء يجري خلف الوحش الأول.

أدرك الجميع أن القتال لم ينته بعد وهرعوا إلى الخلف نحو الأكواخ والبيوت على حافة رصيف الميناء، فوقعت صوفي على حبل ثم على عتبة. امتدت الذراع من الحصان وسحبتها لتنهضها حين

توخط الوحشان وانتثرا في الماء المالح. دوّمت موجة أخرى على سور الميناء، وانبثق منها وحشان آخران. كانا مماثلين للأولين، عدا أن المحرشف كان أقرب شبهًا بالقط. وجلبت الموجة الهائجة التالية آخرين، أقرب معًا.

«ما الذي يحدث؟»، زعقت صوفي حين تسابق الزوج الثالث، راجًا حجارة المرسى في ركضهما.

«خداع بصري»، قال صوت مايكل من فم الحصان. «بعضها. يحاول أحدهما خداع الآخر لمطاردة الوحش الخطأ».

«وأيهما هما؟»، قالت صوفي.

«لا أدري»، قال الحصان.

وجد بعض المتفرجون الوحوش مرعبة جدًا، فعاد كثيرون إلى البيوت، وقفز آخرون إلى السفن الملتفة لحمايتها من رصيف الميناء. انضم صوفي ومايكل إلى المتفرجين أصحاب القلوب القوية الذين انطلقوا عبر شوارع پورتهڤن خلف الوحوش. فتبعوا أولًا نهرًا من ماء البحر، ثم آثار براثن مبللة ضخمة، وأخيرًا الثلوم والخدوش البيضاء حيث حفرت مخالب الوحوش في حجارة الشوارع. فقد أخذت هذه الجميع إلى آخر البلدة إلى السباخ التي لاحقت فيها صوفي ومايكل النجمة الساقطة.

عندئذ ارتدت الوحوش الستة إلى نقط سوداء، وتلاشت في الأفق المنبسط. تفرق الجمع في صف مبعثر على الضفة يحدقون

ويأملون بمشاهدة المزيد، وخائفين مما قد يرون. لم يستطع أحد رؤية شيء بعد بعض الوقت إلا السباخ الفارغة، ولم يحدث شيء. كان قلة من الناس يستديرون للذهاب عندما صاح الباقون كلهم «انظروا!» دارت كرة من النار الشاحبة بكسل في البعيد، لا بد أنها هائلة الحجم، فالانفجار الذي صاحبها وصل المتفرجين لما تحولت كرة النار برجًا متناثرًا من الدخان. أجفل صف الناس كلهم لدى العاصفة الكليلة، ورأوا الدخان يتمدد حتى صار جزءًا من الضباب فوق السباخ، وواصلوا المشاهدة بعد ذلك، ولكن لم يحدث شيء إلا الهدوء والصمت. هزت الريح حشائش السباخ، وأخذت الطيور تتجرأ على النداء ثانية.

«أظن أنهما قضيا على بعضهما بعضًا»، قال الناس. وشيئًا فشيئًا تفرق الجمع في أشكال مبتعدة تسرع إلى أعمالها التي تركوها دون إنهائها.

انتظر مايكل وصوفي حتى كانا الأخيرين، إذ تبين أن الأمر انقضى حقًا. ثم قفلا عائدين إلى پورتهڤن. لم تنتب أي منهما رغبة في الكلام، ولم تبد السعادة إلا على الرجل الكلب، إذ تهادى قربهما مرحًا فأيقنت صوفي أنه يظن هاول قد قضي عليه. كان سعيدًا جدًا بالحياة فلما انعطفوا إلى الشارع الذي يقع فيه بيت هاول وصادفوا قطة ضالة تعبر الطريق، عوى الرجل الكلب عواء فرحًا وعدا خلفها. طاردها في سرعة ورشاقة نحو عتبة القلعة، حيث استدارت وزمجرت.

«انصرف!»، ماءت، «هذا ما ينقصني!».

تراجع الكلب بادٍ عليه الخجل.

قعقع مايكل عند الباب، وصاح «هاول!».

تضاءلت القطة وغدت بحجم هريرة وبدت حزينة على حالها.
«وكلاكما يبدو سخيفًا!»، قالت. «افتحي الباب، فأنا منهك».

فتحت صوفي الباب ودخلت القطة، وسارت نحو المصطلى، حيث كان كالسيفر لهب أزرق صغير فحسب، وبشيء من الجهد وضعت مخلبيها الأماميين على مقعد الكرسي. وهنالك أخذت تكبر ببطء لتعود هاول، مضاعفًا انحناءه.

«أقتلت الساحرة؟»، سأل مايكل بلهفة، خالعًا عنه العباءة وعائدًا إلى ذاته.

«كلا»، قال هاول. واستدار وتهاوى على الكرسي، حيث اضطجع باد عليه التعب الشديد. «كل هذا علاوة على الزكام!»، زعق. «اخلعي عنك هذه اللحية الحمراء الرهيبة يا صوفي حبًا بالسماء، واعثري لي على زجاجة براندي في الخزانة... إلا إن شربتها أو حولتها إلى زيت الراتنج طبعًا».

خلعت صوفي العباءة ووجدت زجاجة البراندي وكأسًا. شرب هاول كأسًا واحدة كأنها ماء، ثم صب لنفسه كأسًا ثانية، وبدلًا من شربها، قطّرها بحذر على كالسيفر. فاتقد كالسيفر وأز وبدا منتعشًا بعض الشيء. صب هاول كأسًا ثالثة واستلقى وهو يرشفها. «لا

تقفا تحدقان بي!»، قال هاول. «لست أدري من الذي فاز، فالساحرة عتية يصعب التغلب عليها. وهي تعتمد غالبًا على عفريت النار لديها وتكفي نفسها العناء. لكنني أظننا منحناها شيئًا تفكر به، إه يا كالسيفر؟».

«إن عفريتها هرِم»، قال كالسيفر في هسهسة واهنة من تحت جذوله. «أنا أقوى منه، لكنه يعرف أشياء لم تخطر لي قط. وهي لها من العمر مئة سنة، وكاد يقتلني!»، هسهس قليلًا ثم ارتفع خارجًا من جذوله ليتذمر «كان عليك تحذيري!».

«لقد فعلت أيها المحتال العجوز!»، قال هاول منهكًا، «أنت تعرف كل ما أعرفه».

استلقى هاول يرشف البراندي ووجد مايكل خبزًا ونقانق ليأكلوا. أعاد الطعام الحيوية إليهم جميعًا، عدا الرجل الكلب الذي بدا خانعًا الآن وقد عاد هاول. وأخذ كالسيفر يتوهج ويعود إلى ذاته الزرقاء كالمعتاد.

«هذا لن ينفع!»، قال هاول، ونهض. «احترس يا مايكل، فالساحرة تعرف أننا في پورتهڤن، ولن نضطر إلى تحريك القلعة ومدخل كنغزبري الآن فحسب، بل علينا أيضًا أن ننقل كالسيفر إلى البيت الذي يتصل بمتجر القبعات».

«تنقلوني؟»، طرطق كالسيفر، إذ تحول إلى اللون اللازوردي من فزعه.

«هذا صحيح»، قال هاول. «لك أن تختار بين ماركت تشپنغ والساحرة، فلا تكن عنيدًا».

«اللعنة!»، ناح كالسيفر وغاص في قعر الموقد.

الفصل السابع عشر

وفيه تحرك القلعة المتحركة بيتًا

شرع هاول في العمل بجدٍّ كأنه نال أسبوعًا من الراحة. ولو لم تره صوفي يخوض معركة ضارية من السحر قبل ساعة، لما صدقت ذلك. إذ اندفع هو ومايكل يتبادلان القياسات ويخططان بالطباشير علامات غريبة في الأماكن التي ثبتا فيها الركائز المعدنية من قبل. يبدو أنهما خططا بالطباشير كل ركن، حتى الفناء الخلفي، وسبّبت لهما قليلًا من المتاعب حجيرة صوفي الكائنة تحت الدرج والمكان الغريب الشكل في سقف الحمام. نُحّيت صوفي والرجل الكلب إلى هذا الجانب وذاك، ثم دفعا جانبًا كلية ليتمكن مايكل من الزحف وهو يرسم بالطباشير نجمة خماسية الرؤوس داخل دائرة على الأرض.

فرغ مايكل من هذا وأخذ ينفض الغبار عن ركبتيه حين جاء هاول يركض وبقع الطلاء الأبيض تلطّخ ثيابه السوداء. ودفعت صوفي والرجل الكلب جانبًا مرة أخرى حتى يستطيع هاول الزحف وهو يكتب العلامات داخل كل من النجمة والدائرة وحولها.

فذهبت صوفي والرجل الكلب للجلوس على الدرج، وكان الرجل الكلب يرتعش، إذ لم يبد هذا سحرًا يعجبه.

ركض مايكل وهاول خارجين إلى الفناء، ثم عاد هاول جريًا وصاح «صوفي! بسرعة! ماذا سنبيع في ذلك المتجر؟».

«زهور»، قالت صوفي وهي تتذكر السيدة فيرفاكس ثانية.

«عظيم»، قال هاول وأسرع إلى الباب حاملًا علبة طلاء وفرشاة صغيرة. وغمر الفرشاة في العلبة وطلى بحرص اللطخة الزرقاء باللون الأصفر. ثم غمرها ثانية، وأخرجها بنفسجية، ولوّن بها اللطخة الخضراء. كان الطلاء في المرة الثالثة برتقاليًا، وغطى اللطخة الحمراء. لم يمس هاول اللطخة السوداء، واستدار وانغمس طرف كمّه في علبة الطلاء إلى جانب الفرشاة. «تعسًا!»، قال هاول، وهو يخرجه سحبًا. كان الطرف الساحب بألوان قوس قزح، فنفضه هاول وارتد أسود ثانية.

«أي بدلة هي هذه حقًا؟»، سألت صوفي.

«نسيت. ولا تقاطعيني، فالجزء الأصعب قادم»، قال هاول دافعًا علبة الطلاء إلى طاولة الأشغال. وحمل جرة صغيرة من المساحيق. «أين الرفش الفضي يا مايكل؟».

ركض مايكل قادمًا من الفناء حاملًا معولًا كبيرًا لامعًا. كان مقبضه خشبيًا، غير أن نصله ليس من الفضة الخالصة. «كل شيء هنا!»، قال.

وضع هاول الرفش على ركبته بغية أن يرسم بالطبشور علامة على المقبض والنصل. ثم نثر عليه مسحوقًا أحمر من الجرة، ووضع حفنة من الحبيبات نفسها بحذر في كل رأس من رؤوس النجمة وكوم الباقي في الوسط. «ابتعد يا مايكل»، قال. «ليبتعد الجميع. أأنت جاهز يا كالسيفر؟».

ظهر كالسيفر من بين جذوله في خيط طويل من اللهب الأزرق. «مستعد كاستعدادي دومًا»، قال. «أتعلم أن هذا قد يتسبب بقتلي؟».

«انظر إلى الجانب المشرق»، قال هاول. «قد أكون أنا من سيقتل. تمسكوا بقوة. واحد، اثنان، ثلاثة». ودس الرفش في الموقد، بثبات وبطء شديدين، مبقيًا إياه مستقيمًا بمستوى القضبان. وللحظة أدخله برفق ليضعه تحت كالسيفر، ثم رفعه بمزيد من الثبات والرفق. كان مايكل يحبس أنفاسه ولا شك. «فعلتها!»، قال هاول. سقطت الجذول على الجانبين، ولم تكن مشتعلة. فتوقف هاول واستدار حاملًا كالسيفر على الرفش.

امتلأت الغرفة بالدخان، وتأوه الرجل الكلب وارتعش. وسعل هاول، وواجه صعوبة صغيرة في حمل الرفش بثبات. كانت عينا صوفي تغرورقان بالدمع وكانت الرؤية بوضوح صعبة، ولكن، بقدر ما استطاعت القول، لم يكن لكالسيفر -مثلما أخبرها- قدمان أو ساقان. كان وجهًا مدببًا طويلًا أزرق راسخًا في كتلة سوداء تلمع قليلًا. وكان للكتلة بعجة في الأمام، أوحت لدى النظرة الأولى أن كالسيفر يجثو على ساقين مطويتين صغيرتين. لكن صوفي رأت أن

الأمر ليس كذلك حين اهتزت الكتلة قليلًا، مظهرة أن الأشياء دائرية في الأسفل. لا ريب أن كالسيفر أحس بقوة بانعدام الأمان، إذ كانت عيناه البرتقاليتان مدورتين من الخوف، وظل يطلق لهبًا صغيرًا واهنًا له شكل الذراع على كلا الجانبين، في محاولة عقيمة للإمساك بجانبي الرفش.

«سننتهي سريعًا!»، اختنق هاول محاولًا تهدئته. لكنه اضطر لإغلاق فمه بقوة وأن يقف للحظة محاولًا ألا يسعل. اهتز الرفش وارتسم الذعر على وجه كالسيفر، فاستعاد هاول ثباته، وخطا خطوة طويلة حذرة إلى الدائرة المرسومة بالطبشور، ثم خطوة أخرى إلى قلب النجمة الخماسية الرؤوس. عندئذ استدار ببطء، وهو يحمل الرفش، دورة كاملة ودار كالسيفر معه، متحولًا إلى الأزرق الرمادي ينظر هلعًا.

وكأنها دارت الغرفة بأكملها معهما. جثا الرجل الكلب قرب صوفي، وتلعثم مايكل، وأحست صوفي أن ناحيتهم من العالم قد ارتخت وتأرجحت واهتزت في دائرة على نحو مغثٍ. لم تلم كالسيفر على فزعه الشديد، إذ لم يزل كل شيء يتأرجح ويهتز حين خطا هاول الخطوات الطويلة الحذرة نفسها خارج النجمة وخارج الدائرة. وجثا قرب المصطلى، وبحذر هائل، أزلق كالسيفر معيدًا إياه إلى الموقد ثانية وجمع الجذول حوله. أطلق كالسيفر لهبًا أخضر للأعلى، واتكأ هاول على الرفش وسعل.

اهتزت الغرفة واستقرت. لبضع لحظات، حين كان الدخان لم

يزل منتشرًا في كل مكان، دهشت صوفي إذ رأت الخطوط المعروفة للبهو في البيت الذي ولدت فيه. لقد عرفته وإن كانت أرضيته ألواح جرداء ولم يكن على الجدران أي لوحات. كانت غرفة القلعة تشق طريقها إلى مكانها داخل البهو، دافعة إياه من هنا، وجاذبة إياه من هناك، مطيحة بالسقف ليتماشى مع سقفها ذي العوارض، حتى انصهر الاثنان وأصبحا غرفة القلعة، عدا أنها كانت الآن أعلى قليلًا وأكثر تربيعًا من ذي قبل.

«أفعلتها يا كالسيفر؟»، سعل هاول.

«أظن ذلك»، قال كالسيفر متقدًا في المدخنة، ولم يبد أنه أصيب بسوء جراء نقله في الرفش. «غير أنه يجدر بك التحقق».

نهض هاول مستعينًا بالرفش وفتح الباب مديرًا اللطخة الصفراء نحو الأسفل. في الخارج كان الشارع في ماركت تشيبنغ الذي عرفته صوفي طيلة حياتها، يمشي فيه الناس الذين عرفتهم يتنزهون قبل العشاء، مثلما يفعل الكثير صيفًا. أومأ هاول لكالسيفر، وأغلق الباب وأدار المقبض نحو اللطخة البرتقالية، ثم فتحه ثانية.

تعرج درب معشب واسع من الباب، بين أجمات من الشجر أضاءت جانبيه الشمس الغاربة ضياء بديعًا. وعلى مبعدة انتصبت بوابة حجرية كبيرة عليها تمثال، فقال هاول «أين هذا المكان؟».

«دار فارغة في نهاية الوادي»، قال كالسيفر متخذًا وضعية الدفاع. «إنه البيت الجميل الذي طلبت مني العثور عليه، وهو جميل جدًا».

«أنا واثق من ذلك»، قال هاول. «أرجو ألا يمانع مالكوه الحقيقيون». وأغلق الباب ثم أدار المقبض نحو اللطخة البنفسجية. «والآن إلى القلعة المتحركة»، قال وهو يفتح الباب ثانية.

شارف الليل على الهبوط هناك، وهبت ريح دافئة مضمخة بعطور مختلفة. ورأت صوفي جمعًا من الأوراق الداكنة قد انجرفت للداخل، مثقلة بزهور بنفسجية كبيرة بين الأوراق. ودارت ببطء بعيدًا وحلت محلها ضمة من زنابق بيضاء باهتة وومضة من غروب الشمس على الماء خلفها. كانت الرائحة فاتنة للغاية جعلت صوفي تقطع نصف الغرفة بلا وعي منها.

«كلا، سيبقى أنفك الطويل خارجًا إلى غدٍ»، قال هاول وأغلق الباب مطرقًا. «تقع هذه الناحية على حدود اليباب. أحسنت صنعًا يا كالسيفر. عظيم. بيت جميل وأزهار كثيرة كما أمرنا». وألقى بالرفش وخلد للفراش. ولا بد أنه متعب، فلا شكاوى ولا صراخ، ولا سعال.

كان صوفي ومايكل متعبين أيضًا، فقفز مايكل إلى الكرسي وجلس يمسد على الرجل الكلب، ويحملق. أما صوفي فجثمت على المقعد شاعرة بالغرابة. لقد انتقلوا، وبدا الأمر مثلما كان لكنه مختلف، يثير الحيرة. ولماذا كانت القلعة المتحركة على حدود اليباب؟ أتسحب اللعنة هاول نحو الساحرة؟ أم أن هاول تملص بجهد جهيد فخرج عن طبعه وتحول إلى ما يسميه معظم الناس بالشريف؟

نظرت صوفي إلى مايكل لترى فيما يفكر. كان مايكل نائمًا، وكذلك

الرجل الكلب. فنظرت إلى كالسيفر، الذي يتراقص لهبه ناعسًا بين الجذول الوردية وعيناه البرتقاليتان توشكان على الإغماض. تذكرت كالسيفر وهو يتحول إلى الأبيض، وقد ابيضت عيناه، ثم تذكرته ينظر قلقًا وهو محمول على الرفش، إذ ذكّرها بشيء ما، هيئته بأكملها ذكرتها بشيء.

«كالسيفر»، قالت، «أكنت يومًا نجمة ساقطة؟».

فتح كالسيفر عينًا برتقالية عليها. «طبعًا»، قال. «بوسعي الحديث عن هذا إن شئت، فالعقد يسمح لي بهذا».

«وأمسك بك هاول؟»، قالت صوفي.

«قبل خمس سنوات»، قال كالسيفر، «في سباخ پورتهفن، بعدما اتخذ اسم جنكنز الراقي. طاردني لابسًا حذاء الفراسخ السبعة، وكنت خائفًا منه. كنت خائفًا على أية حال، لأنك تعرفين أنك ستموتين إن سقطت. وكنت أؤثر فعل أي شيء على أن أموت. حين عرض علي هاول أن يبقيني حيًا مثلما يبقى البشر، عرضت عليه عقدًا في الحال. لم يعرف أي منا ما الذي نتورط فيه. كنت شاكرًا وعرض علي هاول ذلك لأنه حزن من أجلي».

«مثل مايكل»، قالت صوفي.

«ما ذلك؟»، قال مايكل مستيقظًا. «ليتنا لم نكن على حدود اليباب يا صوفي. لم أعرف أننا سنكون هنا، ولا أشعر بالأمان».

«لا يأمن أحد في بيت ساحر»، قال كالسيفر منفعلًا.

أدير مقبض الباب نحو الأسود الصباح التالي، ولم ينفتح على أي مشهد، ما أثار غضب صوفي كثيرًا. إذ أرادت أن ترى تلك الزهور، وما همها وجود الساحرة من عدمه. لذا نفست استياءها بأن جلبت دلوًا من الماء وفركت العلامات المرسومة على الأرض بالطبشور.

دخل هاول وهي تفعل ذلك. «عمل، عمل، عمل»، قال، قافزًا فوق صوفي وهي تفرك. بدا عليه شيء من الغرابة، لم تزل بدلته حالكة السواد، لكنه أعاد لشعره لونه الفاتح، الذي بدا أبيض في مقابل السواد. نظرت إليه صوفي وفكرت باللعنة، ولعل هاول يفكر بها أيضًا. فرفع الجمجمة من حوض المغسلة وحملها بيد واحدة، باكيًا «وا أسفاه عليك يا يورِك المسكين!»[1]، قال، «لقد سمعتْ غناء الحوريات، ثم يعقبها أخشى أن يكون هناك شر تسري تباشيره في دولة دانمركة[2]. لقد أصبت بزكام دائم، لكني لحسن الحظ محتال للغاية، وإني أعلل نفسي بهذا». وسعل سعالًا يثير الشفقة، لكن زكامه آخذ بالتحسن، ولم يبدُ ذاك شديد الإقناع.

بادلت صوفي النظراتِ الرجلَ الكلبَ، الذي جلس يراقبها، بادٍ عليه الحزن مثل هاول. «عليك أن تعود إلى لتي»، غمغمت. «ما

(١) جملة يقولها هاملت في المشهد الأول من الفصل الخامس، إذ يحمل في يده جمجمة أخرجها الفلاح من أحد القبور، ويورك كان مهرج الملك.

(٢) من مسرحية هاملت أيضًا، ترجمة: د. محمد عوض محمد، ص٦١، دار المعارف الطبعة الثالثة.

الخطب؟»، قالت لهاول. «ألا تسير الأمور على ما يرام مع الآنسة أنغوريان؟».

«أبدًا»، قال هاول. «إن لليلي أنغوريان قلبًا كالحجر المسلوق». ثم أعاد الجمجمة إلى حوض المغسلة وصاح مناديًا مايكل، «طعام! عمل!»، صرخ.

وبعد الإفطار أخرجوا كل شيء من خزانة المكانس، ثم حفر هاول ومايكل ثقبًا في جدارها الجانبي. انساب الغبار من باب الخزانة وبدأ خبط غريب. ونادى كلاهما صوفي في نهاية المطاف، فجاءت متثاقلة تحمل مكنسة. فوجدت مكان الجدار ممرًا مقنطرًا يفضي إلى درجات وصلت البيت بالمتجر دومًا. أشار إليها هاول لتأتي وترى المتجر، إذ كان خاليًا يرجع الصدى، وكانت أرضيته مبلطة بمربعات باللونين الأبيض والأسود، مثل بهو السيدة پنتسمتن، والرفوف التي حملت القبعات ذات يوم عليها مزهرية ورود من الحرير المشمّع وباقة صغيرة من الأذريون المخملي. أدركت صوفي أنه ينتظر منها أن تبدي إعجابها، فتمكنت من ألا تقول شيئًا.

«وجدت الزهور في المشغل في الخلف»، قال هاول. «تعالي وألقي نظرة على الخارج».

فتح الباب على الشارع، وصلصل جرس المتجر نفسه الذي سمعته صوفي طيلة حياتها. فعرجت خارجة إلى الشارع الخالي في الصباح الباكر. طليت واجهة المتجر حديثًا باللونين الأخضر والأصفر، ونقشت أحرف مموجة فوق النافذة تقول:

هـ. جنكنز زهور نضرة يوميًا.

«لقد غيرتَ رأيك حول الأسماء الشائعة، أليس كذلك؟»، قالت صوفي.

«لدواعي التمويه ليس إلا»، قال هاول. «أفضّل بندراغن».

«ومن أين تأتي الأزهار النضرة؟»، سألت صوفي. «لا يمكنك قول هذا ثم تبيع زهورًا شمعية مأخوذة من القبعات».

«انتظري لتري»، قال هاول متقدمًا إياها للعودة إلى المتجر.

فتجولوا في أنحاء الفناء الذي عرفته صوفي طوال حياتها، وقد بات الآن بنصف مساحته السابقة، إذ احتل فناء هاول من القلعة المتحركة جانبًا منه. نظرت صوفي إلى ما وراء جدران الآجر لفناء هاول إلى بيتها القديم، بدا غريبًا قليلًا بسبب النافذة الجديدة فيه التي تعود لغرفة هاول، وأحست صوفي بمزيد من الغرابة عندما أدركت أن نافذة هاول لا تطل على الأشياء التي رأتها. ورأت نافذة غرفتها القديمة فوق المتجر، وأشعرها هذا بالغرابة أيضًا، إذ ما من طريقة للاستيقاظ فيها الآن.

عرجت صوفي خلف هاول إلى الداخل ثانية وصعدا العتبات إلى خزانة المكانس، فأدركت أنها كانت شديدة الفظاظة. فرؤية بيتها القديم هكذا منحها مشاعر مختلطة خائفة، فقالت «أظن كل شيء جميلًا جدًا».

«حقًا؟»، قال هاول ببرود، فقد جرحت مشاعره. إذ يجب

الثناء كثيرًا، كما قالت صوفي في نفسها متنهدة، حين ذهب هاول إلى باب القلعة وأدار مقبضه نحو البنفسجي. من جانب آخر، لم تظن أنها أثنت على هاول يومًا، ولا كالسيفر، فتساءلت عما يدعوها إلى فعل ذلك الآن.

انفتح الباب، فانسابت شجيرات كبيرة محملة بالزهور برفق وتوقفت حتى يسع صوفي النزول إليها. بين الشجيرات دروب من عشب أخضر زاهٍ طويل تفضي إلى كل الجهات. مشى هاول وصوفي في أقربها إليهما، وتبعتهما القلعة وهي تنفض البتلات أثناء سيرها. لم تبد القلعة غريبة هناك، رغم علوها وسوادها وقبحها، وهي تنفث نفثاتها الصغيرة من الدخان من برج أو آخر. لقد فعل السحر فعله هنا، وصوفي على يقين من ذلك، ولاءمت القلعة المكان بصورة ما.

كان الهواء حارًا مشبعًا بالبخار ومفعمًا بروائح الزهور، الآلاف منها. كادت صوفي أن تقول إن الرائحة ذكرتها بالحمام بعد خروج هاول منها، لكنها أمسكت لسانها. غدا المكان رائعًا بحق، فبين الشجيرات وأثقالها من الزهور البيضاء والحمراء والبنفسجية، كان العشب الرطب مليئًا بزهور أصغر؛ زهور وردية ذات ثلاث بتلات، وبنفسجات عملاقة، وزهور قبس (فلوكس) برية، وزهر الترمس من شتى الألوان، وزنابق برتقالية وزنابق بيضاء طويلة، وسوسنات وأخرى لا حصر لها. وكانت المعترشات تخرج زهورًا كبيرة تكفي قبعات، وقنطريونًا وخشخاشًا ونباتات غريبة الأشكال وألوان أوراقها أغرب. ورغم أن هذا لم يشبه حلم صوفي بحديقة مماثلة لحديقة السيدة فيرفاكس، فقد نسيت فظاظتها وابتهجت.

«أرأيت؟»، قال هاول. فمد ذراعًا وأقلق كمّه الأسود بضع مئات من الفراشات الزرقاء التي تتغذى على شجيرة من الورود الصفر. «بوسعنا قطف الزهور ملء ذراع كل صباح وبيعها في ماركت تشيپنغ والندى لم يزل عليها».

أصبح العشب طريًا في نهاية ذاك الدرب الأخضر، إذ برز عدد من زهور الأوركيد تحت الشجيرات. ووصل هاول وصوفي فجأة إلى بحيرة يتصاعد منها البخار تغص بزنابق الماء. دارت القلعة على الجانبين حول البحيرة وجرّت دربًا مشجرًا آخر تحفه زهور مختلفة.

«إن خرجت وحدك هنا، فاجلبي عصاك لتتفحصي الأرض بها»، قال هاول، «فهي مليئة بالينابيع والمستنقعات. ولا تبتعدي أكثر من هنا».

أشار إلى الجنوب الغربي، حيث كانت الشمس قرصًا أبيض قويًا في الهواء المفعم بالضباب. «تلك أرض اليباب هناك؛ حارة وجرداء ومليئة بالساحرة».

«من الذي زرع تلك الزهور على حدود أرض اليباب؟»، قالت صوفي.

«الساحر سولمن بدأ زراعتها قبل سنوات»، قال هاول مستديرًا نحو القلعة. «أظنه عزم على جعل أرض اليباب تزهر فيبيد الساحرة على هذا النحو. لقد أخرج الينابيع الحارة على وجه الأرض وجعلها تكبر، وكان يحسن صنعًا حتى أمسكت به الساحرة».

«قالت السيدة پنتسمتن اسمًا آخر»، قالت صوفي. «لقد جاء من المكان نفسه الذي أتيتَ منه، أليس كذلك؟».

«بصورة أو بأخرى»، قال هاول. «لم ألتقه قط، فقد جئت وجربت المكان بعد بضعة أشهر، إذ بدت فكرة جيدة. وهكذا التقيت بالساحرة، فاعترضت على ذلك».

«لماذا؟»، قالت صوفي.

كانت القلعة بانتظارهما. «إنها تحب أن تظن نفسها زهرة»، قال هاول وهو يفتح الباب. «أوركيدة وحيدة، تتفتح في أرض اليباب. مثير للشفقة حقًا».

ألقت صوفي نظرة أخرى على الزهور المزدحمة وهي تتبع هاول إلى الداخل. كان هناك ورود، آلاف من الورود. «ألن تعرف الساحرة أنك هنا؟».

«حاولت فعل أمر لا تتوقعه»، قال هاول.

«وأتحاول العثور على الأمير جستن؟»، سألت صوفي.لكن هاول تملص من الإجابة بجريه عبر خزانة المكانس، مناديًا مايكل.

الفصل الثامن عشر

وفيه تعود الفزاعة والآنسة أنغوريان إلى الظهور

افتتحوا متجر الزهور اليوم التالي. وما كان للأمر أن يكون أسهل، مثلما أشار هاول من قبل. فكل ما يتعين عليهم فعله في كل صباح باكر هو فتح الباب موجهين المقبض نحو البنفسجي والخروج إلى السديم الأخضر السابح لجمع الزهور، وسرعان ما صار ذلك عادة. أخذت صوفي عصاها ومقصها وخبطت بقدميها، وهي تحادث عصاها، مستخدمة إياها لتفحص الأرض الرخوة أو لتمسك بها كالخطاف الأغصانَ العالية لمرادها من الورود. وابتدع مايكل لنفسه بدعة يفخر بها جدًا، وكانت تلك حوضًا كبيرًا من الصفيح فيه ماء يسبح في الهواء ويتبع مايكل أينما ذهب بين الشجيرات. وذهب الرجل الكلب أيضًا، وقضى وقتًا رائعًا يجري في الدروب الخضراء الرطبة، ملاحقًا الفراشات أو محاولًا الإمساك بالطيور الصغيرة الزاهية الألوان التي تأكل الزهور. وأثناء فعله ذلك، قطفت صوفي ملء أذرع من زهور السوسن الطويلة، أو الزنابق، أو الزهور البرتقالية متعددة الأوراق، أو أغصان من

الكركديه الأزرق، وحمّل مايكل الحوض بالأوركيد والورود والزهور البيضاء نجمية الشكل، أو الزهور القرمزية البراقة، أو أي شيء وافق هواه، واستمتعوا جميعًا في هذا الوقت.

ثم، وقبل أن تغدو الحرارة في الأجمات لا تطاق، يعودون بزهور اليوم إلى المتجر وينسقونها في مجموعات متنافرة من الأباريق والدلاء نبشها هاول من الفناء. في الحقيقة كان اثنان من الدلاء حذاء الفراسخ السبعة. لا شيء أكثر من هذا يثبت أن هاول قد فقد اهتمامه بلتي تمامًا، هذا ما جال في ذهن صوفي وهي ترتب في الحذاء أكوامًا من سيف الغراب، إذ لم يكترث إن استخدمته صوفي أم لا.

كان هاول غائبًا دومًا وهم ينسقون الزهور، ومقبض الباب دائمًا متجه نحو الأسود. ثم من عادته أن يرجع لتناول إفطار متأخر، وهو يبدو حالمًا، ولم يزل متسربلًا بالسواد. ما كان ليخبر صوفي أي بدلة تحولت إلى السوداء حقًا. «إنني في حداد على السيدة پنتسمتن»، هذا كل ما يقوله. وإن سألت صوفي أو مايكل عن سبب غياب هاول دومًا في ذلك الوقت، يبدي هاول الألم ويقول «إن أردت التحدث إلى معلمة مدرسة، فعليك لقاؤها قبل بدء اليوم الدراسي». ثم يختفي في الحمام طيلة الساعتين التاليتين.

وأثناء ذلك يلبس مايكل وصوفي أزهى ثيابهما ويفتحان المتجر. وقد أصر هاول على الهندام الحسن، إذ قال إنه يجذب الزبائن. وأصرت صوفي على أن يضع الجميع المآزر، وبعد انقضاء الأيام القليلة الأولى، حين استرق أهل تشيپنغ ماركت النظر من الواجهة

ولم يدخلوا المتجر، أضحى المتجر معروفًا جدًا. وانتشرت الأقاويل إن جنكنز لديه زهور لم يرَ لها مثيل من قبل. وجاء أناس عرفتهم صوفي طوال حياتها واشتروا الزهور رزمًا. لم يعرفها أحد، وأشعرها هذ بغرابة شديدة. فقد ظنها الجميع والدة هاول العجوز، لكن صوفي سئمت كونها والدة هاول العجوز. «أنا خالته»، قالت للسيدة سيسري، ثم اشتهرت بأنها خالة جنكنز.

كلما دخل هاول المتجر، واضعًا مئزرًا أسود يماشي بزته، وجده مزدحمًا عادة، فزاده ازدحامًا. عندئذ أخذت صوفي تدرك أن البدلة السوداء كانت البدلة المسحورة ذات اللونين القرمزي والرمادي. وأي سيدة يخدمها هاول كانت متأكدة أنها ستحصل على ضعفي عدد الزهور التي طلبتها، إذ غالبًا ما يفتنهن هاول فيشترين عشرة أضعاف ما يردن. وسرعان ما لاحظت صوفي أن السيدات يسترقن النظر ويقررن عدم الدخول إلى المتجر إن رأين فيه هاول، فلم تلمهن. إن كان طلبك وردة فحسب لأجل عروة البدلة، فلن ترغب في أن تجبر على شراء ست وثلاثين زهرة أوركيد. ولم تثن هاول حين بدأ يقضي ساعات طويلة في المشغل عبر الفناء.

«إنني أعد دفاعًا ضد الساحرة، قبل أن تسألي»، قال. «وحين أنتهي، فلن تتمكن من الدخول إلى أي جزء هذا المكان» .

كانت المشكلة أحيانًا في بقايا الزهور، إذ لم تطق صوفي رؤيتها تذبل أثناء الليل. ثم وجدت أن بوسعها إبقاءها نضرة تمامًا إن

حادثتها. وبعد ذلك، أخذت تتحدث كثيرًا إلى الزهور، وطلبت من مايكل أن يعد لها رقية لتغذية النبات، وجربتها في دلاء في حوض المغسلة، وفي أحواض الاستحمام في قنطرتها حيث اعتادت تزيين القبعات. ووجدت أنها تستطيع إبقاء الزهور يانعة لأيام، لذا جربت المزيد. أخرجت الهباب من الفناء وزرعت فيه نبتات، تهمهم منهمكة. فزرعت وردة باللون الأزرق الداكن، مثل التي أسعدتها للغاية. كانت براعمها سوداء كالفحم، وتفتحت زهورها وهي تزرق وتزرق حتى كادت تماثل زرقة كالسيفر. سُرّت صوفي بها فأخذت كل الجذور المعلقة على عوارض السقف وجربت زراعتها، وقالت في نفسها إنها لم تسعد في حياتها أكثر من هذا.

لم يكن هذا صحيحًا. فقد كان ثمة خطأ في شيء ما، ولم تستطع صوفي معرفته. وظنت أحيانًا أن الخطأ يكمن في عدم تعرف أحد في ماركت تشيبنغ عليها، ولم تجرؤ على الذهاب لرؤية مارثا، خشية ألا تعرفها مارثا أيضًا. ولم تجرؤ على قطف الزهور في حذاء الفراسخ السبعة والذهاب لرؤية لتي للسبب ذاته، إذ لم تطق أن تراها أختاها امرأة مسنّة.

ذهب مايكل للقاء مارثا حاملًا باقات من الزهور الفائضة دائمًا. وظنت صوفي أحيانًا أن هذا هو خطبها، فقد كان مايكل سعيدًا، وتُركِت هي وحيدة في المتجر أكثر فأكثر. غير أن هذا لم يبدُ هو الخطب تمامًا، إذ أحبت صوفي بيع الزهور وحدها.

وبدت المشكلة أحيانًا في كالسيفر، فهو ضجِر، وليس عنده

مايفعله إلا الحفاظ على تنقل القلعة بهدوء بين الدروب المعشبة وحول البرك والبحيرات العديدة، والتأكد من وصولهم إلى بقعة جديدة، فيها زهور جديدة كل صباح. كان وجهه الأزرق يطل من الموقد بحماس حين تدخل صوفي ومايكل حاملين الزهور، فيقول «أود أن أرى شكل المكان في الخارج». فتلقمه صوفي أوراق شجر لذيذ زكي الرائحة ليحرقها، وهذا يجعل رائحة غرفة القلعة شذية بقدر الحمّام، غير أن كالسيفر قال إن ما أراده حقًا هو الصحبة، فهم يقضون الوقت في المتجر طيلة اليوم ويتركونه وحده.

لذا جعلت صوفي مايكل يعمل في المتجر لساعة كل صباح أثناء قضائها الوقت في الحديث مع كالسيفر، واخترعت ألعاب تخمين تلهي كالسيفر أثناء انشغالها. لكنه لم يزل مستاء «متى ستبطلين عقدي مع هاول؟»، سأل مرة بعد مرة.

فتُسكِت صوفي كالسيفر بقولها «أعمل على ذلك. ولن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا». غير أن هذا ليس بصحيح، فقد كفّت عن التفكير بهذا ما لم تكن مضطرة. لما جمعت ما قاله السيدة پنتسمتن مع ما كل قاله هاول وكالسيفر، راودتها أفكار قوية رهيبة حول العقد، إذ كانت على يقين أن إبطاله يعني نهاية كل من هاول وكالسيفر. ولعل هاول يستحق ذلك، لكن ليس كالسيفر. ولما كان هاول يعمل جاهدًا للتهرب من بقية لعنة الساحرة، فلم ترغب صوفي أن تفعل شيئًا ما لم تستطع المساعدة.

رأت صوفي أحيانًا أن الرجل الكلب يثير أساها، فقد كان مخلوقًا

حزينًا، والوقت الوحيد الذي يستمتع فيه كان في جريه في الدروب الخضراء بين الشجيرات كل صباح. غير أنه يقضي باقي النهار في السير كئيبًا خلف صوفي متنهدًا تنهيدات عميقة. ولم تستطع صوفي فعل شيء له أيضًا، لكنها سرّت بازدياد حرارة الطقس كلما اقترب يوم منتصف الصيف واعتاد الرجل الكلب الاستلقاء في رقع الظلال في الفناء لاهثًا.

من جانب آخر غدت الجذور التي زرعتها صوفي مثيرة جدًا. فقد صار البصل نخلة صغيرة وأخذ يطلع منها ثمار لها رائحة البصل. ونما جذر آخر ليغدو زهرة عباد شمس وردية. لكن جذرًا واحدًا أبطأ في نموه، ولما أنبت أخيرًا ورقتين خضراوين مدورتين، لم تطق صوفي الانتظار لترى ماذا سيصبح. فبدا في اليوم التالي أنه سيكون زهرة أوركيد، فقد كان له أوراق مدببة منقطة بالبنفسجي وساق طويلة تنبثق من الوسط تحمل برعمًا كبيرًا. اليوم التالي، تركت صوفي الزهور النضرة في حوض الصفيح وأسرعت متلهفة إلى القنطرة لترى كيف أصبح.

تفتح البرعم في زهرة وردية اللون مثل زهرة أوركيد خرجت من معصرة، فقد كانت منبسطة متصلة بالساق من تحت أسلة مدورة. وكان له أربع بتلات ينتأن من الوسط الريان الزهري، اثنتان منها تتجهان نحو الأسفل، والأخريان نحو الجانبين. عندما وقفت صوفي تحدّق بها، حذرتها رائحة قوية من زهور الربيع أن هاول دخل ويقف خلفها.

«ما هذا الشيء؟»، قال. «إن كنت تنتظرين بنفسجة فوق بنفسجية أو جيرانيوم تحت حمراء، فقد أخطأتِ، أيتها السيدة العالِمة».

«تبدو لي مثل زهرة طفل مسحوق»، قال مايكل، وقد جاء ليرى.

إنها كذلك حقًا. نظر هاول إلى مايكل نظرة ذعر وحمل الزهرة في أصيصها، وأخرجها منه إلى يده، حيث فصل بحذر الجذور البيضاء الخيطية والسخام وبقايا رقية السهاد، حتى كشف الجذر البني المتشعب الذي أنبتته صوفي منه. «كان علي أن أعرف»، قال. «إنه جذر اليبروح. صوفي تهجم ثانية، إن لك لمسة سحرية، أليس كذلك؟» وضع النبتة بحذر، ومرّرها إلى صوفي، وغادر بادٍ عليه الشحوب.

هذا يعني تحقق اللعنة كلها تقريبًا، قالت صوفي في نفسها حين ذهبت لترتيب الزهور الطازجة في واجهة المتجر. لقد خلّف جذر اليبروح طفلًا، وظل شيء واحد: الريح التي تجري بما يشتهي امرؤ شريف. إن كان هذا يعني أنه يجب على هاول أن يكون شريفًا، قالت صوفي، فإن ثمة احتمالًا بألا تتحقق اللعنة أبدًا. وقالت لنفسها إن هاول يستحق ذلك على أية حال، لذهابه لمغازلة الآنسة أنغوريان كل صباح في بدلة مسحورة، غير أنها لم تزل تشعر بالخوف والذنب. رتبت حزمة من الزنابق البيضاء في حذاء الفراسخ السبعة، وتقدمت بحذر إلى الواجهة لتضعها، فسمعت خبطًا منتظمًا آتيًا من الخارج في الشارع. لم يكن صوت حصان، بل صوت عصا تضرب الحجارة.

أخذ قلب صوفي يتصرف بغرابة قبل أن تجرؤ على النظر من الواجهة. ها قد جاءت، بلا شك، الفزاعة تثب ببطء وبإصرار وسط الشارع، وكانت الخرق المتدلية من ذراعيها الممدودتين أقل ورمادية أكثر، وذبل الملفوف في وجهها ليتخذ هيئة الإصرار، كأنها ظلت تثب منذ أن قذفها هاول، حتى عادت تثب في نهاية المطاف.

لم تكن صوفي الوحيدة التي أحست بالخوف، فقد أخذ الناس القلائل الذي خرجوا في ذلك الوقت الباكر يفرون هربًا من الفزاعة قدر ما وسعهم الجري، لكن الفزاعة لم تبالِ وواصلت وثبها.

خبأت صوفي وجهها عنها، وقالت لها في همس قوي «نحن لسنا هنا! أنت لا تعرفين أننا هنا! لا يمكنك العثور علينا، فابتعدي حالًا!».

أبطأ خبط العصا الواثبة حالما اقتربت الفزاعة من المتجر. أرادت صوفي أن تنادي هاول، غير أن كل ما وسعها فعله أن تواصل القول «نحن لسنا هنا. ابتعدي بسرعة!».

فأسرع الوثب، مثلما قالت، ووثبت الفزاعة متجاوزة المتجر وواصلت وثبها إلى ماركت تشپنغ. ظنت صوفي أنها ستصيبها الغرابة، لكنها كانت تحبس أنفاسها فحسب، فأخذت نفَسًا عميقًا واعترتها رعدة الارتياح، فإن عادت الفزاعة، استطاعت إبعادها مرة أخرى.

حين دخلت صوفي إلى غرفة القلعة وجدت هاول قد خرج، وقال مايكل «يبدو عليه الاستياء الشديد». فنظرت صوفي إلى

الباب، فكان المقبض نحو الأسود، فقالت في نفسها إنه ليس مستاء للغاية!

خرج مايكل أيضًا، إلى مخبز سيسري، ذلك الصباح، وكانت صوفي وحدها في المتجر. كان الجو شديد الحرارة، وذبلت الزهور رغم الرقى، ولم يرغب إلا قليل من الناس بشراء شيء منها. لهذا الأمر وجذر اليبروح والفزاعة طفح كيل صوفي، فكانت بائسة بمعنى الكلمة.

«قد تكون اللعنة تحوم لتصيب هاول»، قالت للزهور متنهدة، «لكني أظن السبب كوني الكبرى، حقًا، انظرن إليّ! لقد خرجت سعيًا وراء حظي وانتهى بي الأمر من حيث بدأت، وغدوت عجوزًا أكبر من التلال!».

عندئذ وضع الرجل الكلب خطمه الأحمر اللامع عند الباب المطل على الفناء وتأوه، فتنهدت صوفي، إذ لم تنقض ساعة قط من غير أن يتفقدها الحيوان، وقالت «أجل، ما زلت هنا. وأين تحسبني أكون؟».

دخل الكلب المتجر، وجلس ومدد كفيه متخشبًا أمامه، فأدركت صوفي أنه يحاول التحول إلى رجل. يا للحيوان المسكين، لقد حاولت أن تكون لطيفة معه لأنه كان، رغم كل شيء، في حال أسوأ من حالها.

«حاول أكثر»، قالت. «ابذل قصارى جهدك، بوسعك أن تكون رجلًا إن شئت».

مطّط الكلب ظهره وقوّمه، وشد وشد. ولما أيقنت صوفي أن عليه الاستسلام وإلا انقلب إلى الوراء، استطاع النهوض على ساقيه الخلفيتين ورفع نفسه ليكون رجلًا مذهولًا له شعر بلون الزنجبيل.

«إنني أحسد هاول»، قال لاهثًا، «يفعل هذا في غاية السهولة. لقد كنت كلبًا في الوشيع ساعدتِه أنت. قلت للتي إنني أعرفك وسأحميك. وكنت هنا من قبل...»، وأخذ يتثنّى ليعود كلبًا ونبح قائلًا «مع الساحرة في المتجر!» وعوى، وانكب على يديه، وأخذ ينمو له كثير من الشعر الرمادي والأبيض مثلما كان قبلًا.

نظرت صوفي إلى الكلب الكبير الأشعث الواقف هناك. «كنت مع الساحرة؟!»، قالت. فتذكّرت، الرجل القلق ذا الشعر بلون الزنجبيل الذي نظر إليها مذعورًا. «فأنت تعرف من أكون وأنني واقعة تحت رقية إذن. أتعرف لتي بهذا أيضًا؟».

فهز الكلب الضخم الأشعث رأسه.

«وقد دعتك غاستن»، تذكّرت صوفي. «أوه يا صديقي، لقد جعلت حياتك صعبة! تخيل أن يكون لك كل هذا الشعر في هذا القيظ! يجدر بك الذهاب إلى مكان بارد».

هز الكلب رأسه ثانية ومشى متثاقلًا بائسًا إلى الفناء.

«ولكن لماذا أرسلتك لتي؟»، تساءلت صوفي. أحست بالاستفزاز والاستياء الشديدين من هذا الاكتشاف، فارتقت العتبات وعبرت خزانة المكانس لتتحدث إلى كالسيفر.

لم يكن كالسيفر بذي نفع كبير. «إن عدد الناس الذين يعلمون وقوعك تحت تأثير رقية لا يحدث فارقًا»، قال، «فذاك لم يساعد الكلب كثيرًا، صحيح؟».

«كلا، ولكن...»، قالت صوفي، وعندئذ نقر باب القلعة وانفتح. نظرت صوفي وكالسيفر، فرأيا أن المقبض لم يزل على اللون الأسود، فانتظرا دخول هاول منه. يصعب قول أي منهما كان أكثر دهشة حين تسلل الشخص بشيء من الحذر وتبين أنها الآنسة أنغوريان.

كانت دهشة الآنسة أنغوريان مماثلة. «أوه، أستميحك عذرًا!»، قالت. «ظننت السيد جنكنز هنا».

«إنه في الخارج»، قالت صوفي بجفاء، وتساءلت أين ذهب هاول، إن لم يكن لرؤية الآنسة أنغوريان.

تركت الآنسة أنغوريان الباب، الذي كانت تتشبث به من دهشتها، وتركته يتأرجح مفتوحًا على اللاشيء وتقدمت نحو صوفي متوسلة. وجدت صوفي أنها نهضت ومشت عبر الغرفة، كأنها تحاول صدّ الآنسة انغوريان لتغادر. «لا تقولي للسيد جنكنز إنني كنت هنا من فضلك. إن أردت الحق فقد استجبت له بغية الحصول على أخبار عن خطيبي؛ بِن سولفن، كما تعلمين. أنا واثقة أن بن اختفى في المكان نفسه الذي يواصل السيد جنكنز اختفاءه فيه، غير أن بِن لم يعد»، قالت الآنسة أنغوريان.

«ما من أحد باسم السيد سولفن هنا»، قالت صوفي. وقالت في نفسها إن هذا اسم الساحر سولمن! لا أصدق كلمة من هذا!!

«أوه، أعلم هذا»، قالت الآنسة أنغوريان. «غير أن هذا يبدو المكان الصحيح. أتمانعين في أن ألقي نظرة قليلًا لأشكّل تصورًا عن نمط الحياة التي يعيشها بن الآن؟»، وشبكت شعرها المسترسل الأسود خلف أذنها وحاولت أن تتقدم أكثر في الغرفة، فسدّت صوفي الطريق، وأجبر هذا الآنسة أنغوريان على التسلل جانبيًا متوسلة نحو طاولة الأشغال. «يا للعجب!»، قالت وهي تنظر إلى الزجاجات والجرار. «يا لها من بلدة عجيبة!»، قالت وهي تطل من النافذة.

«إنها تدعى تشيبنغ ماركت»، قالت صوفي وقد تقدمت وقادت الآنسة أنغوريان نحو الباب.

«وماذا في أعلى هذه السلالم؟»، سألت الآنسة أنغوريان، مشيرة إلى الباب المفتوح على السلم.

«غرفة هاول الخاصة»، قالت صوفي بحزم، وهي تمشي مبعدة الآنسة أنغوريان إلى الوراء.

«وماذا يكون عبر الباب الآخر المفتوح؟»، سألت الآنسة أنغوريان.

«متجر زهور»، قالت صوفي، ثم قالت في نفسها يا لها من امرأة حشرية!

عندئذ تعين على الآنسة أنغوريان إما أن تجلس على الكرسي أو تخرج من ذلك الباب ثانية. فحدقت بكالسيفر بنظرات مبهمة

عابسة، كأنها لم تكن واثقة مما ترى، وبادلها كالسيفر النظر دون أن ينبس بكلمة. ومنح هذا صوفي الراحة أكثر حيال كونها فظة للغاية، فلا يلقى الترحاب في بيت هاول إلا الذين فهموا كالسيفر.

لكن الآنسة أنغوريان تهاوت على الكرسي ورأت غيتار هاول مائلًا في ركنه، فاختطفته لاهثة واستدارت، ضامة إياه إلى صدرها بشغف. «من أين حصلت على هذا؟»، سألت بصوت عاطفي خفيض. «كان لدى بن غيتار كهذا! قد يكون غيتار بن!».

«سمعت أن هاول اشتراه الشتاء الماضي»، قالت صوفي. وتقدمت إلى الأمام ثانية، محاولة إخراج الآنسة أنغوريان من زاويتها وعبر الباب.

«لقد وقع مكروه لِبن!»، قالت الآنسة أنغوريان مختلجة. «ما كان ليفارق غيتاره قط! أين هو؟ أعلم أنه ليس ميتًا، لو كان كذلك لأحسست بهذا في قلبي!».

تساءلت صوفي إن كان عليها إخبار الآنسة أنغوريان أن الساحرة أمسكت بالساحر سولمن، ونظرت عبر الغرفة لترى أين كانت الجمجمة البشرية. إذ أوشكت على التلويح بها في وجه الآنسة أنغوريان والقول إنها جمجمة الساحر سولمن. لكن الجمجمة كانت في حوض المغسلة، مخبأة خلف دلو من فائض الأشنات والزنابق، وعرفت أنها لو ذهبت إلى هناك، لتسللت الآنسة أنغوريان إلى الغرفة ثانية. ثم إن هذه قسوة.

«أتسمحين لي بأخذ الغيتار؟»، قالت الآنسة أنغوريان بصوت مبحوح وهي تضمه إليها. «ليذكرني ببن».

أغضب صوفي الاختلاج في صوت الآنسة أنغوريان، فقالت «كلا. لا حاجة لتكوني شديدة العاطفية بشأنه. ليس لديك ما يثبت أنه غيتاره». وعرجت مقتربة من الآنسة أنغوريان وأمسكت بالغيتار من عنقه، فنظرت إليها الآنسة أنغوريان بعينين متسعتين متألمتين. شدته صوفي وتمسكت به الآنسة أنغوريان، فأطلق الغيتار ضجيجًا فظيعًا ناشزًا. سحبته صوفي من بين ذراعي الآنسة أنغوريان وقالت «لا تكوني سخيفة. ليس لك الحق في دخول قلاع الناس وأخذ غيتاراتهم. أخبرتك أن السيد سولفن ليس هنا. والآن عودي إلى ويلز، هيا». واستخدمت الغيتار لدفع الآنسة أنغوريان خارج الباب المفتوح.

عادت الآنسة أنغوريان إلى العدم حتى اختفى نصفها وقالت معاتبة «إنك قاسية».

«أجل، أنا كذلك!»، قالت صوفي وصفقت الباب في وجهها، وأدارت المقبض نحو البرتقالي لتمنع الآنسة أنغوريان من العودة وأسندت الغيتار في زاويته بنقرة حاسمة. «إياك أن تقول لهاول إنها كانت هنا!»، قالت بلا سبب لكالسيفر. «أراهن أنها جاءت لرؤية هاول، وباقي ما قالته ليس إلا حزمة أكاذيب. لقد سكن الساحر سولمن هنا قبل سنوات، ولعله جاء للهرب من صوتها المختلج الرهيب!».

ضحك كالسيفر «لم أر أحدًا طرد بهذه السرعة!»، قال.

جعل هذا صوفي تشعر بالقسوة والذنب. فهي نفسها، في النهاية، قد دخلت إلى القلعة بالطريقة نفسها، وكانت حشرية ضعفي الآنسة أنغوريان. «إه!»، قالت. ودخلت إلى الحمام ونظرت إلى وجهها الذابل في المرايا، وحملت إحدى العلب المكتوب عليها بشرة ثم ألقتها ثانية. حتى في شبابها وصباها، لم تر أن وجهها يتفوق بجماله على وجه الآنسة أنغوريان. «غاه!»، قالت. «دو!». وعرجت مسرعة وأمسكت الأشنات والزنابق من الحوض، ثم عرجت بها وهي تقطر إلى المتجر حيث كومتها في دلو رقية النمو. «كوني نرجس!»، قالت لها بصوت مبحوح مجنون غاضب. «كوني نرجسًا في يونيو، أيتها الأشياء المريعة!».

أطل الرجل الكلب بوجهه الأشعث من باب الفناء، ولما رأى مزاج صوفي سيئًا، تراجع مسرعًا. وحين جاء مايكل بعد دقيقة حاملًا فطيرة كبيرة، نظرت إليه صوفي نظرات غاضبة جعلته يتذكر في الحال رقية طلب منه هاول أن يعدها وفر هاربًا عبر خزانة المكانس.

«غاه!»، دمدمت خلفه، ثم انحنت على دلوها ثانية. «كوني نرجسًا! كوني نرجسًا!» زعقت. ولم تشعر بتحسن لمعرفة أن هذا سلوك سخيف.

الفصل التاسع عشر

وفيه صوفي تنفّس غضبها حاملة مبيد الأعشاب الضارة

فتح هاول باب المتجر قرابة الأصيل، وتبختر داخلًا يصفّر. وبدا أنه تجاوز أمر جذر اليبروح، ولم ترتح صوفي لدى معرفتها أنه لم يذهب إلى ويلز، فنظرت إليه نظرات غاضبة جدًا.

«أيتها السماوات الرحيمة!»، قال هاول. «أحسب أن هذا سيصيرني حجرًا! ما الأمر؟».

دمدمت صوفي قائلة «أي بدلة تلبس؟».

نظر هاول إلى ثيابه السوداء، «أيهم هذا؟».

«أجل»، هدرت صوفي. «ولا تقل لي إنك في حداد! أي بدلة هذه حقًا؟».

رفع هاول كتفيه ورفع كمًا متدليًا كأنه ليس واثقًا أي بدلة كانت، فحملق بها بادٍ عليه الحيرة. لقد انسل اللون الأسود إلى الأسفل من كتفيه إلى طرف مدبب متدلٍ، وغدا كتفه وأعلى كمه بنيين، ثم رماديين، أما الطرف المدبب فازداد سوادًا، حتى غدا هاول يلبس

بدلة سوداء لها كم باللونين الأزرق والرمادي كأنما غمس طرف في القطران. «هذه»، قال وسمح للسواد أن يعود ثانية إلى كتفه.

استاءت صوفي أكثر من ذي قبل، وعبست عبوس الغضب دون أن تتفوه بكلمة.

«صوفي!»، قال هاول بأكثر أساليبه ضحكًا وتوسلًا.

فتح الرجل الكلب باب الفناء وتهادى داخلًا، فما كان ليسمح لهاول أن يكلم صوفي وقتًا طويلًا.

نظر إليه هاول «لديك كلب رعي إنجليزي»، قال كأنه سعيد بالإلهاء. «الكلبان سيحتاجان كثيرًا من الطعام».

«ليس هنا إلا كلب واحد»، قالت صوفي شكسة، «إنه تحت تأثير رقية».

«حقًا؟»، قال هاول وتقدم نحو الكلب بسرعة أظهرت سعادته للابتعاد عن صوفي. وكان هذا طبعًا آخر ما يتمناه الرجل الكلب، فتراجع، غير أن هاول قفز وأمسك بحفنتين من شعره الأشعث قبل أن يصل إلى الباب. «إنه كذلك!»، قال وجثا ليرى ما يمكن رؤيته عبر عيني كلب الرعي. وقال «وماذا تقصدين يا صوفي بعدم إخباري بهذا؟ هذا الكلب رجل! وهو في حال مريعة!»، دار هاول على ركبة، ولم يزل ممسكًا بالكلب. فنظرت صوفي في حلقة عيني هاول الزجاجيتين وأدركت أن هاول كان غاضبًا، غاضبًا حقًا.

جيد، فقد انتابت صوفي رغبة في العراك. «كان عليك أن تعرف

بنفسك»، قالت وهي تبادله النظر، متحدية هاول على فعل أسوأ ما يأتي به من لزاج أخضر. «على أية حال لم يرغب الكلب في...».

كان هاول شديد الغضب فلم يسمع، بل وثب ورمى بالكلب على البلاط. «كنت لأفعل لولا أن في ذهني أمورًا أخرى»، قال. «تعال. أريدك أن تقف أمام كالسيفر». ثبّت الكلب أقدامه المشعرة الأربع، وجره هاول بمشقة، ثبت وجره، وصاح «مايكل!».

كان في ذلك النداء صوت بعينه جلب مايكل راكضًا.

«وهل عرفت أن هذا الكلب كان رجلًا حقًا؟»، سأل هاول حين جر هو ومايكل الكلب العنيد كالجبل صاعدَيْن به العتبات.

«إنه ليس كذلك، صحيح؟»، سأل مايكل مصدومًا مذهولًا.

«سأعفو عنك إذن وألوم صوفي فحسب»، قال هاول، راميًا بالكلب عبر خزانة المكانس. «أي شيء كهذا هو عائد لصوفي دومًا! لكنك عرفت يا كالسيفر، أليس كذلك؟»، قال وكلاهما يجران الكلب أمام المصطلى.

تراجع كالسيفر حتى صار لصيقًا بالمدخنة وقال «لم تسأل قط».

«هل علي أن أسأل؟»، قال هاول. «حسن، كان علي أن ألاحظ بنفسي! لكنك تثير قرفي يا كالسيفر! مقارنة بالأسلوب الذي تعامل به الساحرة عفريتها، فإنك تعيش حياة رخية رخاء مغثيًا، وكل ما أطلبه في المقابل أن تخبرني الأمور التي أحتاج معرفتها. لقد خذلتني مرتين! ساعدني لنعيد هذا الحيوان إلى أصله الآن!».

غدا لون كالسيفر أزرق زرقة باهتة على غير العادة، وقال عابسًا «حسن».

حاول الرجل الكلب الفرار، لكن هاول وضع كتفه تحت صدره ودفعه، فمشى على قائمتيه الخلفيتين شاء أم أبى. ثم أمسك به هاول ومايكل، «ما الذي يدفع هذا الحيوان السخيف إلى المقاومة؟»، قال هاول لاهثًا. «يبدو أنه أحد علامات ساحرة اليباب مرة أخرى، أليس كذلك؟».

«أجل. ثمة عدة طبقات منها»، قال كالسيفر.

«لنفصل الكلب عنها على أية حال»، قال هاول.

اضطرم كالسيفر إلى زرقة هادرة عميقة. ورأت صوفي، التي وقفت تراقب بحذر من باب خزانة المكانس جسم الكلب المشعر يتلاشى ويحل محله شكل الرجل. ثم تحول إلى كلب ثانية، ثم عاد رجلًا، مغبشًا ثم تصلب.

في النهاية كان كل من هاول ومايكل يمسك ذراع رجلٍ شعره بلون الزنجبيل ويلبس بدلة بنية مجعدة. لم تعجب صوفي من أنها لم تعرفه، إذ بغض النظر عن هيئته القلقة، كان وجهه يخلو تمامًا من الشخصية.

«والآن، من تكون يا صديقي؟»، سأله هاول.

رفع الرجل يده وتحسس وجهه مرتعدًا. «لست... لست متأكدًا».

قال كالسيفر «آخر الأسماء التي رد عليها كان پارسيڤال».

نظر الرجل إلى كالسيفر كأنه تمنى لو لم يعرف كالسيفر بهذا، وقال «حقًا؟».

«سندعوك پارسيڤال إذن في الوقت الراهن»، قال هاول. وأدار الكلب سابقًا وأجلسه على الكرسي. «اجلس هناك وارتح، وأخبرنا بما تذكر. عرفت من ملمسك أن الساحرة قد سيطرت عليك منذ بعض الوقت».

«أجل»، قال پارسيڤال داعكًا وجهه ثانية. «لقد قطعت رأسي. أذكر... أذكر أنني كنت على رف، أنظر إلى بقاياي».

ذهل مايكل وقال معترضًا «لكنك ستكون ميتًا!».

«ليس بالضرورة»، قال هاول. «لم تصل إلى هذا المستوى من فنون السحر بعد، لكن بوسعي أخذ أي جزء منك أريده وأترك بقيتك على قيد الحياة، إن فعلت ذلك بالطريقة المثلى». ثم عبس في وجه الكلب سابقًا. «لكني لست واثقًا أن الساحرة أعادت هذا إلى شكله الصحيح».

قال كالسيفر، الذي تجلت محاولته إثبات أنه يعمل جاهدًا من أجل هاول، «هذا الرجل غير مكتمل، ولديه أعضاء من رجل آخر أيضًا».

بدا الاضطراب على پارسيڤال أكثر من ذي قبل.

«لا تثر خوفه يا كالسيفر»، قال هاول. «لا بد أنه يشعر بالحزن

على أية حال. أتعلم السبب الذي دعا الساحرة إلى فصل رأسك يا صديقي؟»، سأل پارسيڤال.

«كلا»، قال پارسيڤال، «لا أذكر شيئًا».

عرفت صوفي أن هذا ليس بصحيح، فنخرت قليلًا.

استولت على مايكل فجأة أكثر الإفكار إثارة، فمال نحو پارسيڤال وسأل «أأجبت يومًا اسم جستن... أو سموك؟».

نخرت صوفي ثانية، إذ عرفت أن هذا سخيف قبل أن يقول پارسيڤال «كلا. سمتني الساحرة غاستن، غير أن هذا ليس باسمي».

«لا تحاصره يا مايكل»، قال هاول. «ولا تجعل صوفي تنخر ثانية. بمزاجها هذا ستهدم القلعة المرة التالية».

ورغم أن هذا يعني أن هاول لم يعد غاضبًا، لكن صوفي وجدت أنها أكثر غضبًا من ذي قبل. وخبطت خارجة إلى المتجر، حيث انفجرت تغلق المتجر وترفع الأشياء ليلًا. وذهبت لتلقي نظرة على نرجساتها. لقد أصابها خطأ فظيع، إذ كانت أشياء بنية رطبة تتهدل من دلو مليء بسائل له أكثر الروائح سمّية شمتها يومًا.

«أوه، اللعنة عليها كلها!»، صاحت صوفي.

«ما كل هذا الآن؟»، قال هاول وقد دخل المتجر. وانحنى على الدلو وتنشقه «يبدو أن عندك مبيدًا فعالًا للأعشاب الضارة هنا. ما رأيك لو جربته على الأعشاب الضارة في الممر الخارجي للبيت؟».

«سأفعل»، قالت صوفي. «أشعر برغبة في قتل شيء!»، وخبطت في الأنحاء حتى عثرت على إبريق الري، وخبطت بقدميها في القلعة وهي تحمل الإبريق والدلو، حيث فتحت الباب بقوة، والمقبض نحو البرتقالي، إلى ممر البيت. نظر پارسيڤال قلقًا، لقد أعطوه الغيتار، مثلما تعطي طفلًا جُلجُلًا، وكان جالسًا يصنع رنينًا فظيعًا.

«اذهب معها يا پارسيڤال»، قال هاول. «فبمزاجها هذا ستقتل كل الأشجار أيضًا».

لذا أنزل پارسيڤال الغيتار وأخذ الدلو بحذر من يد صوفي. خبطت صوفي خارجة إلى مساء ذهبي في نهاية الوادي. كان الجميع مشغولًا جدًا فلم ينتبه أحد إلى البيت، إذ كان أكبر مما أدركت صوفي. فكان له مصطبة معشبة فيها تماثيل على الأطراف، وعتبات تنزل إلى الممر الخارجي. حين نظرت صوفي إلى الخلف -بحجة إخبار پارسيڤال أن يسرع- رأت البيت كبيرًا للغاية، وعلى سطحه مزيد من التماثيل، وله صفوف من النوافذ. لكنه كان متداعيًا، والعفن الأخضر ينزل من الجدار المتقشر لكل نافذة، وكان الكثير من النوافذ مكسورًا، والمصاريع التي تطوى إلى الجدران بجانبها رمادية منتفخة وتتأرجح على الجانبين.

«هه!»، قالت صوفي. «أظن أن أقل ما يفعله هاول أن يجعل البيت مأهولًا أكثر. ولكن لا! إنه شديد الانشغال بالتسكع في ويلز! لا تكتفي بالوقوف عندك يا پارسيڤال! اسكب بعضًا من هذه المادة في الإبريق والحق بي».

فعل پارسيڤال ما قالته مذعنًا، ولم يكن مسرورًا بالتنمر، وساور صوفي الشك بأن هاول أرسله معها لهذا السبب. فنخرت، وأطلقت غضبها على الأعشاب الضارة. وأيًا ما كانت المادة التي قتلت النرجسات، فإنها مادة قوية جدًا، إذ ماتت الأعشاب الضارة في الممر الخارجي ما إن لمستها. وكذلك مات العشب على جانبي الممر، حتى هدأت صوفي قليلًا، وقد هدأها المساء. كان الهواء النقي يهب من التلال البعيدة، فأصدرت أجمات الأشجار المزروعة على جانبي الممر الخارجي حفيفًا رائعًا.

أبادت صوفي الأعشاب الضارة على طول ربع الممر. «إنك تتذكر أكثر بكثير مما تفصح»، اتهمت پارسيڤال وهي تعيد ملء إبريقها. «ما الذي تريده منك الساحرة حقًا؟ لماذا جلبتك إلى المتجر معها تلك المرة؟».

«أرادت أن تستطلع أخبار هاول»، قال پارسيڤال.

«هاول؟»، قالت صوفي. «لكنك لم تعرفه، أليس كذلك؟».

«كلا، ولكن لا بد أني أعرف شيئًا. كان لذلك صلة باللعنة التي أصابته بها»، قال پارسيڤال مفسرًا، «ولكن لا علم لي بها كانت. لقد أحلتها، كما تدركين، بعد مجيئنا إلى المتجر. أشعر بالاستياء حيال ذلك، وكنت أحاول منعها من أن تعرف، لأن اللعنة أمر شر، وفعلت ذلك عبر تفكيري بلتي. كانت لتي تشغل عقلي، ولا أعلم كيف عرفتها، لأن لتي قالت إنها لم ترني قط حين ذهبت إلى أپر فولدنغ. لكني أعرف عنها كل شيء؛ ما يكفي وحين أجبرتني

الساحرة على أن أخبرها عن لتي، قلت إنها تدير متجر قبعات في ماركت تشيبنغ. فذهبت الساحرة إلى هناك لتلقن درسًا لكلينا. كنت خائفًا، لأني لم أعرف أن للتي أختًا».

حملت صوفي الإبريق وأبادت الأعشاب الضارة بسخاء، وهي تتمنى لو كانت الساحرة مكان الأعشاب. «وحولتك كلبًا بعد ذلك مباشرة؟».

«خارج البلدة»، قال پارسيڤال. «ما إن منحتها ما أرادت معرفته، حتى فتحت باب العربة وقال «انصرف. سأستدعيك إن احتجتك». فركضت لأني استشعرت برقية ما تتبعني. وأصابتني حال وصولي إلى مزرعة، ورآني الناس فيها أتحول كلبًا وظنوني مستذئبًا وحاولوا قتلي. كان علي أن أعض أحدهم للهروب، لكنني لم أستطع التخلص من العصا، وعلقت في الوشيع حين حاولت المرور عبره».

أبادت صوفي الأعشاب الضارة في منعطف آخر للممر الخارجي وهي تصغي. «ثم ذهبت إلى بيت السيدة فيرفاكس؟».

«أجل. كنت أبحث عن لتي. كانت كلتاهما لطيفة معي»، قال پارسيڤال، «رغم أنهما لم ترياني من قبل. والساحر هاول استمر في زياراته للتودد إلى لتي. ولكن لتي لم ترده، وطلبت مني أن أعضه لتتخلص منه، حتى أخذ هاول فجأة يسألها عنك و...».

تفادت صوفي رش حذائها بالمبيد بشق الأنفس. وانبعث الدخان من الحصى حيث أصابتها المادة، ولعل هذا كان أفضل. «ماذا؟».

«قال «أعرف فتاة تدع صوفي تشبهك قليلًا»، فقالت لتي «هذه أختي» بلا تردد»، قال پارسيڤال. «وانتابها قلق كبير، بخاصة حين واصل هاول السؤال عن أختها، وقالت لتي إنها كان عليها أن تمسك لسانها. في اليوم الذي جئت فيه، كانت لطيفة مع هاول بغية أن تعرف كيف عرفك. قال هاول إنك امرأة عجوز، وقالت السيدة فيرفاكس إنها رأتك، فبكت لتي وبكت. وقالت «لقد أصاب صوفي أمر فظيع! والأسوأ أنها تظن نفسها في مأمن من هاول. إن صوفي رقيقة القلب جدًا ولن تدرك مدى قسوة هاول!» وكانت شديدة الاستياء فتمكنت من التحول إلى رجل لوقت يكفي لأقول لها إني سأذهب وأحميك».

نشرت صوفي مبيد الأعشاب الضارة في قوس مدخن. «لتي المزعجة! هذا لطف منها، وإني لأحبها حبًا جمًا من أجل هذا. لقد قلقت عليها أنا أيضًا، لكني لست بحاجة إلى كلب حراسة!».

«بلى تحتاجين»، قال پارسيڤال. «أو احتجتِ. لقد وصلت بعد فوات الأوان».

فاستدارت صوفي، هي والمبيد وكل شيء، وكان على پارسيڤال أن يقفز إلى العشب وينجو بحياته خلف أقرب شجرة. مات العشب متحولًا إلى مساحة طويلة بنية خلفه وهو يجري. «اللعنة على الجميع!»، صاحت صوفي. «لقد فعلت الكثير من أجلكم!»، وألقت إبريق السقاية المدخن وسط الممر الخارجي ومشت بين الأعشاب الضارة نحو البوابة الحجرية. «بعد فوات الأوان»، غمغمت وهي

تمشي. «يا له من هراء! إن هاول ليس قاسيًا فقط، بل مستحيل أيضًا! ثم»، أردفت، «إنني امرأة عجوز».

لكنها لم تنكر وجود خطأ ما منذ انتقلت القلعة المتحركة، أو قبل ذلك. وبدا أنه ينتهي بالطريقة التي عجزت بها صوفي بغموض على مواجهة أي من أختيها.

«وكل ما أخبرت به الملك حقيقي!»، واصلت. كانت ستمشي سبعة فراسخ على قدميها ولن تعود. ليرَ الجميع! من يكترث بأن السيدة المسكينة بنتسمتن قد اعتمدت على صوفي لإيقاف هاول من التحول إلى الشر؟! كانت صوفي فاشلة على أية حال، ومرد هذا لكونها الكبرى. وظنت السيدة بنتسمتن أنها أم هاول العجوز المحبة. ألم تفعل؟ أو هل فعلت؟ أدركت صوفي، مستاءة، أن سيدة لها عين خبيرة كشفت سحرًا محاكًا في بدلة قادرة قطعًا على كشف السحر الأقوى لرقية الساحرة.

«أوه، سحقًا لتلك البدلة الرمادية والقرمزية!»، قالت صوفي. «أرفض تصديق أنني من أصيب بها!». المشكلة أن البدلة الفضية والزرقاء لها الأثر نفسه. خبطت بضع خطوات وقالت بارتياح كبير «على أية حال، إن هاول لا يحبني!».

كانت هذه الفكرة المطمئنة كافية لتظل صوفي تمشي طيلة الليل، لولا أن استحوذ عليها قلق مفاجئ مألوف. لقد سمعت أذناها توك توك توك من بعيد، فنظرت بحدة تحت الشمس الغاربة. وهناك، على الطريق الذي تعرج خلف البوابة الحجرية، كان شكل بعيد له

ذراعان ممدوتان، يثب ويثب. رفعت صوفي تنورتها، واستدارت وأسرعت عائدة من حيث أتت. طار خلفها التراب والحصى في غيوم. كان پارسيڤال واقفًا يائسًا في الممر الخارجي قرب الدلو وإبريق السقاية. فأمسكته صوفي وسحبته خلف أقرب شجرة.

«أوقع مكروه؟»، قال.

«اصمت! إنها تلك الفزاعة اللعينة ثانية»، قالت صوفي لاهثة. وأغمضت عينيها «نحن لسنا هنا»، قالت. «لا يمكنك العثور علينا. ابتعدي، ابتعدي سريعًا سريعًا سريعًا!».

«ولكن لماذا...؟»، قال پارسيڤال.

«اخرس! لسنا هنا، لسنا هنا، لسنا هنا!» قالت صوفي يائسة. ثم فتحت إحدى عينيها، وكانت الفزاعة، بين أعمدة البوابة تقريبًا، تقف ساكنة وتتمايل بارتياب. «هذا صحيح»، قالت صوفي. «نحن لسنا هنا. ابتعدي سريعًا، أسرع بضعفين، بثلاثة أضعاف، بعشرة أضعاف. ابتعدي!».

وتمايلت الفزاعة مترددة على عصاها وأخذت تعود أدراجها وثبًا. وبعد الوثبات الأولى أخذت تقفز قفزات هائلة، أسرع فأسرع مثلما قالت لها صوفي. ولم تتنفس صوفي، ولم تترك كم پارسيڤال إلى أن توارت الفزاعة عن الأنظار.

«ما خطبها؟»، قال پارسيڤال. «لماذا لا تريدينها؟».

ارتعدت صوفي، ولم تجرؤ على الذهاب ما دامت الفزاعة على

الطريق. فحملت إبريق السقاية وخبطت بقدميها عائدة إلى البيت، ولفتت رفرفةٌ نظرها أثناء عودتها، وكانت هذه رفرفة ستائر بيضاء طويلة تطير مع الريح من نافذة فرنسية مفتوحة خلف تماثيل المصطبة. كانت التماثيل من حجر أبيض نظيف، ورأت ستائر على معظم النوافذ، وزجاجًا أيضًا. أما المصاريع فقد كانت مطوية جيدًا قربها، وقد طليت حديثًا بطلاء أبيض. ولم يشب واجهة المنزل الجصية الجديدة بلون الكريمة أي بقعة خضراء أو انتفاخ، وكان الباب الأمامي تحفة من الطلاء الأسود والزخرفة الملولبة الذهبية، يتوسطه أسد مذهب في فمه حلقة لتكون مقرعة.

«هه!»، قالت صوفي.

قاومت الرغبة في الدخول من النافذة المفتوحة والمعاينة، إذ كان هذا ما أرادها هاول أن تفعله. فمشت نحو الباب الأمامي، وأمسكت المقبض الذهبي، وفتحت الباب محدثة ارتطامًا. كان هاول ومايكل عند طاولة الأشغال يبطلان رقية على عجالة. لا بد أن جزءًا منها لتغيير شكل البيت، لكن البقية، كما عرفت صوفي جيدًا، يجب أن تكون رقية للتنصت. ولما دخلت صوفي عاصفة، التفت نحوها وجهاهما متوترين، وتوارى كالسيفر تحت جذوله في الحال.

«اختبئ خلفي يا مايكل»، قال هاول.

«متنصت!»، صاحت صوفي. «متلصص!».

«ما الأمر؟»، قال هاول. «أتريدين أن تكون المصاريع باللونين الأسود والذهبي أيضًا؟».

«أيها الصفيق...»، تلعثمت صوفي. «لم يكن هذا الشيء الوحيد الذي سمعته! أيها.. أيها.. منذ متى تعرف أنني كنت.. أكون ...؟».

«واقعة تحت رقية؟»، قال هاول. «حسن، الآن...».

«أنا أخبرته»، قال مايكل، وهو ينظر بقلق إلى هاول. «حبيبتي لتي...».

«أنت!»، زعقت صوفي.

«لقد أفشت لتي الأخرى السر أيضًا»، قال هاول بسرعة. «تعلمين ذلك. وقد تحدثت السيدة فيرفاكس كثيرًا ذلك اليوم. في لحظات بدا الأمر كأن الجميع يخبروني، حتى كالسيفر فعل؛ حين سألته. ولكن أحقًا تظنين أني لا أجيد عملي بما يكفي لأكشف رقية قوية كهذه حين أراها؟ لقد حاولت محاولات كثيرة لأبطلها عنك دون انتباهك. ولكن لم ينجح شيء، وأخذتك إلى السيدة پنتستمن آملًا أن بوسعها فعل شيء، لكن الواضح أنها لم تستطع. فوصلت إلى نتيجة مفادها أنك تحبين التخفي».

«التخفي؟!»، صرخت صوفي.

ضحك منها هاول «قطعًا، ما دمت تمارسينه بنفسك»، قال. «يا لكم من عائلة غريبة! هل اسمك لتي أيضًا؟».

طفح كيل صوفي، وتقدم پارسيڤال عندئذ متوترًا، حاملًا دلو مبيد الأعشاب الضارة المليء حتى المنتصف. فألقت صوفي إبريقها، وأخذت الدلو منه، ورمته على هاول. تجنب هاول الدلو، وأفلت

منه مايكل. فاتقد المبيد في صفحة من اللهب الأخضر ذي الطنين من الأرض إلى السقف. وسقط الدلو محدثًا رنينًا في حوض المغسلة حيث ماتت في الحال كل الزهور المتبقية.

«أوه!»، قال كالسيفر من تحت جذوله. «كان هذا قويًا».

رفع هاول الجمجمة بحذر من تحت البقايا البنية المدخنة للزهور وجففها بأحد كميه. «كان قويًا طبعًا»، قال. «فصوفي لا تفعل شيئًا بغير حماس». غدت الجمجمة، بعد أن مسحها هاول، بيضاء جديدة لامعة، والكم الذي استخدمه توسطته رقعة باللونين الأزرق والفضي الباهتين. وضع هاول الجمجمة على طاولة الأشغال، ونظر إلى كمه حزينًا.

انتابت صوفي رغبة في الخروج من القلعة ثانية، وأن تقطع الممر الخارجي، لكن الفزاعة هناك. فعزمت على أن تمشي إلى الكرسي، حيث جلست وغرقت في تجهم عميق. وقلت في نفسها لن أتحدث إلى أي منهم!

«صوفي»، قال هاول، «لقد فعلت ما بوسعي. ألم تلاحظي أن آلامك وأوجاعك قد خفت في الآونة الأخيرة؟ أم أنك تستمتعين بها أيضًا؟» لم تجبه صوفي، فاستسلم هاول واستدار نحو پارسيڤال وقال «يسعدني أن أرى أن لك عقلًا. لقد أثرت قلقي».

«إنني لا أتذكر الكثير حقًا»، قال پارسيڤال، لكنه كف عن التصرف كالأبله، وحمل الغيتار وضبط أوتاره، وجعل صوته ألطف في ثوانٍ.

«لقد انجلى حزني»، قال هاول على نحو يثير العطف. «ولدت ويلزيًا لا يتمتع بحس موسيقي. أأخبرت صوفي بكل هذا؟ أو هل تعلم حقًا ماذا تحاول الساحرة أن تعرف؟».

«أرادت أن تعرف ويلز»، قال پارسيڤال.

«هذا ما ظننته»، قال هاول جادًا. «آه، حسن». وذهب إلى الحمام، حيث اختفى للساعتين القادمتين. وأثناء ذلك الوقت عزف پارسيڤال عددًا من الألحان على الغيتار عزفًا بطيئًا متفكرًا، كأنه كان يعلّم نفسه كيف يفعل، أما مايكل فزحف على الأرض حاملًا خرقة مدخنة، وهو يحاول التخلص من المبيد. جلست صوفي على الكرسي ولم تفه بكلمة، وظل كالسيفر يرتفع ويسترق النظر إليها، ثم يندس تحت جذوله ثانية.

خرج هاول من الحمام وبدلته سوداء لامعة، وشعره أبيض لامع، في غيمة من البخار الذي تفوح منه رائحة الجنطيانا. «قد أعود متأخرًا»، قال لمايكل. «سيحل يوم منتصف الصيف بعد منتصف الليلة، وقد تحاول الساحرة ان تفعل شيئًا. فأبق كل الدفاعات جاهزة، وتذكر كل ما أخبرتك به من فضلك».

«حسن»، قال مايكل، واضعًا بقايا الخرقة التي يتصاعد منها البخار في حوض المغسلة.

استدار هاول إلى پارسيڤال، وقال «أظنني أعرف ماذا حدث لك. سيكون إعادة أمورك إلى نصابها عملًا شاقًا، لكني سأجرب غدًا بعد عودتي». تقدم هاول نحو الباب ووقف واضعًا يده على

المقبض «أما زلت لا تتحدثين إلي يا صوفي؟»، سأل بائسًا. عرفت صوفي أن هاول سيبدو تعسًا في الجنة لو وافقه ذلك، وقد استغلها للحصول على معلومات من پارسيڤال. «بلى!»، قالت مدمدمة.

تنهد هاول وخرج، ورفعت صوفي نظرها ورأت المقبض يشير إلى الأسود. فقالت في نفسها هذا يكفي! لست أبالي إن كان غدًا هو يوم منتصف الصيف! أنا راحلة.

الفصل العشرون

وفيه تواجه صوفي مزيدًا من المصاعب في مغادرة القلعة

حل يوم منتصف الصيف، وفي اللحظة نفسها التي حدث فيها ذلك، اندفع هاول داخلًا من الباب بصخب أفزع صوفي في حجيرتها، موقنة أن الساحرة كانت في إثره.

«يفكرون بي كثيرًا ولذلك يلعبون من دوني!»، جأر هاول. فأدركت صوفي أنه كان يحاول أن يغني أغنية كالسيفر عن القِدر فاضطجعت ثانية، وتهاوى هاول على الكرسي ودفع المقعد بقدمه فدار في أرجاء الغرفة. وحاول بعدئذ الصعود إلى الأعلى عبر خزانة المكانس، ثم إلى الفناء. كأن هذا سبّب له شيئًا من الحيرة، لكنه أخيرًا وجد السلالم، كلها عدا السفلى، فسقط عليها على وجهه، وارتجت القلعة بأكملها.

«ما الأمر؟»، سألت صوفي مقحمة رأسها عبر الدرابزين.

«اجتماع شمل نادي الرغبي»، أجاب هاول بجلال كثيف. «لم أعلم أني كنت لاعبًا في الجناح في فريق جامعتي. هل علمت يا سيدة حشرية؟».

«إن كنت تحاول الطيران، فلا بد أنك نسيت ذلك»، قالت صوفي.

«ولدت لأرى عجائب»، قال هاول، «أشياء لا تراها عيني، وكنت ذاهبًا إلى فراشي عندما قاطعتني. أعلم مكان السنوات الماضية ومن فلق قدم الشيطان».

«اذهب للنوم أيها الأحمق»، قال كالسيفر ناعسًا. «إنك ثمل».

«من، أنا؟»، قال هاول. أؤكد لكم يا صديقيّ أنني عاقل متزن وقور». ونهض وارتقى الدرج، متحسسًا الجدار كأنه يحسبه سيهرب منه ما لم يبقِ يده عليه. لكن باب غرفته هرب منه «أي كذبة هذه!»، قال هاول وهو يصطدم بالجدار. «سيكون في خداعي البراق خلاصي».

واصطدم بالجدار مراتٍ أخرى، في عدة أماكن مختلفة، قبل أن يجد باب غرفته فاندفع داخلًا إياه بصخب. سمعته صوفي يسقط، قائلًا إن فراشه يراوغه.

«إنه مستحيل حقًا!»، قالت صوفي وعزمت على الرحيل في التو واللحظة.

لسوء الحظ، أيقظ ضجيج هاول مايكلَ وبارسيفال، الذي ينام على الأرض في غرفة مايكل. نزل مايكل قائلًا إنهما استيقظا تمامًا وإنهما سيخرجان لجمع الزهور من أجل أكاليل منتصف الصيف ما دام النهار باردًا. ولم تأسف صوفي على خروجها إلى مكان الزهور للمرة الأخيرة. وكان في الخارج سديم دافئ حليبي، يضوع منه شذى

الألوان شبه المختفية. خبطت صوفي بقدميها، متفحصة الأرض الطرية بعصاها ومصغية إلى طنين آلاف الطيور وتغريدها، وهي تشعر بأسى حقيقي. وتلمّست زنبقة ناعمة ندية وتحسست الزهور الذاوية البنفسجية ذات الأسْدية الغبارية. ونظرت للوراء نحو القلعة العالية السوداء التي تقاوم الضباب خلفهم، وتنهدت.

«لقد جعلتها أفضل بكثير»، قال پارسيڤال حين وضع ملء ذراع من زهور الكركديه في حوض مايكل العائم.

«ومن ذاك؟»، قال مايكل.

«هاول»، قال پارسيڤال. «لم يكن هنا سوى الشجيرات في البداية، وكانت صغيرة ويابسة».

«أتتذكر أنك كنت هنا قبلًا؟»، سأل مايكل بحماس، وقد تخلى عن فكرته القائلة إن پارسيڤال هو الأمير جستن.

«أظنني كنت هنا مع الساحرة»، قال پارسيڤال مرتابًا.

جمعا حمل حوضين من الزهور، ولاحظت صوفي لدى عودتهما في المرة الثانية، أن مايكل أدار المقبض فوق الباب عددًا من المرات، ولهذا صلة بإبعاد الساحرة قطعًا. ثم كان عليهم صنع أكاليل منتصف الصيف، واستغرق هذا وقتًا. أرادت صوفي أن تترك مايكل وپارسيڤال يصنعانها، لكن مايكل كان مشغولًا للغاية بما طرحه على پارسيڤال من أسئلة محتالة، وكان پارسيڤال بطيئًا في العمل. عرفت صوفي ما أثار حماس مايكل، إذ كان ثمة شيء في

هيئة پارسيڤال، كأنه توقع حدوث أمر قريبًا. فدفع هذا صوفي إلى التساؤل عن مقدار قوة الساحرة التي لم يزل يحملها. وتعين عليها صنع معظم الأكاليل، وتلاشت أي فكرة خطرت لها حول البقاء ومساعدة هاول ضد الساحرة. هاول، الذي كان بوسعه صنع كل الأكاليل بتلويحة من يده فقط، كان يشخر شخيرًا عاليًا بلغ سمعها وهي في المتجر.

وقضوا وقتًا طويلًا في صنع الأكاليل وحان موعد فتح المتجر قبل أن ينتهوا. جلب مايكل الخبز والعسل، وأكلوا وهم يخدمون الدفعة الأولى الهائلة من الزبائن. ورغم أن يوم منتصف الصيف، باعتباره إجازة، كان يومًا رماديًا وباردًا في ماركت تشيپنغ، فقد جاء نصف أهل البلدة يلبسون ثياب الإجازات الزاهية، لشراء الزهور والأكاليل لأجل المهرجان. وكان في الشارع الحشد المتدافع المعتاد، ودخل المتجر أناس كثيرون إذ شارف النهار على الانتصاف قبل أن تتسلل صوفي أخيرًا صاعدة العتبات عبر خزانة المكانس. لقد حصلوا على مال كثير، هذا ما فكرت به صوفي وهي تتنقل في الأنحاء، حازمة بعض الطعام وثيابها القديمة في رزمة، سيتضاعف به كنز مايكل المخبوء تحت حجر المصطلى عشرة أضعاف.

«أجئت لتتحدثي إلي؟»، سأل كالسيفر.

«لحظة»، قالت صوفي، وهي تعبر الغرفة حاملة رزمتها خلف ظهرها. إذ لم ترد أن يعلو احتجاج كالسيفر بشأن العقد.

مدت يدها لتتناول عصاها من الكرسي، وقرع أحدهم على الباب. فجمدت صوفي ويدها ممدودة تنظر إلى كالسيفر متسائلة.

«إنه باب البيت»، قال كالسيفر. «والقادم من لحم ودم ولا أذى منه».

قرع الباب ثانية. فقالت صوفي في نفسها إن هذا يحدث كلما أردت المغادرة! فأدارت مقبض الباب إلى البرتقالي وفتحت الباب.

كان في الممر الخارجي عربة خلف التماثيل، يجرها حصانان لا بأس بهما. واستطاعت صوفي رؤيتها من خلف الخادم الضخم جدًا الذي كان يقرع الباب.

«السيدة ساتشِفيرل سمِث تود زيارة الساكنين الجدد»، قال الخادم.

يا للغرابة! قالت صوفي في نفسها. لقد كان ذاك نتيجة الطلاء والستائر الجديدة من هاول. «نحن لسنا...»، قالت. لكن السيدة ساتشِفيرل سمِث نحّت الخادم جانبًا ودخلت.

«انتظر في العربة يا ثيوبولد»، قالت الخادم حين مرت بصوفي، طاوية شمسيتها.

كانت تلك فاني، فاني تبدو ثرية للغاية في ثوب الحرير الكريمي. كانت تعتمر قبعة حريرية بلون الكريمة تزينها الورود، تذكرتها صوفي جيدًا. وتذكرت ما قالته لهذه القبعة عندما زينتها: «سيتعين عليك أن تتزوجي بالنقود». وكان جليًا تمامًا من هيئتها أن فاني فعلت.

«أوه يا إلهي!»، قالت فاني وهي تنظر حولها. «ثمة خطأ بلا شك. هذا جناح الخدم!».

«حسن... إه... لم نفرغ متاعنا بعد يا سيدتي»، قالت صوفي وتساءلت عن إحساس فاني إن عرفت أن متجر القبعات القديم يقع خلف خزانة المكانس.

استدارت فاني وفغرت فاها في وجه صوفي، وقالت متعجبة «صوفي!» «أوه، يا ربي، ما الذي حدث لك يا صغيرتي؟ تبدين في التسعين من عمرك! أكنت مريضة جدًا؟» ودهشت صوفي لما رأت فاني ترمي بقبعتها وشمسيتها وكل أسلوبها الراقي وألقت بذراعيها حول صوفي وبكت. «أوه، لم أعلم ماذا حدث لك!»، ونشجت. «ذهبت إلى مارثا وأرسلت إلى لتي ولم تدرِ أي منهما. لقد تبادلتا الأماكن، الفتاتان السخيفتان، أعرفت؟ ولكن لم يعرف أحد شيئًا عنك! لكني نلت تعويضي. وها أنت تعملين هنا خادمة، في حين أن بوسعك أن تعيشي برخاء أعلى التلة معي ومع السيد سمث!».

وجدت صوفي أنها تبكي أيضًا، فألقت بحزمتها على عجل وأخذت فاني إلى الكرسي. وجرت المقعد وجلست بجانب فاني ممسكة بيدها. كانت كلاهما تبكي وتضحك أيضًا، وكانتا شديدتي السعادة للقائهما ثانية.

«إنها قصة طويلة»، قالت صوفي بعد أن سألتها فاني ست مرات عما حدث لها. «حين نظرت في المرآة ورأيت نفسي هكذا، كانت صدمة فلذت بالفرار...».

«من فرط العمل»، قالت فاني حزينة. «كم ألوم نفسي!».

«ليس تمامًا»، قالت صوفي. «ولا داعي لقلقك، لأن الساحر هاول أخذني...».

«الساحر هاول؟!»، قالت فاني متعجبة. «ذاك الرجل الشرير الشرير! أفعل هذا بك؟ أين هو؟ دعيني أرَه!».

وأمسكت بشمسيتها واستعدت للقتال حتى تعين على صوفي أن تهدئها. لم تكترث صوفي بردة فعل هاول إن أيقظته فاني وهي تطعنه بشمسيتها. «كلا، كلا!»، قالت. «لقد أحسن هاول معاملتي»، وأدركت صوفي أن هذا صحيح. فقد أظهر هاول لطفًا بصورة غريبة، ولكن، نظرًا لكل ما فعلته صوفي لإزعاجه، فقد كان شديد اللطف معها حقًا.

«لكنهم يقولون إنه يأكل النساء على قيد الحياة!»، قالت فاني، وهي تجهد للصعود إلى الأعلى.

فهدأتها صوفي بإمساك شمسيتها وقالت «لا يفعل حقًا. اسمعي. إنه ليس بشرير مطلقًا!»، وانبعث من الموقد أزيز خفيف عندئذ، حيث كان كالسيفر يراقب بشيء من الاهتمام. «إنه ليس كذلك!»، قالت صوفي، موجهة الحديث لكالسيفر مثلما وجهته لفاني. «طوال الوقت الذي قضيته هنا، لم أره يصنع رقية شر!»، وأدركت مرة أخرى أن هذا صحيح.

«علي أن أصدقك إذن»، قالت فاني وقد هدأت، «رغم أني واثقة أن صلاحه بفضلك. فقد كانت هذه حالك دومًا يا صوفي. إذ

كنت قادرة على تهدئة نوبات غضب مارثا حين أعجز أنا عن فعل أي شيء لها. وأقول دومًا إن الفضل يعود إليك في أن لتي تفعل ما يحلو لها نصف الوقت بدلًا من الوقت كله! ولكن كان عليك إخباري بمكانك يا حبي!».

أدركت صوفي هذا. لقد التزمت رأي مارثا بفاني، كاملًا دون نقصان، في حين أنها تعرف فاني جيدًا، فأحست بالخجل.

لم تطق فاني صبرًا حتى تخبر صوفي عن السيد ساتشِڤيرل سمِث. فانطلقت في سرد طويل حماسي عن لقائها بالسيد سمث في الأسبوع نفسه الذي رحلت فيه صوفي، وتزوجته قبل انقضاء الأسبوع. نظرت إليها صوفي وهي تتحدث، فقد منحتها شيخوختها رأيًا جديدًا كليًا بفاني. إذ كانت سيدة لم تزل صغيرة جميلة، ووجدت متجر القبعات مملًا بقدر صوفي. لكنها لازمته وبذلت ما في وسعها، في المتجر ومع الفتيات الثلاث حتى ممات السيد هاتر. ثم انتابها الخوف فجأة من أن تكون مثل صوفي؛ عجوزًا بلا عقل ولا شيء تنتفع به.

«ثم، بلا وجودك هناك لأسلم المتجر لك، لم يكن ثمة سبب يمنع بيعه»، كانت فاني تقول، حين سمعت قعقعة أقدام في خزانة المكانس.

دخل مايكل عبرها قائلًا «لقد أغلقنا المتجر. وانظري من جاء!»، كان يمسك يد مارثا.

كانت مارثا أنحف وأجمل واستعادت هيئتها ثانية. فتركت يد

مايكل واندفعت إلى صوفي تصرخ «كان عليك إخباري يا صوفي!» وألقت بذراعيها حولها. ثم طوقت فاني بذراعيها، كأنها لم تقل قط كل تلك الأمور عنها.

لكن هذا ليس كل شيء. إذ دخلت لتي والسيدة فيرفاكس عبر خزانة المكانس خلف مارثا، تحملان سلة كبيرة بينهما، وجاء خلفهما پارسيڤال، الذي بدا أكثر حيوية من أي وقت مضى رأته فيه صوفي. «لقد جئنا مع حمّال في بادئ الأمر»، قالت السيدة فيرفاكس، «فجلبنا معنا... يا رب السماء! هذه فاني!»، وألقت بجانب السلة وركضت لعناق فاني، وتركت لتي جانبها وركضت لعناق صوفي.

في الحقيقة، ساد العناق والتعجب والصراخ فعجبت صوفي أن هاول لم يستيقظ. لكنها سمعت شخيره في الضجيج، وقالت في نفسها سأرحل هذا المساء. كانت شديدة السرور برؤية الجميع ولم تفكر بالرحيل قبل ذلك.

كانت لتي مغرمة بپارسيڤال. حمل مايكل السلة إلى طاولة الأشغال وأخرج منها دجاجًا باردًا ونبيذًا وپودنغ العسل، وتشبثت لتي بذراع پارسيڤال بهيئة المالكة التي لم تستحسنها صوفي، ودفعته إلى إخبارها أنه يتذكر. لم يبدِ پارسيڤال اعتراضًا، وبدت لتي بالغة الجمال فلم تلمه صوفي.

«لقد جاء وظل يتحول إلى رجل ثم إلى أنواع مختلفة من الكلاب ويصر على أنه يعرفني»، قالت لتي لصوفي. «عرفت أني لم أره قبلًا، لكن هذا لا يهم». وربتت على كتف پارسيڤال كأنه ما زال كلبًا.

«لكنك التقيت الأمير جستن؟»، قالت صوفي.

«أوه، نعم»، قالت لتي بلامبالاة. «دعيني أذكرك أنه جاء متخفيًا ببزة خضراء، ولكن واضح أنه هو. كان لطيفًا وودودًا للغاية، حتى في غضبه بعد تعويذات العثور على الشيء. فقد تعين عليّ أن أصنع تعويذتين إذ ظلتا تظهران أن الساحر سولمن كان في مكان ما بيننا وبين ماركت تشپنغ، وأقسم إن هذا ليس بصحيح. وطيلة صنعي لهما ظل يقاطعني ويسميني «السيدة الحلوة» بأسلوب ساحر، ويسألني من أكون وأين تسكن عائلتي وكم عمري. ووجدت هذا صفاقة! وفضلت عليه هاول، وهذا يبيّن شيئًا!».

كان الجميع عندئذ مشغولًا يتناولون الدجاج ويرشفون النبيذ. وبدا الخجل على كالسيفر، فقد تضاءل إلى لهب أخضر ولم يعره أحد اهتمامه. أرادته صوفي أن يلتقي لتي، وحاولت أن تتملقه للخروج.

«أهذا حقًا العفريت المسؤول عن حياة هاول؟»، قالت لتي ناظرة إلى اللهب الأخضر بارتياب.

رفعت صوفي نظرها لتؤكد للتي أن كالسيفر حقيقي فرأت الآنسة أنغوريان تقف قرب الباب، بادٍ عليها الخجل والشك. «أوه، أستميحكم عذرًا، لقد جئت في وقت غير مناسب، أليس كذلك؟»، قالت الآنسة أنغوريان. «أرادت التحدث إلى هاول فحسب».

نهضت صوفي، دون أن تدري تمامًا ما تفعل. كانت خجلة من أسلوبها في دفع الآنسة أنغوريان خارجًا المرة الماضية. وكان ذاك

لأنها عرفت أن هاول يتودد إلى الآنسة أنغوريان، ومن جانب آخر لا يعني هذا أن عليها أن تحبها.

أخذ مايكل زمام الأمور من صوفي إذ حيى الآنسة أنغوريان بابتسامة مشرقة وصيحة ترحيب. «هاول نائم الآن»، قال، «فتعالي واشربي كأسًا من النبيذ أثناء انتظارك».

«يا للطفك»، قالت الآنسة أنغوريان.

لكن الجلي أن الآنسة أنغوريان لم تكن سعيدة، ورفضت النبيذ وسألت متوترة حول قضم فخذ دجاجة. كانت الغرفة تغص بأشخاص يعرفون بعضهم بعضًا جيدًا وكانت هي الدخيلة. ولم تستطع فاني إلا أن تشيح عن السيدة فيرفاكس دائمة الكلام وتقول «يا لها من ثياب غريبة!» وكذلك كانت مارثا، إذ رأت ترحيب مايكل الحار بالآنسة أنغوريان، فذهبت وحرصت على ألا يحدث مايكل أحدًا إلاها وصوفي. وتجاهلت لتي الآنسة أنغوريان وذهبت للجلوس على الدرج مع پارسيڤال.

وسرعان ما رأت الآنسة أنغوريان أنها نالت كفايتها، ورأتها صوفي قرب الباب تحاول فتحه. فهرعت إليها شاعرة بالاستياء الشديد، إذ لا شك أن الآنسة أنغوريان أحبت هاول حبًا جمًا دفعها للقدوم. «لا تذهبي الآن من فضلك»، قالت صوفي، «سأذهب وأوقظ هاول».

«أوه، كلا، ليس عليك فعل ذلك»، قالت الآنسة أنغوريان مبتسمة بتوتر. «هذا يوم إجازتي، وسيسعدني الانتظار. حسبت أنني

سأذهب وأتجول خارجًا، فالمكان خانق بعض الشيء هنا بوجود تلك النار الخضراء الغريبة المشتعلة».

كانت هذه الوسيلة الفضلى في نظر صوفي للتخلص من الآنسة أنغوريان دون أن تتخلص منها حقًا. ففتحت الباب لها بأدب. بصورة ما -وقد يكون لهذا صلة بالدفاعات التي طلب هاول من مايكل نصبها للحماية- أدير مقبض الباب نحو البنفسجي. وفي الخارج كان الوهج السديمي للشمس والمنعطفات المنسابة من الزهور الحمراء والبنفسجية.

«يا لها من أشجار ورد فاتنة!»، قالت الآنسة أنغوريان متعجبة بأشد صوت أجش نابض. «يجب أن أراها!»، ووثبت متحمسة على العشب السبخ.

«لا تذهبي نحو الجنوب الغربي»، قالت صوفي من ورائها.

كانت القلعة تتمايل على الجانبين، ودست الآنسة أنغوريان وجهها الجميل في جمع من الزهور البيضاء. «لن أبتعد على الإطلاق»، قالت.

«يا رب السماء!»، قالت فاني قادمة خلف صوفي. «ماذا حدث لعربتي؟».

شرحت صوفي، قدر استطاعتها، لكن فاني كانت شديدة القلق فاضطرت صوفي إلى تدوير المقبض نحو البرتقالي وفتحته ليظهر الممر الخارجي للبيت في يوم رمادي أكثر، حيث جلس الخادم وحوذي

فاني على سطح العربة يأكلان السجق البارد ويلعبان الورق. صدقت فاني عندئذ أن عربتها لم تختطف اختطافًا غامضًا. كانت صوفي تحاول تفسير، دون أن تعرف هي نفسها، كيف يمكن لباب واحد أن ينفتح على أماكن عديدة مختلفة، عندما علا كالسيفر بين جذوله هادرًا.

«هاول!»، زمجر مالئًا المدخنة باللهب الأزرق. «هاول! هاوِل جنكنز، لقد عثرت الساحرة على عائلة أختك!».

سمع خبطتان قويتان في الأعلى، وانفتح باب غرفة هاول بارتطام، وخرج يجري نزولًا. وابتعدت لتي وپارسيڤال عن طريقه، وصرخت فاني قليلًا لدى رؤيته. كان شعر هاول مثل كومة التبن وطوقت عينيه خطوط حمراء. «لقد نالت مني في نقطة ضعفي، اللعنة عليها!» صرخ وهو يندفع في الغرفة وكماه الأسودان يطيران. «خفت أن تفعل! شكرًا لك يا كالسيفر!»، ونحّى فاني جانبًا وفتح الباب.

سمعت صوفي الباب ينصفق خلف هاول وهي تعرج صاعدة. وأدركت أن هذا فضول، لكنها أردت معرفة ما حدث. ولما عرجت في غرفة هاول، سمعت الجميع يتبعها.

«يا لها من غرفة قذرة!»، قالت فاني.

أطلت صوفي من النافذة، وكانت السماء تمطر في الحديقة الجميلة، والأرجوحة تتدلى والماء يقطر منها. كانت لبدة الشعر الأحمر المموج للساحرة مبللة منه، ووقفت تتكئ على الأرجوحة، طويلة وجبارة بثوبها الأحمر تومئ وتومئ ثانية. كانت ماري ابنة

أخت هاول تجر قدميها على العشب المبلل نحو الساحرة، ولم يبدُ أنها راغبة في الذهاب، ولكن لا خيار لها. وخلفها كان نيل ابن أخت هاول يجر قدميه نحو الساحرة على نحو أبطأ، يحدق غاضبًا بأشد أساليبه شراسة. وكانت ميغن أخت هاول خلف الطفلين. رأت صوفي ذراعي ميغن يتحركان وفمها ينفتح وينغلق. واضح أنها تصب جام غضبها على الساحرة، لكنها سُحبت نحو الساحرة أيضًا.

اندفع هاول خارجًا إلى المرج، ولم يتجشم عناء تغيير ثيابه، ولم يتجشم عناء فعل أي سحر، بل اكتفى بالتوجه نحو الساحرة. فمدت الساحرة يدها لتمسك بماري، لكن ماري كانت بعيدة جدًا، ووصل هاول إلى ماري أولًا، وخبأها خلفه وتابع تقدمه. فهربت الساحرة، وركضت مثل قطة يلاحقها كلب، عبر المرج ومن فوق السياج الأنيق، في عاصفة من الثياب بلون اللهب، وهاول كالكلب المطارد خلفها بقدم أو نحوه ويقترب. اختفت الساحرة وراء السياج في غبش أحمر، ولحقها هاول في غبش أسود وكمين طويلين. ثم أخفاهما السياج عن الأنظار.

«أرجو أن يمسك بها»، قالت مارثا. «الفتاة الصغيرة تبكي».

في الأسفل، وضعت ميغن ذراعها حول ماري وأخذت الطفلين إلى الداخل. لم يعرف ماذا حل بهاول والساحرة، فعاد لتي وبارسيڤال ومارثا ومايكل إلى الطابق السفلي. وجدت فاني والسيدة فيرفاكس قرفًا من حال غرفة هاول.

«انظرا إلى تلك العناكب!»، قالت السيدة فيرفاكس.

«والغبار على هذه الستائر!»، قالت فاني.

«لقد رأيت بعض المكانس في الممر الذي أتيت منه يا أنابيل».

«لنأت بها»، قالت السيدة فيرفاكس. «سأرفع ثوبك بالدبابيس يا فاني، وسنشرع في العمل. لا أطيق أن تكون غرفة بهذه الحال!».

قالت صوفي في نفسها أوه يا هاول المسكين! إنه يحب هذه العناكب! وترددت على العتبات تتساءل كيف توقف السيدة فيرفاكس وفاني.

من الأسفل نادى مايكل «سنذهب للتجول حول البيت يا صوفي. أتودين القدوم؟».

كان هذا الشيء المثالي لمنع السيدتين من التنظيف. فنادت صوفي فاني وعرجت مسرعة إلى الأسفل. كانت لتي وپارسيڤال يفتحان الباب، ولم تسمع لتي ما شرحته صوفي لفاني، كما أن پارسيڤال لم يفهم أيضًا. ورأت صوفي أنهما يفتحان الباب والمقبض نحو البنفسجي بطريق الخطأ، وفتحاه عندما قطعت صوفي الغرفة لتصحح لهما.

دارت الفزاعة في الممر أمام الزهور.

«أغلقاه!»، صرخت صوفي. لقد رأت ما حدث، فقد ساعدت الفزاعة حقًا الليلة الماضية بإخبارها أن تذهب عشرة أضعاف سرعتها، فأسرعت نحو مدخل القلعة وحاولت الدخول. لكن

الآنسة أنغوريان كانت في الخارج، وتساءلت صوفي إن كانت تستلقي بين أشجار الورد مغشيًا عليها. «كلا، لا تفعلي!»، قالت صوفي واهنة.

لم يلق أحد لها بالًا على أية حال. كان وجه لتي بلون ثوب فاني، وكانت تتشبث بمارثا، ووقف پارسڤال يحدق، ومايكل يحاول الإمساك بالجمجمة، التي كانت أسنانها تصطك بشدة منذرة بالسقوط من طاولة الأشغال آخذة معها زجاجة نبيذ. وكان للجمجمة تأثير غريب على الغيتار أيضًا، فقد أطلق رنينًا طنانًا طويلًا: لاومم أذوومم! لاومم أذومم!

توهج كالسيفر في المدخنة ثانية. «هذا الشيء يتحدث»، قال لصوفي. «إنه يقول لا أذى. أظنه يقول الحق، وهو بانتظار إذنك ليدخل».

كانت الفزاعة تقف هناك قطعًا، ولم تحاول الدخول كما فعلت من قبل. ولا بد أن كالسيفر وثق بها، إذ أوقف حركة القلعة. نظرت صوفي إلى وجه الملفوف والخرق المرفرفة، ولم تكن مخيفة البتة، وقد كنّت لها مشاعر الرفقة يومًا. بل إنها شكت أنها اتخذت منها ذريعة مناسبة لئلا تترك القلعة لأنها أرادت البقاء. ولم يعد لذلك حاجة الآن، إذ تعين على صوفي أن تغادر على أية حال؛ فهاول فضّل الآنسة أنغوريان.

«ادخلي من فضلك»، قالت بصوت مبحوح قليلًا.

«أهمممنغ!»، قال الغيتار. اندفعت الفزاعة إلى الغرفة بوثبة واحدة مائلة قوية. ووقفت تتأرجح على ساقها الوحيدة كأنها تبحث

عن شيء ما، ولم تخف رائحة الزهور التي جلبتها معها رائحة الغبار والملفوف المتعفن التي تفوح منها.

اصطكت أسنان الجمجمة تحت أصابع مايكل مرة أخرى، فدارت الفزاعة سعيدة واتجهت نحوها متمايلة. حاول مايكل إنقاذ الجمجمة ثم أخلى الطريق بسرعة. إذ حين وصلت الفزاعة إلى الطاولة، وقع اهتزاز ذو أزيز من سحر قوي وانصهرت الجمجمة في رأس الملفوف للفزاعة، كأنها دخلت الملفوف وملأته.

ظهر عندئذ إيحاء بوجه مجعد على الملفوف. ولكن المشكلة أنه كان على ظهر الفزاعة، وتعثرت الفزاعة عثرة خشبية، وقفزت إلى الأعلى بلا يقين، ثم أدارت جسدها برشاقة بحيث صار جانبه الأمامي تحت وجه الملفوف المجعد. ثم أرخت ذراعيها الممدودتين وأنزلتهما على الجانبين بهدوء.

«يمكنني الحديث الآن»، قالت بصوت عاطفي بعض الشيء.

«سأقع مغشيًا علي»، قالت فاني على الدرج.

«كلام فارغ»، قالت السيدة فيرفاكس من خلف فاني. «هذا الشيء ليس إلا غولم[1] لساحر، وعليه أن يؤدي ما أرسل من أجله، ولا ضير في هذا».

بدت لتي أيضًا على وشك الإغماء، لكن الوحيد الذي لم يفعل كان بارسيفال. فقد ارتمى أرضًا، بهدوء شديد واضطجع ملتفًا كأنه

---

(١) صنم بشري الشكل يصنع من جماد (كالطين أو الوحل) وتبث فيه الحياة.

نائم. ركضت لتي نحوه رغم خوفها لتصد الفزاعة التي وثبت مرة أخرى ووقفت أمام پارسيڤال.

«هذا واحد من الأجزاء التي أُرسلت للعثور عليها»، قالت بصوتها العاطفي. وتمايلت على عصاها حتى كانت مواجهة لصوفي وقالت «لا بد أن أشكرك. لقد كانت جمجمتي بعيدة عني وقد نفدت قوتي قبل الوصول إليها. لو لم تأتي وتعيدي إلي الحياة بالحديث معي لظللت ملقاة في ذلك الوشيع إلى الأبد». واستدارت إلى السيدة فيرفاكس ولتي وقالت «كما أشكركما أيضًا».

«من أرسلك؟ وماذا يتعين عليك أن تفعلي؟»، قالت صوفي.

تمايلت الفزاعة بلا يقين، وقالت «أكثر من هذا، ما زالت بعض الأجزاء مفقودة». انتظر الجميع، وكل منهم يشعر بالخوف الشديد فلم يتكلم، أما الفزاعة فدارت على هذا الجانب أو ذاك وهي تفكر فيما يبدو.

«وما دور پارسيڤال؟»، قالت صوفي.

«دعيها تستجمع قواها»، قال كالسيفر. «لم يسألها أحد أن تفسر قبـ...»، ثم توقف عن الكلام فجأة وتقلص حتى صار لهبًا صغيرًا أخضر، فتبادل صوفي ومايكل نظرات الخوف.

تحدث الصوت الجديد من العدم. كان مضخمًا مكتومًا، كأنما يتكلم من صندوق، لكنه صوت الساحرة من غير ريب. «مايكل فشر»، قال، «أخبر معلمك هاول إنه وقع في فخي. والمرأة المدعوة

ليلي أنغوريان في قلعتي في أرض اليباب. أخبره أني سأتركها إن جاء بنفسه لاصطحابها. أهذا واضح يا مايكل فشر؟».

دارت الفزاعة وقفزت نحو الباب المفتوح.

«أوه، كلا!»، صاح مايكل. «أوقفوها! لا بد أن الساحرة أرسلتها لتتمكن من الدخول!».

الفصل الحادي والعشرون

وفيه يُبرَم عقدٌ بحضور الشهود

ركض الكثيرون خلف الفزاعة، وركضت صوفي في الاتجاه المعاكس، عبر خزانة المكانس وإلى المتجر، قابضة على عصاها طوال ذلك.

«هذا خطئي»، غمغمت. «لدي موهبة في ارتكاب الأخطاء! كان علي إبقاء الآنسة أنغوريان في الداخل. لم يكن علي إلا التحدث إليها بتهذيب تلك المسكينة! لقد غفر لي هاول أمورًا كثيرة، لكنه لن يغفر لي هذا الأمر سريعًا!».

وفي متجر الزهور تناولت حذاء الفراسخ السبعة من الواجهة وأفرغت منه زهور الكركديه والورود والماء على الأرض. وفتحت باب المتجر وجرت الحذاء إلى الخارج على الرصيف المزدحم. «اسمح لي»، قالت لعدد من الأحذية والأكمام الطويلة التي تمشي في طريقها. رفعت نظرها إلى الشمس، التي لم يكن العثور عليها سهلًا في السماء الغائمة الرمادية. «لنرَ. جنوب غرب، من هنا. اسمح لي، اسمح لي»، قالت مفسحة مكانًا صغيرًا للحذاء بين المستجمّين.

ووضعته مشيرة إلى الاتجاه الصحيح، ثم لبسته وأخذت تمشي.

زيب- زيب، زيب- زيب، زيلب- زيب، زيب- زيب، زيب- زيب زيب- زيب، زيب- زيب. كان الأمر بهذه السرعة، وأكثر ارتجاجًا ولهاثًا عند لبس فردتي الحذاء. لمحت صوفي لمحات خاطفة بين الخطوات الطويلة المزدوجة للبيت في نهاية الوادي، يتلألأ بين الأشجار، وعربة فاني واقفة عند الباب، وللسرخس على التلال، ولنهر صغير يجري في وادٍ أخضر، وللنهر نفسه ينزلق في وادٍ أعرض بكثير، وللوادي ذاته يغدو واسعًا جدًا فبدا أزرق لا متناهيًا من بعيد، ولمبانٍ ذات أبراج في البعيد البعيد قد تكون كنغزبري، ولسهل يضيق نحو الجبال ثانية، ولجبل يميل بانحدار شديد تحت حذائها حد أنها تعثرت رغم وجود عصاها، التي ألقت بها العثرة إلى أخدود عميق ذي ضباب أزرق، وأعالي الشجر بعيد في الأسفل، حيث كان عليها أن تخطو خطوة أخرى وإلا وقعت فيها.

وهبطت على رمل أصفر لين، فوكزت عصاها فيه ونظرت حولها حذرة. خلف كتفها اليمنى، على بعد بعض الأميال، ضباب أبيض يتصاعد منه البخار كاد يحجب الجبال التي مشت من فوقها قبل قليل، وتحت الضباب طوق أخضر داكن. فهزت صوفي رأسها، فقد كانت واثقة أن الضباب يعني مكان الزهور، رغم أنها لم تر القلعة المتحركة من هذا المكان البعيد. فخطت خطوة أخرى حذرة، زيب- زيب. كان المكان حارًا حرارة مفزعة، وامتد الرمل ذو

صفرة الصلصال في كل الاتجاهات الآن، يلمع في الحرارة. وتناثرت الصخور في الأرجاء تناثرًا فوضويًا، وكانت النبتات الوحيدة شجيرات قليلة رمادية كئيبة، وبدت الجبال مثل غيوم تتصاعد في الأفق.

«إن كانت هذه أرض اليباب»، قالت صوفي والعرق يسيل في كل تجاعيدها، «فإني أشعر بالأسى على الساحرة لعيشها في هذا المكان».

وخطت خطوة أخرى، ولم يشعرها نسيم الخطوة بالبرودة البتة. كانت الصخور والشجيرات متماثلة، لكن الرمل رمادي أكثر، والجبال غاصت تحت السماء. نظرت صوفي إلى الوهج الرمادي المرتعش أمامها، حيث ظنت أنها سترى شيئًا أعلى من الصخر، ثم خطت خطوة أخرى.

وغدا المكان الآن كالفرن، ولكن على مبعدة ميل مبانٍ غريبة الشكل تقع على ارتفاع طفيف في الأرض ذات الصخور المتناثرة. كان شكلًا خياليًا من الأبراج الملتفة الصغيرة، تصعد نحو برج رئيس فيه ميل طفيف، مثل إصبع هرمة كثيرة العقد. خلعت صوفي الحذاء. كان الجو شديد الحرارة ولم يسعها حمل شيء ثقيل للغاية، فسارت للاستكشاف وليس معها إلا عصاها.

بدا المكان مصنوعًا من حصب اليباب ذي اللون الرمادي المصفر. تساءلت صوفي في بادئ الأمر إن كان جحرًا غريبًا من جحور النمل، ولكن كلما اقتربت وجدت أنه بدا كأن شيئًا ألصق آلافًا من

أصص الزهور الصفراء المبرغلة في كومة مستدقة. ابتسمت، فقد أدهشتها القلعة المتحركة كثيرًا لكونها شبيهة شبهًا واضحًا بداخل المدخنة، وقد كان هذا البناء مصنوعًا من رؤوس المداخن. لا بد أن هذا من عمل عفريت نار.

ولهثت صوفي وهي تنظر إلى الارتفاع، فاتضح فجأة أن هذا هو حصن الساحرة. خرج شخصان برتقالين من المكان المظلم في الأسفل ووقفا بانتظارها، وعرفت وصيفي الساحرة. ولما كانت تشعر بالحر لاهثة، فقد حاولت التحدث إليهما بتهذيب، لتبين أنها لا تريد الشجار معهما. «عصرية طيبة»، قالت.

اكتفيا بالنظر إليها نظرات حزينة. وانحنى لها أحدهما ومد يده مشيرًا نحو الممر المقنطر المظلم القبيح بين الأعمدة المائلة من رؤوس المداخن. رفعت صوفي كتفيها وتبعته إلى الداخل، ومشى خلفها الوصيف الثاني. واختفى المدخل طبعًا حالما عبرته، فرفعت صوفي كتفيها ثانية، إذ ستضطر لمواجهة هذه المشكلة حين تعود.

رتبت شالها المخرّم، وأصلحت تنورتها القذرة ومضت قدمًا. كان الممر شبيهًا قليلًا بالمرور عبر باب القلعة والمقبض متجه نحو الأسود. ومرت لحظة من العدم أعقبها ضوء أغبش. وقد بزغ هذا الضوء من نيران صفراء مخضرة اضطرمت وخفقت في كل مكان، ولكن على نحو ظليل بعث قليلًا من الضوء ولم يبث الحرارة. كلما نظرت صوفي إلى النيران، وجدتها انزاحت عن مكانها إلى الجانب، ولكن هذا هو السحر. رفعت صوفي كتفيها مرة أخرى وتبعت

الوصيف من هذا الطريق وذاك بين عمد نحيفة مصنوعة من رؤوس المداخن كمثل باقي المبنى.

أخذها الوصيف أخيرًا إلى مختلىً في الوسط، أو لعله لم يكن إلا براحًا بين العمد، فقد تشوش ذهن صوفي عندئذ. بدا الحصن هائلًا، رغم أنها ظنت هذا ضربًا من الخداع، مثلما كانت القلعة. كانت الساحرة تقف هناك وتنتظر. ومرة أخرى يصعب شرح كيف عرفت صوفي بهذا، غير أن لا أحد آخر في المكان. كانت الساحرة شاهقة الطول نحيلة وشعرها فاتح، مسرح في ضفيرة كالحبل على كتف هزيلة، ولبست ثوبًا أبيض. وتراجعت الساحرة لما تقدمت صوفي نحوها ملوّحة بعصاها.

«لست بالتي تُهاجَم»، قالت الساحرة بادٍ عليها التعب والوهن.

«أعطيني الآنسة أنغوريان إذن ولن أهاجمك»، قالت صوفي. «سآخذها وأرحل».

تراجعت الساحرة أكثر، محركة يديها، وتحول الوصيفان إلى لطختين لزجتين برتقاليتين علتا في الهواء وطارتا نحو صوفي. «ياخ! اغربا عن وجهي!»، قالت صوفي وهي تضربهما بعصاها. لكن اللطختين البرتقاليتين لم تكترثا لعصاها، بل تفادتاها، والتفّتا ثم اندفعتا خلف صوفي. كانت تفكر أنهما نالتا منها حين وجدت نفسه ملتصقة بهما إلى العمود المصنوع من رؤوس المداخن. وسالت مادة لزجة برتقالية بين كاحليها حين حاولت أن تتحرك وانتزعت شعرها بصورة مؤلمة.

«أفضّل اللزاج الأخضر!»، قالت صوفي. «أرجو أن هذين ليسا صبيين حقيقيين».

«إنهما انبعاث فقط»، قالت الساحرة.

«أطلقيني»، قالت صوفي.

«كلا»، قالت الساحرة. ثم استدارت كأنها فقدت اهتمامها بصوفي تمامًا.

تسلل الخوف إلى نفس صوفي بأن تكون، كعادتها، قد عاثت في الأشياء فسادًا. أخذت المادة اللزجة تغدو أقسى وأكثر مطاطية في كل لحظة. وعندما حاولت صوفي أن تتحرك، طقطق ظهرها على العمود الخزفي. «أين الآنسة أنغوريان؟»، قالت.

«لن تجديها»، قالت الساحرة. «ستنتظرين حتى مجيء هاول».

«إنه ليس بقادم»، قالت صوفي. «فهو عاقل أكثر، ولعنتك لم تنجح البتة».

«ستنجح»، قالت الساحرة مبتسمة قليلًا، «الآن وقد وقعت في شركنا وجئت. سيتعين على هاول أن يكون شريفًا ولو لمرة». وأتت بحركة أخرى، نحو النيران المغبشة، ودرجَ عرش من بين عمودين وتوقف أمام الساحرة. كان رجل يجلس عليه يلبس بزة خضراء وحذاء طويلًا لامعًا. ظنته صوفي نائمًا في البدء، ورأسه بارز من أحد الجانبينن لكن الساحرة أشارت ثانية. اعتدل الرجل، ولم يكن فوق كتفيه رأس، فأدركت صوفي أنها تنظر إلى كل ما بقي من الأمير جستن.

«لو كنت فاني»، قالت صوفي، «لكدت أسقط مغشيًا علي. أعيدي هذا الرأس في الحال! إنه يبدو فظيعًا هكذا!».

«لقد أعددت كلا الرأسين منذ أشهر»، قالت الساحرة. «بعت جمجمة الساحر سولمن حين بعت غيتاره. أما رأس الأمير جستن فإنه يمشي في مكان ما مع بقاياه. هذا الجسد هو مزيج رائع من الأمير جستن والساحر سولمن، وينتظر رأس هاول لنصنع منه الإنسان الكامل. حين نحصل على رأس هاول، فسيكون عندنا الملك الجديد لإنغري وسأحكم بوصفي الملكة».

«إنك مجنونة!»، قالت صوفي. «ليس لك الحق في تقطيع أوصال الناس! ولست أظن رأس هاول سيفعل شيئًا مما تريدين، إذ سيتملص هاربًا على نحو ما».

«سيفعل هاول ما نقوله تمامًا»، قالت الساحرة بابتسامة خبيثة متحفظة. «سنسيطر على عفريت ناره».

أدركت صوفي أنها خائفة للغاية، وعرفت أنها عاثت في الأمر فسادًا. «أين الآنسة أنغوريان؟»، قالت ملوحة بعصاها.

لم يعجب الساحرة تلويح صوفي بعصاها، فتراجعت وقالت «أنا متعبة للغاية. تواصلون إفساد خططي يا قوم. في البدء لم يقترب الساحر سولمن من أرض اليباب، فاضطررت إلى تهديد الأميرة ڤالريا بغية إجبار الملك على إرساله، وحين أتى أخذ يزرع الأشجار. وبعد ذلك لم يسمح الملك للأمير جستن للحاق بالساحر سولمن طيلة شهور، وتبعه السخيف الأحمق إلى مكان ما في الشمال لغاية

ما، وتعين علي استخدام كل فنوني في السحر لإحضاره إلى هنا. أما هاول فقد سبب لي متاعب أكثر، فقد هرب مرة، واضطررت للجوء إلى اللعنة لإعادته، ولما كنت أتقصى عنه ما يكفي لأُحِل عليه اللعنة، دخلت أنت إلى ما بقي من عقل سولمن وأزعجتني أكثر. والآن حين أحضرتك هنا، تلوحين بعصاك وتجادلينني. لقد عملت جاهدة من أجل هذه اللحظة، ولست ممّن يسمح بالجدل»، واستدارت وجالت في العتمة.

نظرت صوفي إلى القوام الطويل الأبيض المتنقل بين النيران الكالحة، وقالت في نفسها أظن العمر قد تمكّن منها! إنها مجنونة! يجب أن أتحرر وأنقذ الآنسة أنغوريان منها بصورة ما! وتذكرت صوفي أن المادة البرتقالية قد تجنبت عصاها، مثلما فعلت الساحرة، فدست عصاها من فوق كتفيها وهزتها على الجانبين حين اتصلت المادة البرتقالية بعمود الخزف. «اخرجي منه!»، قالت، «دعيني أذهب!» وانجرّ شعرها جرًا مؤلمًا، لكن قطعًا برتقالية كالخيوط أخذت تتطاير من الجانبين، فهزت صوفي بعصاها هزًا أقوى.

ونجحت في تحرير رأسها وكتفيها عندما انبعث صوت دوي رهيب. فارتعشت النيران الشاحبة، واهتز العمود القائم خلف صوفي. ثم وقع ارتطام كأن ألف طقم شاي تساقطت في الأسفل، وانهار جزء من سور الحصن. وسطع ضوء عبر ثقب طويل محزز، وخرج شخص يقفز إلى البراح. التفتت صوفي متلهفة آملة أن يكون هاول، لكن الشكل الأسود لم يكن له إلا ساق واحدة؛ لقد كانت الفزاعة مرة أخرى.

عوت الساحرة غضبًا واندفعت نحوه وجديلتها الفاتحة تطير وذراعاها النحيلتان ممدودتان. فوثبت عليها الفزاعة، ثم وقع انفجار آخر عنيف، وطوقت كليهما غيمةُ سحر، تشبه الغيمة فوق پورتهڤن حين تعارك هاول والساحرة. ضربت الغيمة في هذه الناحية وتلك، مالئة الهواء المغبر بالزعيق والدوي. فوقف شعر صوفي. كانت الغيمة على مبعدة ياردات، متنقلة هنا وهناك بين أعمدة الخزف، وكان الثقب في الجدار قريبًا أيضًا. ومثلما ظنت صوفي، لم يكن الحصن كبيرًا حقًا، وكلما تحركت الغيمة عبر الثقب الأبيض الساطع، رأت ما فيها، ورأت شخصين نحيفين يتصارعان وسطها. فنظرت وظلت تهز عصاها من خلف ظهرها.

كانت حرة ناحية ساقيها حين صاحت الغيمة أمام الضوء مرة أخرى. ورأت صوفي شخصًا آخر يقفز عبر الثقب خلفها. كان لهذا أكمام سوداء متطايرة؛ إنه هاول. رأت صوفي شكله بوضوح، وهو يقف مصالبًا ذراعيه يراقب المعركة. للحظة بدا أنه سيترك الساحرة والفزاعة يستمران في القتال، ثم خفق الكمّان الطويلان لما رفع هاول ذراعيه. وفوق الصراخ والدوي، صاح هاول كلمة واحدة غريبة طويلة، ورافقها هزيم رعد. فارتعدت الساحرة والفزاعة، وجلجل قصف الرعد بين أعمدة الخزف، صدى إثر صدى، وكل صدى يحمل شيئًا من غيمة السحر معه. ثم تلاشت إلى حزم ودارت في دوامات ضبابية. ولما غدت سديمًا أبيض رقيقًا، أخذ القوام الطويل ذي الجديلة يترنح، كأنما انطوت الساحرة على نفسها وهي أنحف وأشد بياضًا من ذي قبل. أخيرًا، ولما انقشع السديم تمامًا، سقطت

في كومة بقرقعة صغيرة. وتلاشت الأصداء المليون، فترك هاول والفزاعة يتواجهان مواجهة مدروسة عبر كومة من العظام.

جيد! قالت صوفي في نفسها. وحررت ساقيها وتقدمت نحو القوام عديم الرأس على العرش، إذ كان يثير غضبها.

«كلا يا صديقتي»، قال هاول للفزاعة. وثبت الفزاعة بين العظام وأخذت تبعدها هنا وهناك بساقها. «كلا، لن تجد قلبها هنا، فقد حصل عليه عفريت نارها. أظنه المسيطر عليها لوقت طويل. هذا محزن حقًا». خلعت صوفي وشاحها ووضعته بأناقة على كتفي الأمير جستن عديمتي الرأس، فقال هاول «أظن أن بقايا ما تبحثين عنه هناك». فمشى نحو العرش، والفزاعة تقفز بجانبه. «كالعادة!»، قال لصوفي. «لقد كدت أكسر عنقي للوصول إلى هنا، وأجدك منشغلة بالترتيب بهدوء!».

رفعت صوفي نظرها إليه. ومثلما خشيته، أظهر لها ضوء النهار الساطع باللونين الأبيض والأسود القادم من فجوة السور أن هاول لم يتجشم عناء الحلاقة أو تسريح شعره. ما زالت عيناه محاطتين باللون الأحمر وقد تمزق كماه في عدة مواضع. لم يكن الفرق كبيرًا بين هاول والفزاعة. أوه يا إلهي! لا بد أنه يعشق الآنسة أنغوريان قالت صوفي في نفسها. ثم قالت موضحة «جئت من أجل الآنسة أنغوريان».

«وأنا الذي ظننت أنني لو رتبت أمر زيارة عائلتك لك لجلست هادئة ولو لمرة!»، قال هاول مشمئزًا. «ولكن لا...».

هنالك قفزت الفزاعة أمام صوفي. «لقد أرسلني الساحر سولمن»، قالت بصوتها المبحوح. «كنت أحمي شجيراته من الطيور في أرض اليباب عندما أمسكت به الساحرة. وألقى بكل ما استطاع التخلي عنه من سحره عليّ، وأمرني أن آتي لإنقاذه. لكن الساحرة قطعته إربًا، وأوصاله في أماكن مختلفة. كانت مهمة شاقة. ولولا أنك أتيت وتكلمت إلي فأعدتني إلى الحياة لفشلت في الأمر».

كانت تجيب عن الأسئلة التي سألتها إياها صوفي قبل انطلاقهما.

«وحين طلب الأمير جستن رقية العثور، ظلت تشير إليك»، قالت. «فما سبب ذلك؟».

«إليّ أو إلى جمجمته»، قالت الفزاعة. «نحن أفضل جزء منه».

«وبارسيفال مزيج من الساحر سولمن والأمير جستن؟»، قالت صوفي. لم تكن واثقة أن هذا سيعجب لتي.

هزت الفزاعة وجه الملفوف المجعد موافقة. «كلا الجزأين قالا لي إن الساحرة وعفريت نارها لم يعودا معًا وبوسعي هزيمة الساحرة وحدها»، قالت، «أشكرك على منحي سرعة عشرة أضعاف سرعتي السابقة».

فأزاحها هاول جانبًا. «أحضري هذا الجسد معك إلى القلعة»، قال. «سأنظر في أمرك هناك. علينا أن نعود أنا وصوفي قبل أن يجد عفريت النار وسيلة يتسلل بها إلى دفاعاتنا». وأمسك بمعصم صوفي النحيل. «هيا بنا. أين حذاء الفراسخ السبعة؟».

«فتلكأت صوفي. «ولكن الآنسة أنغوريان...!».

«ألا تفهمين؟»، قال هاول وهو يجرها. «الآنسة أنغوريان هي عفريت النار. إن دخلت إلى القلعة فقد نالت من كالسيفر ومني!».

فغطت صوفي فمها بيديها. «عرفت أنني عثت فسادًا!»، قالت. «لقد دخل مرتين قبلًا. لكنها... لكننه خرج».

«أوه، يا إلهي!»، تذمر هاول. «وهل لمس أي شيء؟».

«الغيتار»، اعترفت صوفي.

«هذا يعني أنه لم يزل هناك»، قال هاول. «هيا بنا!»، وسحب صوفي نحو الجدار المحطم. «اتبعينا بحذر»، صاح بالفزاعة. «سأرفع الريح! لا وقت لدينا للبحث عن الحذاء»، قال لصوفي وهما يتسلقان الأطراف المحززة في ضوء الشمس الحار. «اركضي، وواصلي الركض، وإلا لن أتمكن من تحريكك».

اتكأت صوفي على عصاها وتمكنت من الانطلاق في ركض أعرج، تتعثر بين الحجارة. ركض هاول بجانبها وهو يجرها. وعلت الرياح صافرة، ثم هادرة حارة رملية، وارتفع الرمل الرمادي حولهما في عاصفة ذات أزيز على الحصن الخزفي. لم يكونا يركضان عندئذ، بل ينزلقان في ما يشبه القفز بالحركة البطيئة. ومرت الأرض الحجرية سريعًا تحتهما، وعصف الغبار والرمل حولهما، عاليًا فوقهما وانساب بعيدًا خلفهما. كان ذلك شديد الصخب وليس بمريح البتة، لكن أرض اليباب انطلقت كالصاروخ إلى الوراء.

«ليس خطأ كالسيفر!»، صاحت صوفي. «أنا قلت له ألا يخبرك».

«ما كان ليقول على أية حال»، صاح هاول ردًا عليها. «علمت أنه لن يتخلى عن عفريت نار مثله، ولقد كان نقطة ضعفي دومًا».

«حسبت أنها ويلز!»، صرخت صوفي.

«كلا! لقد تركتها عامدًا!»، جأر هاول. «عرفت أنني كنت غاضبًا بما يكفي لإيقافها إن حاولت فعل شيء هناك. كان علي أن أترك لها فسحة، أتفهمين؟ إن الفرصة الوحيدة التي نلتها للوصول إلى الأمير جستن كانت عبر استخدام تلك اللعنة التي أنزلتها بي للاقتراب منها».

«كنت ذاهبًا لإنقاذ الأمير جستن إذن!»، صاحت صوفي. «لماذا تظاهرت بالهرب؟ لتخدع الساحرة؟»

«ليس تمامًا!»، صرخ هاول. «إنني جبان. الوسيلة الوحيدة للقيام بأمر مفزع كهذا هو إخبار نفسك أنك لن تفعليه!».

أوه يا إلهي! قالت صوفي في نفسها، وهي تنظر إلى دوامة الرمل. إنه صادق، وهذه ريح، لقد تحقق آخر جزء من اللعنة!

أصابها الرمل الساخن عاصفًا وآلمتها قبضة هاول. «واصلي الركض!»، زعق هاول. «ستصابين بأذى بسبب سرعتك هذه!» لهثت صوفي وأطلقت ساقيها ثانية. واستطاعت الآن رؤية الجبال بوضوح وخط من الخضرة في الأسفل كانت أجمات مزهرة. ورغم أن الرمل الأصفر استمر في الدوران في الطريق، فقد بدت الجبال

أكبر واقترب منهما الخط الأخضر حتى صار بعلو الوشيع. «كل جوانبي ضعيفة!»، صاح هاول. «كنت أعتمد على حياة سولمن. ثم لما عرفت أن كل ما بقي منه هو پارسيڤال، انتابني خوف شديد فاضطررت للخروج والشرب حتى الثمالة. ثم ذهبت وفعلتِ ما أرادته الساحرة!».

«إنني الكبرى!»، صاحت صوفي. «أنا فاشلة!».

«هراء!»، صرخ هاول. «إنك لا تفكرين فحسب!» كان هاول يبطئ سرعته، وارتفع الرمل حولهما في غيوم كثيفة. أدركت صوفي أن الشجيرات كانت قريبة جدًا لأنها سمعت اندفاع الريح الرملية وحفيفها على أوراق الشجر. فسقطا بينها بارتطام، وهما مازالا مسرعين فاضطر هاول إلى الانحراف وسحب صوفي في ركض طافٍ عبر البحيرة. «وأنت شديدة اللطف»، أضاف، فوق هدير الماء وبقبقة الرمل على أوراق زنابق الماء. «كنت أعتمد على غيرتك الشديدة فلا يقترب ذلك العفريت من المكان».

فوصلا الشاطئ الذي يتصاعد منه البخار في ركض بريء. انسحقت الشجيرات على جانبي الدرب الأخضر وتكومت في مرورهما، ملقية بالعصافير والبتلات في دوامة الريح من خلفهما. كانت القلعة تسير برشاقة على الدرب نحوهما، ودخانها ينساب مع الريح إلى الوراء. وأبطأ هاول سرعته وفتح الباب الأمامي، وألقى بصوفي وبنفسه إلى الداخل.

«مايكل!»، صاح.

«لست أنا من سمح للفزاعة بالدخول!»، قال مايكل شاعرًا بالذنب.

بدا كل شيء كعادته، ودهشت صوفي لمعرفتها قصر الوقت الذي قضياه في الخارج. سحب أحدهم سريرها من تحت الدرج وكان پارسيڤال مستلقيًا عليه، ولم يزل فاقدًا الوعي، وتحلق حوله لتي ومارثا ومايكل. وفي الأعلى سمعت صوفي صوت السيدة فيرفاكس وفاني، مصحوبين بحفيف وخبط مشؤومين أوحى بقضاء عناكب هاول وقتًا عصيبًا.

ترك هاول صوفي وتقدم نحو الغيتار، وقبل أن يمسه انفجر بدوي طويل منغّم، وتدلت أوتاره، وأمطرت هاول شظايا الخشب، واضطر للتراجع واضعًا كمًا باليًا على وجهه.

ووقفت الآنسة أنغوريان فجأة قرب المصطلى تبتسم. كان هاول محقًا، فلا بد أنها كانت مختبئة في الغيتار طيلة الوقت، تتحين فرصتها.

«ساحرتك ماتت»، قال لها هاول.

«إن هذا لمحزن جدًا!»، قالت الآنسة أنغوريان بلا اكتراث. «بوسعي الآن أن أصنع لنفسي بشريًا أفضل بكثير، فقد تحققت اللعنة، ويمكنني أن أقبض على قلبك الآن». وانحنت على الموقد وانتزعت منه كالسيفر. وتمايل كالسيفر أعلى قبضتها المحكمة، بادٍ عليه الذعر. «لا يتحركن أحدكم»، قالت الآنسة أنغوريان متوعدة.

لم يجرؤ أحد على الحركة، ووقف هاول بهدوء أكثر من الجميع.
«النجدة!»، قال كالسيفر واهنًا.

«ليس لأحد أن يساعدك»، قالت الآنسة أنغوريان. «ستساعدني في السيطرة على إنساني الجديد. دعني أرِك، فلن أفعل شيئًا إلا إحكام قبضتي»، وضغطت يدها التي تحمل كالسيفر حتى غدت براجمها صفراء شاحبة.

صرخ هاول وكالسيفر، وضرب كالسيفر من هنا وهناك متألمًا، وازرقّ وجه هاول وانهار على الأرض مثلما تسقط شجرة، حيث استلقى مغشيًا عليه مثل بارسيڤال. وظنته صوفي لا يتنفس.

دهشت الآنسة أنغوريان، ونظرت إلى هاول وقالت «إنه يتصنع».

«كلا، لا يفعل!»، صرخ كالسيفر، وقد التف في شكل لولبي ملتوٍ. «إن قلبه رقيق حقًا، فاتركيه».

رفعت صوفي عصاها، ببطء ورفق. ولكنها فكرت للحظة هذه المرة قبل أن تفعل. «أيتها العصا»، غمغمت، «اضربي الآنسة أنغوريان، ولا تؤذي أحدًا آخر». فلوحت بالعصا وضربت براجم الآنسة أنغوريان المحكمة بأشد ما استطاعت.

فأطلقت الآنسة أنغوريان هسيسًا رنانًا مثل جذل رطب يشتعل وألقت كالسيفر. فتدحرج المسكين كالسيفر على الأرض عاجزًا، مضطرمًا من جانبيه عبر البلاط وهادرًا بصوت أجش من الخوف.

فرفعت الآنسة أنغوريان قدمًا لتدوس عليه، واضطرت صوفي لترك عصاها والقفز لإنقاذ كالسيفر. فدهشت لما رأت عصاها تضرب الآنسة أنغوريان من تلقاء نفسها مرة بعد مرة. ولكنها ستفعل طبعًا! قالت صوفي في نفسها، فقد تحدثت إلى تلك العصا وأعادتها إلى الحياة، هذا ما أخبرتها به السيدة پنتستمن.

صفرت الآنسة أنغوريان وترنحت، ونهضت صوفي ممسكة بكالسيفر لتجد عصاها تضرب الآنسة أنغوريان وتدخن بفعل حرارتها. من ناحية ثانية، لم يكن كالسيفر شديد الحرارة، فقد كان لونه أزرق حليبيًا جراء الصدمة. وأحست صوفي بالكتلة الداكنة التي هي قلب هاول تنبض نبضًا ضعيفًا بين أصابعها. لا بد أن ما تحمله هو قلب هاول، فقد منحه لكالسيفر ليكون جزءه من العقد، ليبقي كالسيفر على قيد الحياة. لا شك أنه شعر بالأسى لحال كالسيفر، ولكن رغم ذلك، يا له من شيء سخيف فعله!

دخلت فاني والسيدة فيرفاكس مسرعتين من العتبات تحملان مكانس. وقد أقنعت رؤيتهما الآنسةَ أنغوريان بفشلها، فركضت ناحية الباب، وعصا صوفي تحوم حولها وهي تكيل لها الضربات.

«أوقفوها!»، صاحت صوفي. «لا تسمحوا لها بالخروج! احرسوا كل الأبواب!».

فأسرع الجميع مطيعًا. ووقفت السيدة فيرفاكس في خزانة المكانس رافعة مكنستها، ووقفت فاني على الدرج. قفزت لتي وحرست الباب المطل على الفناء ووقفت مارثا عند الحمام، وركض

مايكل نحو باب القلعة. غير أن پارسيڤال هب واقفًا من فراشه وركض نحو الباب أيضًا. كان وجهه شاحبًا وعيناه مغمضتين لكنه جرى أسرع من مايكل، فوصل هناك أولًا وفتح الباب.

توقفت القلعة عن الحركة بسبب وهن كالسيفر الشديد. ورأت الآنسة أنغوريان الشجيرات ساكنة في السديم خارجًا وركضت نحو الباب بسرعة لا إنسانية. وقبل أن تصله سدته الفزاعة، تلوح وعلى كتفيها تعلق الأمير جستن، وما زال وشاح صوفي المخرم يغطيه. فبسطت ذراعيها العصوين على جانبي الباب سادة الطريق، فتراجعت الآنسة أنغوريان مبتعدة عنها.

واشتعلت النار في العصا التي كانت تضربها، وتوهج طرفها المعدني. وأيقنت صوفي أنها لن تستمر طويلًا. لحسن الحظ فقد كرهتها الآنسة أنغوريان غاية الكره فقبضت على مايكل وسحبته في طريقها، لكن العصا أمرت بألا تؤذي مايكل. لذا حامت مشتعلة، واندفعت مارثا وحاولت جر مايكل بعيدًا. وكان على العصا تفاديها أيضًا. لقد أفسدت صوفي الأمر ثانية.

ما من وقت لتضييعه.

«كالسيفر»، قالت صوفي، «سأبطل عقدك. أيقتلك هذا؟».

«سيقلتني إن أبطله أحد غيرك»، قال كالسيفر بصوت مبحوح. «ولهذا سألتك أن تفعلي. أخبرتك أنك تكلمين الأشياء وتعيدين إليها الحياة. انظري ماذا فعلت للفزاعة والجمجمة».

«فلتعش ألف سنة أخرى إذن!»، قالت صوفي، وتمنت بقوة

وهي تقولها، إن لم يكن الكلام كافيًا وحده. كان هذا يثير قلقها كثيرًا، فأمسكت بكالسيفر وانتزعت منه الكتلة السوداء، مثلما تنتزع برعمًا ميتًا عن ساق نبتة. دار كالسيفر طليقًا وحام حول كتفها مثل قطرة زرقاء.

«أشعر بالخفة!». ثم تبين له ما حدث، «إنني حر!»، صاح. ودار متجهًا نحو المدخنة وغاص فيها متواريًا عن الأنظار. «أنا حر!»، سمعته صوفي يصرخ في الأعلى بصوت خافت حين خرج من رأس مدخنة متجر القبعات.

استدارت صوفي نحو هاول حاملة الكتلة السوداء شبه الميتة، يساورها الشك رغم سرعتها. كان عليها فعل هذا على نحو صحيح، ولم تكن واثقة من كيفية فعل ذلك. «حسن، ها قد بدأنا»، قالت جاثية بجانب هاول، ووضعت بحذر الكتلة السوداء على صدره في الجانب الأيسر الذي أحست أن قلبها قد آلمها فيه، ودفعت. «ادخل»، قالت له. «ادخل هناك واعمل!»، ودفعت ودفعت. أخذ القلب يغوص، وينبض بقوة أكبر كلما توغل. حاولت صوفي تجاهل النيران والنزاع الدائر قرب الباب وأن تواصل الضغط الهادئ الثابت. وظل شعرها يعيقها، وتساقط على وجهها في خصلات حمراء فاتحة، لكنها حاولت تجاهل هذا أيضًا، ودفعت.

دخل القلب، وحالما اختفى عن الأنظار تململ هاول. فأطلق أنينًا عاليًا وتدحرج منكبًا على وجهه، وقال «يا للهول! إنني مصاب بصداع الثمالة!».

«كلا، لقد ضربت رأسك على الأرض»، قالت صوفي.

نهض هاول مستندًا على يديه وركبتيه مرتعشًا. «لا أستطيع البقاء»، قال، «يجب أن أنقذ تلك الحمقاء صوفي».

«أنا هنا!»، قالت صوفي وهي تهز كتفيه. «ولكن الآنسة أنغوريان هنا أيضًا! فانهض وافعل شيئًا لأمرها! بسرعة!».

اشتعلت النيران بالعصا بأكملها الآن، وكان شعر مارثا يحترق. واتضح للآنسة أنغوريان أن الفزاعة ستحترق، وكانت تناور لاستدراج العصا الحائمة إلى الممر. وقالت صوفي في نفسها لم أفكر في هذا كعادتي!

احتاج هاول إلى إلقاء نظرة واحدة فقط، فنهض على عجالة، ومد يدًا وتلفظ بجملة من تلك الكلمات التي ضاعت في هزيم الرعد. وتساقط الجص من السقف، وارتج كل شيء، لكن العصا تلاشت وتراجع هاول وفي يده شيء صغير أسود قاسٍ. قد تكون كتلة فحم، غير أن لها الشكل نفسه للشيء الذي دفعته صوفي في صدر هاول. وتأوهت الآنسة أنغوريان مثل نار رطبة ومدت ذراعيها متوسلة.

«أخشى أني لن أفعل»، قال هاول، «فقد حظيت بوقتك. وعند النظر إلى هذه، فقد كنت تحاولين الحصول على قلب جديد أيضًا. كنت ستأخذين قلبي وتجعلين كالسيفر يموت، أليس كذلك؟» وحمل الشيء الأسود بين راحتي يديه وضغطها. تفتت قلب الساحرة القديم في رمل أسود وسخام وعدم، واختفت الآنسة

أنغوريان أثناء ذلك. وحين فتح هاول يديه فارغتين، اختفت الآنسة أنغوريان من الممر أيضًا.

حدث شيء آخر أيضًا. حالما اختفت الآنسة أنغوريان، اختفت الفزاعة أيضًا. ولو تجشمت صوفي عناء النظر لرأت رجلين طويلين يقفان في الممر، يتبادلان الابتسام. كان لذي الوجه المجعد شعر بلون الزنجبيل، أما لابس البزة الخضراء فله ملامح أكثر غموضًا ولفّ على كتفي بزته وشاح مخرم. لكن هاول استدار إلى صوفي عندئذ وقال «إن اللون الرمادي لا يليق بك حقًا. أدركت ذلك منذ رأيتك أول مرة».

«لقد رحل كالسيفر»، قالت صوفي. «كان علي إبطال عقدك».

بدا الحزن قليلًا على وجه هاول، لكنه قال «كان كل منا يرجو أن تفعلي. إذ لم يرغب أي منا أن ينتهي به الأمر مثل الساحرة والآنسة أنغوريان. أتسمين شعرك زنجبيلي اللون؟».

«أحمر ذهبي»، قالت صوفي. لم يتغير في هاول الشيء الكثير، الآن وقد استعاد قلبه، عدا أن عينيه كانتا ذواتي لون أغمق، أكثر شبهًا بالعينين وأقل شبهًا بالكرات الزجاجية.

«على عكس شعر بعض الناس»، قالت، «إنه طبيعي».

«لم أفهم يومًا لمَ يقدّر الناس الأشياء لأنها طبيعية»، قال هاول، وأيقنت صوفي أنه لم يتغير البتة.

لو أبدت صوفي شيئًا من الانتباه، لرأت الأمير جستن والساحر

سولمن يتصافحان ويتبادلان التربيت على الظهر مبتهجين. «يجدر بي العودة إلى أخي الملك»، قال الأمير جستن. وتقدم نحو فاني، باعتبارها الأكثر جاذبية، وانحنى لها انحناءة تودد «أأخاطب سيدة هذا البيت؟».

«إه... ليس تمامًا»، قالت فاني محاولة إخفاء المكنسة خلف ظهرها. «إن سيدة البيت هي صوفي».

«أو ستكون هكذا قريبًا»، قالت السيدة فيرفاكس، مبتسمة ابتسامة ودودة.

قال هاول لصوفي «كنت أتساءل طوال الوقت إن كنت سأكتشف أنك تلك الفتاة الجميلة التي التقيتها في يوم مايو. لماذا كنت خائفة حينئذ؟».

لو كانت صوفي منتبهة، لرأت الساحر سولمن يتقدم نحو لتي. لقد استعاد هيئته، وتبين أن الساحر سولمن كان صعب المراس بقدر لتي. وبدت لتي شديدة التوتر لما تقدم منها سولمن بصوت خشن «يبدو أنها كانت ذاكرة الأمير جستن عنك وليست ذاكرتي»، قال.

«لا بأس بهذا»، قالت لتي بجرأة. «كان خطأ».

«لكنها لم تكن!»، اعترض الساحر سولمن. «أتسمحين لي أن أتعهدك لتكوني تلميذتي؟»، فاحمر وجه لتي احمرارًا شديدًا عندئذ ولم تعرف ماذا تقول.

رأت صوفي أن هذه مشكلة لتي، وهي لديها مشكلتها. فقد قال

هاول «أظن أن علينا أن نعيش في سعادة أبدية»، وظنته يعني ذلك. وأدركت صوفي أن العيش في سعادة أبدية مع هاول سيكون زاخرًا بالأحداث أكثر بكثير من أي قصة أثبتت هذا، رغم أنها عزمت على المحاولة.

«وستستغلني»، قالت صوفي.

«فستقصين كل بدلاتي عندئذ لتلقيني درسًا»، قال هاول.

لو كان لصوفي أو هاول فائضًا من الانتباه، لشاهدا الأمير جستن والساحر سولمن والسيدة فيرفاكس كلهم يحاولون التحدث إلى هاول، وفاني ومارثا ولتي يسحبن صوفي من كمها، أما مايكل فكان يشد سترة هاول.

«كان هذا أفخم استخدام للكلمات شهدته من أحد في حياتي»، قالت السيدة فيرفاكس. «ما كنت لأعرف ما أفعل بذلك الكائن، وكما أقول دومًا...».

«صوفي»، قالت لتي، «أحتاج مشورتك».

«أيها الساحر هاول»، قال الساحر سولمن، «علي أن أعتذر لك لأني حاولت عضك كثيرًا. لو كنت على طبيعتي، لما تصورت أن أضع أسناني على ابن بلدي».

«أظن هذا الرجل المهذب أميرًا يا صوفي»، قالت فاني.

«سيدي»، قال الأمير جستن، «علي أن أشكرك لإنقاذي من الساحرة».

«صوفي»، قالت مارثا، «لقد زالت عنك الرقية! أسمعتني؟».

لكن صوفي وهاول كانا يمسكان بيدي بعضهما ويبتسمان ويبتسمان، دون أن يستطيعا التوقف. «لا تزعجوني الآن»، قال هاول، «لقد فعلت ذلك مقابل المال فحسب».

«كاذب!»، قالت صوفي.

«قلت»، صاح مايكل، «إن كالسيفر قد عاد!».

فجذب هذا انتباه هاول وصوفي أيضًا. ونظرا إلى الموقد، حيث، بلا شك، كان الوجه الأزرق المألوف يخفق بين الجذول.

«ليس عليك فعل ذلك»، قال هاول.

«لست أمانع، ما دمت قادرًا على الرواح والغدوّ»، قال كالسيفر. «ثم إنها تمطر في ماركت تشيبنغ».

النهاية